صلاح الدين الأيوبى

نسر الشرق (1138م - 1193م)

اسم الكتاب / صلاح الدين الأيوبى

إعداد وتقديم /د. سمير إمام أبوشرف

رقم الإيداع / 171805 - 2016

الترقيم الدولي / 7 - 035 - 355 - 977 - 978

تصميم الغلاف / محمد زهران

الناشر / مكتبة زهران

بالاشتراك مع / دار الراوي

صلاح الدين الأيوبى
نسر الشرق

(1138م – 1193م)

د. سمير إمام أبوشرف



بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا صلاح الدين الأيوبى؟

لأنه فارس نبيل وقائد من أفضل من عرفتهم البشرية وشهد بأخلاقه أعداؤه من الصليبيين قبل أصدقائه وكاتبي سيرته، شخصية عملاقة، محرر القدس من الصليبيين وبطل معركة حطين.

أنه المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى الملقب بالملك صلاح الدين .

بطل مسلم ولن ينساه التاريخ لما قام به من دور عظيم فى الدفاع عن العروبة والإسلام.

ولد صلاح الدين فى مدينة تكريت العراقية عام 1138م وكانت ليلة ولادته هى نفس الليلة التى انتقلت أسرته فيها من تكريت إلى الموصل ثم انتقلت أسرة صلاح الدين إلى دمشق وقضى فترة طفولته وشبابه فى البلاط الملكى وتعلم علوم الفلسفة وعلوم الرياضة وحفظ القرآن الكريم والأحاديث وكان بطلاً ماهرًا فى جيش عمه (أسد الدين شيركوه).

أنها قصة بطل تستحق منا وقفة لنتخذ من هذا البطل قدوة.

والله الموفق والمستعان

المؤلف (د. سمير إمام أبوشرف)

أشمون – محافظة المنوفية – ج.م.ع



تمهيد

(1)

حال العرب قبل ظهور صلاح الدين الأيوبى

ماذا كان الحال قبل ميلاد صلاح الدين الأيوبى

كان ميلاد صلاح الدين الأيوبى عام 1138م الموافق 532هـ فماذا كان حال العرب قبل ظهور صلاح الدين الأيوبى.

قبل ميلاده ضعفت الدولة العباسية وتفككت، وظهرت دويلات مستقلة، وبذلك تصدعت وحدة الخلافة العباسية، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تنتقل فى القرن العاشر الميلادى من الدفاع إلى الهجوم، حتى سيطرت على (أرضوم) وأجبرت حكام (ملطية) و(ديار بكر) و(ميافارقين) على دفع إتاوة للبيزنطيين، ثم سيطرت على (مرعش) وعلى (طرسوس)، ولم تحل سنة 959م إلا وصل ووصل الجيش البيزنطى إلى غربى شواطئ دجلة.

وفى زمن (نقفور فوقاس) وصل البيزنطيون (حلب) سنة 962م. ولما عجز عن الاستيلاء على قلعتها، ققل راجعًا، ثم عاد فأغار على (معرة النعمان) و(شيزر) سنة 968م. وسيطر على (أنطاكيا) سنة 969م، وفى هذه السنة حكم الفاطميون مصر وجنوب بلاد الشام، وهكذا كان الحال حتى عام 969م.

وفى زمن حنا زمسكيس (شمشقيق) فقد وصل البيزنطيون إلى (دمشق) و(طبرية)، واتخذ هذا الزحف طابعًا صليبيّاً واضحًا، ظهر بجلاء حينما صرحوا أنهم يزحفون نحو الأرض المقدسة، ولم يستعص على الإمبراطور (حنا) إلا (طرابلس)، ولم يستطع الوصول إلى القدس، وكانت أقصى نقطة وصل إليها فى بلاد الشام جنوبًا هى (مرج ابن عامر) الواقع بين (حيفا) و(بيسان).

وعاود البيزنطيون الهجوم على بلاد الشام، فاستولوا على شيزر وحمص وطرطوس عام 385هـ/ 995م.

السلاجقة:

السلاجقة أتراك موطنهم الأصلى أواسط آسيا، فى المناطق السهلية ببحر آرال (بحر خوارزم)، اعتنقوا الإسلام وهم فى طريق هجرتهم إلى بلاد الشام، عند نهر سيحون (سردارية) نسبوا إلى جدهم سلجوق بن تقاق، وتبعوا الغزنويين حتى استطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة 428هـ/ 1038م، وتابع زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك العمل كل لصالحه، فتوسعوا فى فارس وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى، وفى سنة 1050م دخل طغرل نفسه أصفهان، وجعلها حاضرة ملكه، وبدأ التدخل فى شؤون الدولة العباسية، التى كانت تمر بمحنة قاسية بعد أن ظلت قرابة قرن ترزخ تحت حماية آل بويه وسيطرتهم[1] ولم

(1) دخل البويهيون بغداد 334هـ/ 945م أيام الخليفة المستكفى بالله، ودخلها السلاجقة 447هـ/ 1055م أيام القائم بأمر الله، فقضوا على دولة آل بويه، بقى

يتورع البساسيرى الذى ترك له البويهيون مقاليد الأمور من تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية، ودخل بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية، وأبلغ الخليفة العباسى القائم بأمر الله بذلك، فاستنجد بالسلاجقة السنة، فسار طغرل بك إلى بغداد سنة 1055م، ليقضى على البساسيرى ويقتله، وبذلك سيطر السلاجقة على الخلافة العباسية بعد البويهيين.

وتبدل الموقف فى العالم الإسلامى عند وفاة طغرل بك سنة 1063م، فبعد أن كانت الإمبراطورية البيزنطية تجد على حدودها الشرقية فى القرن العاشر الميلادى دولة إسلامية منحلة سياسيّاً، ومنقسمة على نفسها مذهبيّاً وحربيّاً، إذ بالعنصر التركى الذى ظهر على مسرح الأحداث فى القرن الحادى عشر الميلادى يبث فى الدولة الإسلامية روحًا جديدة، وعزيمة قوية، ويهيئ للمسلمين فى الشرق الأدنى قدرًا من الوحدة، مكنتهم من استئناف التوسع من جديد على حساب جيرانهم البيزنطيين حتى تمكن السلاجقة من الوصول إلى ملاذكرت[1].

معركة ملاذكرت Malazgirt وانتصار السلاجقة

كانت معركة ملاذكرت بين السلاجقة المسلمين بقيادة السلطان ألب أرسلان، وجيش الدولة البيزنطية - الرومية الشرقية - بقيادة إمبراطورها رومانوس الرابع بتاريخ 463هـ/ 29 آب (أغسطس) 1071م.

خلالها الخلفاء العباسيون فى الحكم صورة فقط، (الدول الإسلامية، ستانلى لين بول، 36 و283)

(1) ملاذكرت: بلدة على مقربة من بحيرة وان، كانت تدعى قديمًا: مانتزيكرت، كانت عاصمة لإمارة عربية فى القرن التاسع الميلادى، احتلها البيزنطيون سنة 1001م.

وترجع أسبابها إلى تمكن السلطان السلجوقى ألب أرسلان فى مدة قصيرة من الاستيلاء على معظم البلاد الرومية المجاورة، مثل جورجية وبلاد الأرمن، وعمل على نشر الإسلام فى هذه المناطق، فكان طبيعياً أن يغضب هذا إمبراطور الروم رومانوس الرابع (يوجينس) فصمم على غزو الشام، فجمع جيشًا جرارًا، ضم أخلاطًا من الشعوب النصرانية، فيهم الروس والفرنسيون والبلغار واليونانيون والجورجيون، وسار بهم إلى أن عسكر فى نواحى ملاذكرت بالقرب من مدينة أخلاط، شمال بحيرة وان، فى شرقى آسيا الصغرى.

وحينما أيقن ألب أرسلان أنه لا قبل له بهذا الجيش، عرض الصلح على الروم، ولكنهم رفضوا اغترارًا بقوتهم وجموعهم، لقد أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور قائلاً: (لا هدنةإلا بالرى)، أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم، مدينة الرى - طهران حاليًا - وعندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان، ولم يعد هناك مفر من القتال، فأعلن الجهاد المقدس لإنقاذ بلاد الإسلام من الصليبيين، فقويت الروح المعنوية لدى جنوده، واستماتوا فى القتال، وتمكنوا من انتزاع النصر فى معركة حامية الوطيس بالقرب من ملاذكرت، وأسر قائد الروم، وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين الطرفين مدتها خمسون سنة، تعهد الروم فيها بدفع الجزية للسلاجقة، وافتدى رومانوس نفسه بمال كثير، ورجع إلى بلاده صارفًا النظر عن هذا الجزء من آسيا الصغرى.

كانت هزيمة ملاذكرت أفدح خطب نزل بالدولة الرومانية الشرقية منذ أحقاب طويلة، وكان لها أكبر الأثر فى تحطيم منعتها، وتفكيك أوصالها،

ومهدت لقيام مملكة الروم الإسلامية، فى قلب آسيا الصغرى، لأن ألب أرسلان عين على إثر ملاذكرت، أميرًا من أبناء عمومته هو سليمان قطلمش حاكمًا على الأراضى الإسلامية فى آسيا الصغرى، وتمكن هذا الأمير من التوسع غربًا، وانتزع أنطاكيا من الروم، وجعل قونية عاصمة دولته الجديدة.

وساعد هذا الانتصار على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها على أيدى الأتراك العثمانيين بعد ذلك، وكان من نتائج هذه المعركة أيضا أن استغاثت القسطنطينية بأمم الغرب، فراع هذا البابا جريغورى السابع، فرأى المبادرة بإعداد حملة لحماية الدولة الشرقية التى كان يعدها سدّا منيعًا لحماية أوروبا من وثبات الإسلام من جهة الشرق، فاستغاث بأمراء أوروبا، ولكنه لم يلق تجاوبًا، وكان على البابا الجديد أوربان الثانى أن يحيى مشروعه فتدارك خطأ سلفه بأن وجه الدعوة إلى الأمراء والدهما، ونجح فى إثارة النصارى ضد المسلمين، وجمع منهم جيشًا كبيرًا سار به إلى الشام، وكانت أنطاكية أول قاعدة كبيرة وقعت بأيديهم[1].

وهكذا.. فإن أهم نتائج ملاذكرت: كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية، دلت على أنها ليست قادرة على حماية المسيحية، وحراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزو الآسيويين، فبدأ يفكر أن يقوم هو نفسه بحماية نفسه، لذلك رأى بعض المؤرخين أن نتيجة لملاذكرت كانت الدعوة للحملات الصليبية سنة 1095م.

ويبدو أن ألب أرسلان أراد أن يوقف البيزنطيين على الحياد إزاء توحيد

(1) الموسوعة العربية العالمية 83/ 24.

العالم الإسلامى، فلم يستغل انتصاره فى محاولة احتلال آسيا الصغرى كلها، فعامل رومانوس الرابع معاملة طيبة، وأحسن وفادته، ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره، وأعاده إلى بلاده معززًا، بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار، يستعين بها على السفر[1]، فلما وصل القسطنطينية، رأى الناس قد نصبوا ميخائيل السابع إمبراطورا، فقبض على رومانوس وسمل عينيه.

واستشهد ألب أرسلان فى حروبه فى ما وراء النهر سنة 1072م، فخلفه ابنه ملكشاه الذى ثبت دعائم دولة السلاجقة، حتى اتسعت فى عهده من حدود الصين شرقًا، حتى بحر مرمرة غربًا، حيث توسع أحد أقربائه وهو سليمان ابن قتلمش فى آسيا الصغرى، واتخذ مدينة نيقية حاضرته، وهى المدينة التى أصبحت أول عاصمة لسلاجقة الروم فى الأناضول، ثم حلت محلها قونية.

واستطاع قلج أرسلان الأول ابن سليمان فرض سيطرته على آسيا الصغرى كلها، باستثناء بعض السواحل المطلة على البحرين الأسود والمتوسط.

وضم السلاجقة إلى سلطنتهم حلب سنة 1079م من صاحبها المرداسى، وأخذوا دمشق وفلسطين، ولم يستطيعوا دخول مصر[2].

واستفاد الصليبيون من النزاع الذى قام بين أمراء آسيا الصغرى وبلاد الشام من السلاجقة، وغرقت بلاد الشام فى بحر من الفوضى، بسبب المنازعات بين السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الفاطميين، فى الوقت

(1) يعترف غاريغوريوس ابن العبرى فى كتاب (تاريخ مختصر الدول) بشهامة ألب أرسلان، 185.

(2) الحركة الصليبية 90.

الذى لاح فيه الخطر الصليبى الأوروبى فى سماء الوطن العربى، ولم تحل سنة 1096م إلا والسلاجقة خمس ممالك متنافسة:

1 - سلطنة فارس، عاصمتها أصبهان، وعلى رأسها بركياروق، الذى كانت له السيطرة على بغداد.

2 - ومملكة خراسان وما وراء النهر، وعلى رأسها أبوالحارث سنجر.

3 - ومملكة حلب، وعلى رأسها رضوان بن تتش.

4 - ومملكة دمشق، وعلى رأسها دقاق بن تتش.

5 - وسلطنة سلاجقة الروم، وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش.

وبذلك تكون القوة التى أثبتت أنها سيوف الإسلام الذائدين عنه، قد تفتتت عند فجر الحركة الصليبية، مما كان له أكبر الأثر فى نجاح الحملة الصليبية الأولى.

وأكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق ظهور عدد من البيوتات الحاكمة، لا تجمعها إلا الاتصال بالبيت السلجوقى، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها آسم الأتابكيات، وعلى أصحابها اسم الأتابكة[1]، منها: أتابكة دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين، وأتابكة الموصل ومؤسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر.

(1) أتابك لفظ تركى، معناه مربى الملك، مشتق من لفظين هما (أتا) بمعنى الأب، و(بك) بمعنى نبيل أو شيخ، و(أتابك) استخدمت إبان العصر العباسى بمعنى مربى الملك، أو مربى الأمير، وهو عادة ممن يمتون إلى الملك أو السلطان بصلة القرابة من جهة الأب، (القاموس الإسلامى 18/ 1).

قصة الحروب الصليبية على المشرق العربى

1 - ماهية الحروب الصليبية:

الحروب الصليبية عبارة عن الحملات العسكرية التى قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من الزمن قصد استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين من جهة، والحد من الزحف الإسلامى الذى أصبح يغزو العالم من جهة أخرى.

2 - أسبابها ودواعيها:

لهذه الحروب أسباب ودواعٍ كثيرة نذكر أهمها:

(أ) ما تحمله الصليبية من حقد دفين ضد الإسلام والمسلمين نتيجة دخول بيت المقدس فى عدل المسلمين، ونتيجة الفتوحات الإسلامية التى امتدت إلى مناطق آسيا، وأفريقيا وأوروبا التى كانت من قبل تحت النفوذ النصرانى.

(ب) تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاحقة المسلمين بعد أن أصبحوا على مقربة منها، فاستنجد الإمبراطور (أليكسيس كومنين) بالدول النصرانية ضد المسلمين.

(ج) حجاج بيت المقدس النصارى الذين كانوا إذا رجعوا إلى أوروبا يهولون ويكذبون فيما يلاقيه النصارى من المسلمين من ظلم وإرهاق،

وكان من ألمع هؤلاء الحجاج ذكرًا، ومن أشدهم عزما فى إثارة الفتنة وتأليب النصارى ضد المسلمين الراهب الفرنسى (بطرس الناسك).

(د) الحماس الدينى: من الرغبة فى إنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين، وغفران الذنوب والخطايا لكل مشارك فى الحروب الصليبية، وكانت المجامع الكنسية وخطب الأساقفة والرهبان والبابا من أفعل الوسائل لإثارة ذلك الحماس الدينى واستغلاله.

(هـ) ميل الفاطميين بمصر إلى محالفة البيزنطيين المسيحيين ضد السلاجقة المسلمين، ليستعينوا بهم على استرداد ما احتله السلاجقة منهم، ومما هو جدير بالذكر أن البابا ألقى خطبة هامة فى مجمع (كليرمون) بفرنسا الذى قررت فيه الحروب الصليبية سنة 488هـ، ويمكن أن تعتبر تلخيصًا موجزًا لجميع ما ذكرناه من حقد دفين، وعداوة ضارية ضد الإسلام والمسلمين، فمما قاله:

(وليست هذه الحروب لاكتساب مدينة واحدة بل هى أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الأراضى المقدسة من أيدى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنًا وعسلاً)[1].

3 - الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس:

فى سنة 486هـ زار بيت المقدس الراهب الفرنسى (بطرس الناسك) ولما رجع اجتمع بالبابا، واتفق أن يكون داعية للحروب الصليبية، أما البابا

(1) الأخبار السنة 13.

فإنه عقد أولا مجمع (بليزانس) بشمالى إيطاليا، ثم عقد مجمع (كليرمون) بفرنسا، وهو الذى قررت فيه الحروب الصليبية.

واتفق الصليبيون على أن يكون لقاؤهم بمدينة (القسطنطينية) وسارت حملة أولى وكانت فى غاية الفوضى والاضطراب، ولما عبرت إلى آسيا الصغرى التقى بها (قليج أرسلان) السلجوقى قرب مدينة (نيقية)[1] فأبادها عن آخرها.

ثم قدمت الجيوش الصليبية الأخرى التى نظمها الإقطاعيون والأمراء: جاءت من جنوب فرنسا وشماليها، ومن جنوب إيطاليا، واجتمعوا كلهم فى (القسطنطينية) ولما عبروا إلى آسيا الصغرى اعترضهم (قليج أرسلان) فجرت لهم معارك كبرى، ثم تقدموا إلى أنطاكيا، وبعد حصار دام أكثر من ثمانية أشهر استولوا عليها، ثم سار الصليبيون فى اتجاههم إلى بيت المقدس، واحتلوها بعد شهر من حصارها سنة 492هـ1099م وفعلوا فيها ما تأباه الأديان السماوية، والرحمة الإنسانية، وقد ارتكبوا بحق المسلمين أشنع الأعمال وأفظعها، وقد بلغ عدد القتلى من المسلمين سبيعن ألفًا حتى إن الدماء سالت أنهارًا فى المسجد الأقصى، وفى الحارات والدروب التى تتفرع منه، ويصف لنا ابن الأثير مظهر استياء المجتمع الإسلامى وقتئذ قائلا: (وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى (أبى سعيد الهروى) فأورد فى الديوان كلاما أبكى العيون،

(1) مدينة قرب القسطنطينية.

وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا، وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال، وسبى الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا).

وبذلك استقر الصليبيون فى البلاد الشامية وأسسوا على السواحل الشامية عدة إمارات، امتدت من خليج الإسكندرونة إلى عسقلان، ومن خليج العقبة إلى شمال الرها[1].

4 - من أسباب انتصار الصليبيين:

وكان من أهم أسباب نجاح الصليبيين فى احتلالهم لبيت المقدس وما حوله، ما كان عليه المجتمع الإسلامى من الانحلال والتدابر، والنزاع والتخاصم.. ولم يستطع العدو أن ينفذ إلى ديار الإسلام، ويسيطر على الأماكن المقدسة، ويستولى على مسرى رسول الله ﷺ إلا لما رأى حال الأمة الإسلامية وما هى عليه من تخاذل، وضعف وانحطاط.. فانتهزها فرصة مواتية لينقض على العالم الإسلامى ويأتى على بنيانه من القواعد، ويجعل أعزة أهله أذلة.

ولهذا نرى كثيرًا من مؤرخى تلك العصور يشيرون إلى تلك الحالة التى منى بها المجتمع الإسلامى في الحرب الصليبية الأولى بمثل هذه الفقرات:

(أ) بينما الفرنج يحاصرون ويحتلون القدس، كان (محمد بن ملكشاه) السلجوقى يحارب أخاه لأبيه (بركياروق).

(1) هى مدينة (أورفا) الحالية بشرق تركيا.

(ب) ملك الفرنج عكا من واليها العلوى.. هذا وملوك الشام مشتغلون بقتال بعضهم بعضًا.

(ج) انقسام البلاد الإسلامية على بعضها، وكيد كل بلد للآخر، وربما استعانت بعض البلاد بالإفرنج لقتال المسلمين.

إلى غير ذلك من النقول التى سجلها المؤرخون فى تواريخهم كابن الأثير وغيره والتى تثبت استحقاق الأمة الإسلامية للاستعمار الصليبى الذى حل بها، ونزل فى ساحتها، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفهسم يظلمون.

5 - الحملة الصليبية الثانية مقدمة للانتصار فى حطين:

سبق أن أشرنا أن الحالة السيئة التى وصل إليها المجتمع الإسلامى قبيل الحروب الصليبية كانت من أهم أسباب نجاح الصليبيين فى احتلالهم لبيت المقدس، ولم تكن هناك وسيلة للتغلب على الصليبيين إلا نهضة إسلامية شاملة توحد المشرق الإسلامى، وتجمع شتاته، لدحر العدو وقهره، وقد بدأت بوادر النهضة تتحقق بنهضة آل زنكى بالموصل حينما كون (عماد الدين زنكى) دولة قوية تمتد من الموصل إلى معرة النعمان سنة 521هـ، وأخذ (عماد الدين) يكيل الضربات للصليبيين الواحدة تلو الأخرى، وكان من أعظمها على (الرها) سنة 539هوإزالة إمارتها، وكان لعمل عماد الدين وجهاده الأثر الأكبر فى إثارة الحرب الصليبية الثانية التى شارك فيها (لويس الرابع) ملك فرنسا، (وكونراد الثالث) إمبراطور ألمانيا، وعرض أن تتجه هذه الحملة الصليبية إلى أكبر خطر يهدد الصليبيين وهو

قتال (نورالدين محمود)[1] الذى تولى ولاية القسم الغربى من المملكة بعد موت أبيه (عماد الدين الزنكى)، فإن الصليبيين توجهوا إلى دمشق وحاصروها مدة قصيرة ثم رجعوا من حيث أتوا، وكان فك الحصار عن دمشق سنة 543هـ وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثانية بهذا الفشل الذريع، والخيبة المرة، مما أنعش المجتمع الإسلامى، وقوى من معنوياته، ومهد للنصر الأكبر فى معركة حطين الحاسمة على يد البطل صلاح الدين.

***

(1) لما توفى عماد الدين زنكى ترك عدة أبناء أكبرهم سيف الدين غازى، ونورالدين محمود، فاقتسم الأخوان المملكة بينهما:

ا لقسم الشرقى لسيف الدين غازى عاصمته (الموصل)، والقسم الغربى لنورالدين محمود عاصمته (حلب)، وكانت مملكة نورالدين محمود بهذا الوضع هى المتاخمة للممالك الصليبية، وهذا من الأسباب التى أدت إلى الصراع.

(2)

الحملات الصليبية واحتلال بيت المقدس

الحملة الصليبية الأولى

أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية منتهزًا فرصة عقد المجمع الدينى فى كليرمونت[1] فى 26 تشرين الثانى (نوفمبر) 1095م، فصادف نداؤه استجابة من جمهور الحاضرين، فصاحوا جميعا صيحة رجل واحد: (هذه مشيئة الله Deus Lo Volt)، وجاءت هذه الصيحة إيذانًا ببداية صفحة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية، قدر لها أن تستمر عدة قرون.

وجثا أدهمار أسقف بوى[2] Puy أمام قدمى البابا راجيًا أن يكون له شرف المساهمة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين، فاختاره البابا أوربان الثانى مندوبًا بابويًا فى الحملة الأولى، وهذا يمثل حرص البابوية على إشرافها وسيطرتها على الحركة الصليبية، وعلى الأراضى التى ستحتلها، وأعلن البابا أوربان أن كل من يشترك فى الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه[3].

(1) كليرمونت Clermont – Ferrand مدينة فى وسط فرنسا.

(2) مدينة بوى Puy جنوب شرق فرنسا.

(3) الحركة الصليبية 133 وما بعدها.

وبعد جولة أوروبية لمشروعه، عاد البابا أوربان إلى روما سنة 1096م، بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبى، مصطحبًا معه ريموند الرابع أمير تولوز[1]، ليكون قائد الحملة العسكرى.

وأثارت دعوة البابا أوربان الثانى حركة شعبية ضخمة، ترتبط فى التاريخ عادة باسم (بطرس الناسك)[2]، الذى سار بحماسة مع فصاحة وهيئة غريبة، ثياب مهلهلة، وقدمان عاريتان، وحمار أعرج، جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة، والدهماء فى غرب أوروبا، حيث إنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة، فيجتمعون فى سرعة غريبة، ويشرعون فى الزحف صوب الشرق، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية، تنظيمًا جديًا من الناحيتين السياسية والحربية.

واستطاع (والتر المفلس) فى شرق أوروبا من جمع أتباع عبر هنغارية إلى القسطنطينية، حيث التقى بطرس الناسك، وارتكبت هذه الجموع التى أتت لتحارب باسم المسيح والمسيحية، جرائم بشعة بحق المسيحيين أنفسهم، فنهبوا سملين Semlin الهنغارية، مع مذبحة رهيبة أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء، واستمر النهب والسلب فى كل طريق هؤلاء، فنهبوا بلغراد ونيش وغيرهما من المدن والقرى الآهلة، حتى اعتدوا على الكنائس.

(1) تولوز Toulouse مدينة فى جنوب فرنسا على نهر الغارون.

(2) بطرس الناسك Pierre L Ermite راهب فرنسى.

وفى تشرين الأول (أكتوبر) 1096م فاجأ السلاجقة هذه الجموع، فلم ينج منهم سوى 3000 فقط من أصل قدر بآلاف، منهم 500 فارس، وهكذا أخفقت (حملة العامة) التى قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس، وبقى ذكرها وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية[1].

بعد إخفاق حملة العامة، قاد جودفرى بوايون أمير لوثرنجية، وبرفقته أخوه بلدوين البولونى، الحملة الصليبية الأولى، وهى أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق.

وصلت الحملة الحدود البيزنطية أواخر تشرين الثانى (نوفمبر) 1096م، وخاف الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين من الحملة لذكريات حملة العامة وأعمالها السوداء، وعلى الرغم من التعهدات، وجعل أخيه بلدوين رهينة عند الإمبراطور أفلت زمام الصليبيين فترة من جودفرى بوايوان، فقام رجاله بالنهب والسلب، ودعا ألكسيوس جودفرى بيوان ليقسم له يمين الولاء، وأن الأراضى التى سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة ستكون للقسطنطينية، رفض جودفرى الدعوة لأنه تابع للإمبراطورية الرومانية المقدسة، فهو والٍ للإمبراطور هنرى الرابع فى الغرب، وهو أمير كاثوليكى ينفذ دعوة البابا أوربان الثانى، فكيف يقدم ولاءه لحامى الكنيسة الأرثوذكسية، وأخذ بالمماطلة حتى تصل الإمدادات وأدرك الإمبراطور ألكسيوس ذلك، فمنع التموين عنه، وأخيرًا اضطر جودفرى إلى قبول شروط ألكسيوس، وتعهد بتسليم الإمبراطور جميع الأراضى التى سيحتلها

(1) الحركة الصليبية 140.

من السلاجقة إليه، وذلك فى نيسان (أبريل) 1097م.

وسار النورمان بعد سماعهم أن جيشًا كبيرًا خرج من فرنسا وألمانيا فى طريقه إلى القدس بقيادة بوهيموند[1]، مع ابن أخته تنكرد من جنوب إيطالية وصقلية، وهى حملة منظمة تسليحها جيد.

كما وصلت جموع من إقليم بروفانس بقيادة ريموند أمير تولوز وبروفانس إلى القسطنطينية فى نيسان (أبريل) 1097م، ووصلت جموع أخرى من فرنسا بزعامة روبرت أمير نورمندية، ليبدأ عبور البوسفور إلى آسيا الصغرى بعد أن أمدهم الإمبراطور البيزنطى بآلات الحصار والطعام والمؤن، لبدء الهجوم على نيقية حاضرة قلج أرسلان الأول، فوصلوها فى 6 آيار (مايو) 1097م، ولم يتمكن قلج أرسلان من حماية المدينة للجموع الكثيفة، على الرغم من خسارة الصليبيين الفادحة، وعادت نيقية، ثم هرقلة، وقيصرية وطرسوس وأضنة ومرعش وعينتاب، ووصلوا أنطاكية فى 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1097م.

اتجه بلدوين إلى الرها بنصيحة من أرمن كيليكية، فدخلها فى آذار (مارس) 1098م، مقيما أول إمارة صليبية فى الشرق.

وفى الوقت نفسه كانت جموع صليبية تحاصر أنطاكية الحصينة، فحوصرت سبعة أشهر من 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1097م، حتى 3 حزيران (يونيه) 1098م، حيث دخلها الصليبيون، ليشكلوا الإمارة الصليبية

(1) أكبر أبناء روبرت جويسكارد الذى غزا الدولة البيزنطية وهدد القسطنطينية ذاتها سنة 1081م.

الثانية، وبعد احتلال البارة ومعرة النعمان.. اتجهت الحملة الصليبية الأولى إلى بيت المقدس، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرًا فى شمال بلاد الشام، من تشرين الأول 1097م إلى كانون الأول (ديسمبر) 1098م.

والذى يسترعى العجب حقا أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها، بدليل أن الفاطميين فى مصر فكروا فى مشروع للتآلف مع تلك القوة الجديدة التى ظهرت فى بلاد الشام، ضد خصومهم العباسيين السنة فى بغداد، والأتراك السلاجقة فى الشام[1].

وكان الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى، صاحب السلطة الفعلية فى مصر منذ 1094م، وحتى 1121م، الذى انتهز فرصة الفوضى التى أصابت العالم الإسلامى، فاحتل القدس، وأرسل عام 1098م سفارة إلى الصليبيين الذين كانوا يحاصرون أنطاكية، فرحبوا بالسفارة، وطمأنوا الفاطميين، ودقاق السلجوقى حاكم دمشق، أنهم لا يطمعون إلا فى استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى، أى الرها وأنطاكية واللاذقية، كما استمالوا رضوان ملك حلب.

تحركت الحملة بقيادة ريموند وتنكرد وروبرت النورماندى بطريق داخلى، كى لا يحاصروا المدن الساحلية فيطول الأمر، ودهش الفاطميون حينما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوبا صوب فلسطين، واستطاع جودفرى بوايون يسانده روبرت دى فلاندرز إجبار ريموند فى الزحف دون إبطاء على بيت المقدس.

(1) الحركة الصليبية 197.

جاء فى (النجوم الزاهرة 5/ 147): لم ينهض الأفضل لمشاركة القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن بلاد الشام، (كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج).

وفى (الكامل فى التاريخ، أحداث 492هـ): الفاطميون دعوا الصليبيين إلى بلاد الشام ليساعدوهم ضد الأتراك السلاجقة، ووجدوا فى سقوط أنطاكية أمنية عزيزة تخلص الشرق من سيطرة الأتراك السنيين.

***

احتلال بيت المقدس

التزم الصليبيون فى حملتهم الأولى طريق الساحل بعد صور، ثم اتجهوا إلى الرملة، ثم تركوها فى 6 حزيران (يونيو) 1099م إلى بيت المقدس، فوصلوها فى 7 حزيران (يونيو) 1099م، وحاول افتخار الدولة حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل اتخاذ الاحتياطات لمواجهة الصليبيين عن طريق ميناء يافا، وفى يوم الجمعة 15 تموز (يوليو) اقتحم الصليبيون بعد حصار دام نيفًا وأربعين يومًا بيت المقدس، فارتكبوا مذبحة وحشية رهيبة[1]، حتى قال مؤرخوهم: إن جنودنا كانوا يخوضون حتى منتصف أرجلهم فى دماء المسلمين، ونهب المسجد الأقصى.

قدر المؤرخون عدد القتلى المسلمين بسبعين ألف قتيل، وذكر وليم الصورى أن بيت المقدس شهدت عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة،

(1) الحركة الصليبية 245.

حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين، أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم، لذلك اعترف الأوربيون أن مذبحة 15 تموز (يوليو) 1099م كانت لطخة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى، إنها مذبحة ظلت تثير الأسى فى قلوب المسلمين، حتى طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام.

وتلقت الدولة الفاطمية الأخبار فى برود، وظلت تغط فى سباتها العميق، والخلافة العباسية لم تحرك ساكنا.

ويعد جودفرى بوايون أول حاكم صليبى لبيت المقدس منذ 22 تموز (يوليو) 1099م، وحمل لقب: (حامى بيت المقدس)، وبعد وفاته، حمل خلفه بلدوين لقب ملك فى 25 كانون الأول (ديسمبر) 1100م، وفى عهده حكم الصليبيون فلسطين، ووصلوا إلى ميناء العقبة 1116م، بعد بناء حصن الشوبك للسيطرة على وادى عربة، فبلغت مملكة بيت المقدس الصليبية أوج اتساعها سنة 1116م، وفكر بلدوين بغزو مصر، ولكنه توفى قرب العريش فى 2 نيسان (أبريل) 1118م.

إمارة طرابلس

تحمس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا فى الحملة الأولى للذهاب إلى بلاد الشام، بعد سماعهم نجاح الحملة، ليفوزوا بنصيب من الغنائم قبل ضياع الفرصة، فتحركت حملة فى أيلول (سبتمبر) 1100م عبرت البوسفور فى نيسان (أبريل) 1101م.

ولكن هذه الجموع كان مصيرها الفشل، بسبب دعم غازى كمتشتكين، فهُزم الصليبيون بين أماسية وسيواس أوائل آب (أغسطس) 1101م، ولقيت

الحملة مصيرًا مشئومًا، اتجهت بقاياها إلى أنطاكية، وإلى القسطنطينية، واتجهت هذه البقايا من أنطاكيا إلى بيت المقدس للحج، ففكر ريموند الصنجيلى فى الاستفادة من تلك البقايا فى الاستيلاء على طرطوس التابعة لبنى عمار، فسقطت بيده فى شباط (فبراير) 1102م، واتجه للاستيلاء على طرابلس من القاضى فخرالدين أبى على بن عمار، الذى حاول الاستنجاد بدقاق ملك دمشق، وأمير حمص جناح الدولة.

واغتال ثلاثة من الباطنية فى جامع حمص الكبير جناح الدولة فى آيار (مايو) 1102م، مخلصين ريموند من ألد خصومه، فاستنجد أهل حمص بدقاق ملك دمشق، الذى دخل حمص وأناب عنه فى حكمها أتابكه طغتكين.

وحاول ريموند احتلال طرابلس فلم يفلح ومات فى نهاية شباط (فبراير) 1105م، فحكم من بعده ابن خالته وليم جوردان.

ولم يفلح الصليبيون فى احتلال طرابلس إلا بعد توحيد جهودهم مع فرسان بيت المقدس وأنطاكية والرها مجتمعين، وذلك بعد حصار دام ست سنوات، ودخل الصليبيون طرابلس فى 12 تموز (يوليه) 1108م، وحكمها برترام بن ريموند، الذى قدم من بروفانس بعد موت أبيه يريد تركته، بعد مقتل وليم جوردان فى ظروف غامضة.

بلغت هذه الإمارة أقصى اتساع لها سنة 1132م، فامتدت من قلعة المرقب شمالاً، حتى نهر الكلب جنوبًا، ومن شاطئ البحر المتوسط غربًا، حتى حصن الأكراد وعكا شرقًا.

***

(3)

ظهور نورالدين زنكى وجهاده ضد الصليبيين

بعد مقتل آقسنقر على يد تتش أخى ملكشاه سنة 1094م دخل عماد الدين زنكى ابن قسيم الدولة آقسنقر فى خدمة أتابكة الموصل، فأظهر همة كبيرة، وكفاية عالية،وبعد موت أتابك الموصل وحلب عزالدين مسعود ابن البرسقى، طلب أعيان الموصل من السلطان السلجوقى تعيين حاكم جديد، يستطيع الدفاع عنها ضد تهيد الصليبيين فوقع الاختيار على زنكى سنة 1128م، فتوسع فى نصيبين وحران وسروج والبيرة، ونظم أمور حلب بعد أن دخلها فى 18 حزيران (يونيو) 1128م.

وكانت الشام مقسمة بين ثلاث قوى:

1 - بورى بن طغتكين أتابك دمشق، وكان يسيطر على دمشق وحماة شمالا، وحوران جنوبا.

2 - صمصام الدين خيرخان، بعد قراجا أمير حمص.

3 - سلطان بن منقذ، المسيطر على شيزر.

انضم خيرخان وسلطان بن منقذ فى ولاء وخضوع لزنكى، ولم يبق أمامه سوى تاج الملوك بورى أتابك دمشق، فتوجه زنكى إلى حماة، ودخلها فى

أيلول (سبتمبر) 1130م، ليتحقق مشروعه بتوحيد قوى المسلمين، فلا يمكن اتخاذ خطوة حاسمة ضد الصليبيين، قبل قيام وحدة بين الإمارات الإسلامية، وبعد تعثر وهزائم، تحول الموقف لصالحه، وبعد موت بورى 1133م، قام ابنه شمس الملوك أبوالفتح إسماعيل فى الحكم، الذى أمعن فى ارتكاب القبائح والمنكرات، فقتل فى مؤامرة دبرتها أمه صفوة الملك زمرد أول شباط (فبراير) 1135م، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بورى حتى قتل أواخر حزيران (يونيو) 1139م، فتدخل معين الدين أنر وقتل القتلة، واستدعى جمال الدين محمد بن بورى أمير بعلبك، ليحل محل أخيه القتيل.

وما كاد زنكى يحاصر دمشق حتى توفى جمال الدين فى 29 آذار (مارس) 1140م، وجمد التحالف الذى تم بين البوريين والصليبيين الموقف فى بلاد الشام، فاتجه زنكى إلى إمارة الرها، متخذًا ذريعة أن جوسلين الثانى أمير الرها تحالف مع بنى أرتق فى ديار بكر، فاتجه إلى ديار بكر، فاطمأن جوسلين أن الخلاف بين زنكى والأرتقيين، فغادر الرها، وعبر الفرات إلى تل باشر، فعلم زنكى بذلك، فانقض على الرها، وحاصرها فى 28 تشرين الثانى (نوفمبر) 1144م، وسقطت بيده فى 23 كانون الأول (ديسمبر) 1144م، فشمل جميع السكان عن اختلاف أديانهم برعايته وحمايته، مع رفض الغنيمة، فترك الناس وأثاثهم فى بيوتهم، ثم حرر سروج فى كانون الثانى (يناير) 1145م.

أيقن عماد الدين زنكى أن توحيد القوى الإسلامية للقضاء على عدوان

الصليبيين وممالكهم أمر حتمى، ولكنه اغتيل فجأة فى منتصف أيلول (سبتمبر) 1146م، بيد مولى من مواليه، وهو يحاصر قلعة جعبر، حتى صاح أهلها بقاتله ويدعى يرنقش، أو بيرنقش، لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله، كما ذكر ابن العديم.

وبدأ نورالدين محمود بن زنكى، جهاده ضد الصليبيين بنجاح على سنة أبيه، حتى حرر معظم أراضى إمارة أنطاكية، وأدار الأمور بحنكة ومهارة ودراية بأحوال البلاد وظروفها.

إنه محمود بن زنكى (عماد الدين) بن أقسنقر، أبوالقاسم، نورالدين، المقلب بالملك العادل: (511-569هـ/ 1118 - 1174م)، إنه أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، معتنيًا بمصالح الرعية، امتدت سلطته فى الممالك الإسلامية حتى شملت جميع بلاد الشام الشرقية، والموصل وديار بكر، والجزيرة ومصر، واليمن، وخُطب له بالحرمين.

داوم على الجهاد، وباشر القتال بنفسه، وكان مهيبًا وقورًا، مكرمًا للعلماء، عارفًا بالفقه، سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة، وكان يجلس فى كل أسبوع أربعة أيام، يحضر الفقهاء عنده، ويأمر بوصول من يشاء من الرعية إليه، وكان يتمنى أن يموت شهيدًا، فمات بعلة الخوانيق فى قلعة دمشق، فقيل له الشهيد[1].

إنه إيمانه العميق كان محركه فى حياته لهدف عظيم، هو جمع كلمة

(1) الأعلام 170/ 7.

المسلمين، ليتمكن من تحرير البلاد من الصليبيين، ولم يحارب الصليبيين لأنهم نصارى، بل لأنهم أجانب غرباء عن هذه الديار المسلمة، وقد اعتدوا على المقدسات.

كان شيخ جامع الموصل عمر الملا مربى نورالدين ومرشده، يمضى رمضان المبارك بجواره، ويتناول معه طعام الإفطار على مأدبة واحدة، مع زهد بكل ما ملك، لم يكن له بيت يسكنه، يقيم فى غرفة بقلعة البلد الذى يحل فيه، ولم يكن له راتب يتقاضاه، إنما كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من ملك له فى الموصل، ورأى الأموال أموال المسلمين، مرصدة لمصالحهم، وهو خازن عليها، ولن يخونهم فيها.

أنشأ المدارس، وبنى المشافي، وعني بالطرق والخانات، وأقام دار العدل محكمة هو قاضيها، يحاكم أيا كان دون النظر إلى مكانته ووظيفته، فعف قواده وعماله عن الظلم.

وتدخل فى الدعاء له على المنابر، وأمر أن يكون من قبل:

اللهم أره الحق حقا، اللهم انصره، اللهم وفقه.: وبعد هذا كله، يمكننا القول: إنه الخليفة الراشدى السادس.

***

الحملة الصليبية الثانية

شعرت أوروبا بعد سقوط إمارة الرها أن ما بنوه في الشرق بدأ ينهار، فسارعوا إلى ترميمه بحملة صليبية ثانية سنة 1147م، بقيادة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابق ملك فرنسا.

وأخفق كونراد الثالث الألمانى فى الوصول إلى بلاد الشام لخلافه مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين، ولسلوكه طريقا ضمن أراضى السلاجقة الذين هاجموا الألمان بالقرب من أسكيشهر فى 26 تشرين الأول (أكتوبر) 1147م وبددوا شملهم بين قتيل وأسير، وتراجع كونراد إلى نيقية مع فلول جيشه بصعوبة، والتقى بها لويس السابع[1].

وزاد الموقف الصليبى سوءًا حينما عقد الإمبراطور البيزنطى صلحًا مع سلاجقة قونية، وما كاد جيش لويس السابع يجتاز البوسفور إلى آسيا حتى اطمأن إمبراطور القسطنطينية على عاصمته، فأمر بوقف إمدادات المؤن للصليبيين، إلا إذا تعهد لويس السابق بالولاء والتبعية لما يفتحونه من أراضٍ أسيوية، فأذعن لويس السابع لرغبته، وما هى إلا أيام حتى وصلت الحملة إلى نيقية لتفاجأ بكارثة تطابق الكارثة التى حلت بالألمان وإمبراطورهم كونراد الثالث.

(1) الحركة الصليبية 626.

قضى كونراد أشهرًا فى القسطنطينية فى رعاية مانويل كومنين وعطفه، وفى آذار (مارس) 1148م اتجه كونراد الثالث ومن بقى من جنده إلى فلسطين على سفن بيزنطية.

وتقدم لويس السابع ومن بقى معه من جنده من إفسوس نحو أنطالية[1] فوصلها فى كانون الثانى (يناير) 1148م، فاستجم فترة، ثم غادرها بحرًا مع حاشيته وبعض فرسانه إلى ميناء السويدية[2]، تاركا بقية رجال الحملة فى أنطاليا يقاسون الأمرين من سوء معاملة البيزنطيين، وهجمات السلاجقة، حتى تم نقلهم على دفعات إلى بلاد الشام.

هلل ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية بوصول لويس السابع، فقد تأمل استرداد الرها والقضاء على قوة الزنكيين، ولكن لويس السابع خيب أمله وأمل إمارة طرابلس أيضا، وسار إلى بيت المقدس، خصوصا حينما علم أن كونراد الثالث وصل بيت المقدس.

خشى لويس السابع من زج نفسه ومن بقى معه فى مغامرة غير مضمونة النتائج ضد نورالدين، وتشير المراجع الأوروبية[3] أن الفترة التى قضاها لويس السابع فى أنطاكيا صحبتها إشاعات عديدة عن وجود علاقات مريبة بين زوجته إليانور، وريموند دى بواتيه أمير أنطاكية، وشوهد الاثنان فى خلوة أكثر من مرة، وحينما خشى على سمعته، قرر السفر فجأة، فامتنعت

(1) أنطالية: هى أتاليا أو أداليا القديمة، ميناء جنوبى تركية على البحر المتوسط.

(2) السويدية: ميناء قرب مصب نهر العاصى فى البحر المتوسط.

(3) الحروب الصليبية، رانسمان 2 /279.

زوجته وأعلنت أنها تطلب الطلاق من زوجها، ولكن لويس السابع ساقها بالقوة أمامه إلى بيت المقدس.

وفي بيت المقدس، وفي حزيران (يونيو) 1148م، قرر لويس السابع وكونراد الثالث وملك القدس بلدوين الثالث مهاجمة دمشق، حيث معين الدين أنر، حليف بيت المقدس السابق، واجتمعت جيوشهم عند طبرية، ومنها زحفوا إلى بانياس، ووصلوا الغوطة في 24 حزيران (يونيو) 1148م[1].

ومع بسالة الدفاع عن دمشق من قبل سكانها، تدفقت النجدات من المدن الشامية، وبخاصة من نورالدين محمود، فأيقن الصليبيون بالهلاك والبوار والدمار[2]، ناهيك عن خلافهم فيما بينهم، فملك بيت المقدس يريد أن تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة له، وطمع لويس السابع بإقامة إمارة جديدة بدمشق خاصة به.

ورفع الحصار عن دمشق، خشية من جند الزنكيين، ووعد معين الدين أنر بإعطائهم حصن بانياس مقابل الجلاء عن دمشق، وطاردهم أهلها في أثناء انسحابهم، ولم يلبث كونراد الثالث أن أبحر من عكا إلى أوروبا في 8 أيلول (سبتمبر) 1148م، وغادر لويس السابع بعد ستة أشهر (1149م).

وهكذا فشلت الحملة الصليبية أمام أسوار دمشق، وانحطت هيبة الصليبيين ومكانتهم بالشام، وارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين،

(1) الروضتين 52/ 1.

(2) ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي 298 - 299.

وكبرت آمالهم بالتحرير، خصوصا بعد انتصار نورالدين على ريموند أمير أنطاكية وقتله فى 29 حزيران (يونيو) 1149م، وحاصر نورالدين أنطاكية، ووصلت قواته إلى ميناء السويدية، واستطاع تحرير جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقى نهر العاصى.

وأتيحت فرصة طيبة للسلاجقة بعد انتصار نورالدين ليحرروا مرعش فى أيلول (سبتمبر) 1149م، وفى عام 1151م تقاسم نورالدين، ومسعود سلطان السلاجقة الروم، وتمرتاش الأرتقى صاحب ماردين، الممتلكات البيزنطية فى شمال بلاد الشام، وبذلك تبخرت إمارة الرها الصليبية، وبذلك بداية النهاية للبناء الصليبى فى بلاد الشام.

وبعد موت معين الدين أنر سنة 1149م، سارت أسرته (البورية) إلى الانقراض السريع، لأن خليفته مجير الدين أبق كان ضعيفًا منحلا قاسيًا ضيق الأفق، فحالف الصليبيين، ودفع لهم ضريبة سنوية خوفا من نورالدين، مما أثار السكان ضده، وبذلك أتيحت الفرصة لنورالدين، خصوصًا بعد أن قلت المؤن فى دمشق، مسببة حالة اقتصادية لا تطاق، فباتت دمشق مهيأة لدخول نورالدين، ودخلها فعلا فى 549هـ/ 25 نيسان (أبريل) 1154م كيلا تقع بيد الصليبيين[1]، وغادر مجيرالدين أبق حمص وبالس، وآثر الذهاب إلى بغداد حيث توفى بها.

ولمس سكان دمشق الفارق بين حكم مجيرالدين وحكم نورالدين

(1) الدول الإسلامية، ستانلى لين بول 312.

الذى أكرم أهلها، مع العدل بين الناس، وتوافر المؤن، وإلغاء المكوس المفروضة على الغلال، مع ضبط لجنده فى تصرفاتهم مع السكان، فاطمأنوا إلى حكمه.

ودخول نورالدين دمشق خطوة هامة فى مصير الصليبيين فى الشرق، فالوحدة تحققت من الرها شمالا، حتى حوران جنوبا،عاصمتها دمشق، وستمتد هذه الوحدة إلى مصر.

***

ظهور صلاح الدين الأيوبى على مسرح الأحداث

توفى بلدوين الثالث حاكم بيت المقدس فى شباط (فبراير) 1162م، فتوج أخوه عمورى ملكا على بيت المقدس، ورأى بعد حصانة جبهة بلاد الشام – أن يتوجه جنوبا إلى مصر، حيث حالة الضعف التى تعانيها الخلافة الفاطمية، خصوصا بعد وصول شاور إلى الوزارة فى كانون الثانى (يناير) 1163م، وأساء إلى الخليفة العاضد، واستطاع ضرغام بن عامر طرد شاور من مصر سنة 1163م.

وفشلت محاولة عمورى الأول فى غزو مصر، ووصل شاور إلى دمشق، وحث نورالدين على ضم مصر، على أن يكون نائبًا له بها، وبعد دراسة، سير جيشًا إلى مصر سنة 1164م بقيادة أسد الله شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين، فاستنجد ضرغام بالصليبيين، وتعهد لعمورى بأن يتبع للصليبيين، ولكن مهارة شيركوه جعلته ينجح فى دخول القاهرة فى آيار (مايو) 1164م، وبعد خيانة شاور، ونقض عهوده، وتحالفه مع الصليبيين، عاد شيركوه إلى الشام.

وأعاد نورالدين شيركوه مع صلاح الدين لضم مصر سنة 1167م،

بطلب من الخليفة العاضد الفاطمى، حينما رأى استبداد شاور وتحالفه مع الصليبيين، ولم يستطع نورالدين ضم مصر إلا فى كانون الثانى (يناير) 1169م، وقتل شاور، وتوفى شيركوه فى 23 آذار (مارس) 1169مو، وعندئذ خلفه صلاح الدين، وفى سنة 567هـ، أيلول (سبتمبر) 1171م، دعا للخليفة العباسى المتسضىء منهيا حكم الفاطميين، ومات العاضد الفاطمى فى 13 أيلول (سبتمبر) 1171م.

وحكم صلاح الدين مصر نائبا عن نورالدين، وخطب على منابر مصر باسم الخليفة العباسى والملك العادل نورالدين، ولم تلبث أن دبت وحشة بين الرجلين، تحسنت الأمور بعدها، وضم صلاح الدين النوبة واليمن، ثم ساءت العلاقات ثانية، وفكر نورالدين بتيسيير جيش إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، ولكن عاجلته المنية فى 15 أيار (مايو) 1174م، وبذلك خلا الميدان لصلاح الدين، خصوصا وقد تقاسم ورثته الدولة، مما هدد الوحدة الإسلامية التى أفنى حياته لتحقيقها، وكان من نصيب ابنه الصالح إسماعيل حلب ودمشق، ولم يتجاوز عمره الحادية عشرة، وفرح سيف الدين غازى الثانى ابن قطب الدين مودود بن زنكى أتباك الموصل بوفاة عمه، فأظهر الفسق، وأمر بإعادة المكوس، وتظاهر بالمنكرات، وأسرع إلى احتلال نصيبين وحران والرها وسروح والرقة.. من الأماكن التى كانت تابعة لعمه.

ونشب نزاع بين أقوى اثنين من أمراء نورالدين بسبب الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، فاحتل شمس الدين على ابن الداية حلب، واحتفظ شمس الدين محمد بن عبدالملك المعروف بابن عبدالمقدم بدمشق.

وصار صلاح الدين لا سلطان لأحد عليه بعد نورالدين وساءه دخول ابن عبدالمقدم فى حلف مع عمورى ملك بيت المقدس، وأيقن أنه موجه ضده.

وظهر فى حلبة الصراع أيضا سعد الدين كمشتكين الخادم - أحد أمراء نورالدين- الذى نقل الملك الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب التى اتخذها حاضرة للدولة، واعتقل شمس الدين ابن الداية، وانفرد بتسيير شؤون الدولة، حينها أرسل صلاح الدين لأمراء نورالدين بالشام يقول: (لو أن نورالدين علم أن فيكم من يقوم مقامى، أو يثق إليه مثل ثقته بى يسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده)[1]، وحجته فى دخول الشام: (الملك الصالح صبى لا يستقل بالأمر، ولا ينهض بأعباء الملك)[2].

استخلف صلاح الدين أخاه الملك العادل على مصر، وسار إلى دمشق، فوصل إليها أواخر تشرين الثانى (نوفمبر) 1174م، ليعيد الوحدة الإسلامية بعد هذا التمزق، وليقف الجميع صفا واحدًا متراصّاً فى وجه الصليبيين، (لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة، وطمع الكفار فى البلاد.. إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم)[3].

وبعد تحقيق الأمن بدمشق، وتوزيع الأموال، ورفع المكوس، وإزالة

(1) مفرج الكروب لابن واصل 7/ 2.

(2) النجوم الزاهرة 24/ 6.

(3) مفرج الكروب 18/ 2.

المنكرات والضرائب التى أُحدثت بعد وفاة نورالدين، سار شمالاً فدخل حمص فى 10 كانون الأول (ديسمبر) 1174م، ثم حماة فى 28 من الشهر ذاته، ثم اتجه إلى حلب، ولم يتمكن من دخولها لأن كمشتكين حاكم حلب استعان بريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى، الذى هاجم حمص، فعاد صلاح الدين جنوبًا مما أطمع به الزنكيين الذين سيروا جيشًا من الموصل انضم إليه جيش حلب لاستعادة دمشق، وكانت المعركة بين الطرفين أواخر نيسان (أبريل) 1175م قرب حماة، فانتصر صلاح الدين، و(غنم كل ما معهم)[1]، وزحف مباشرة إلى حلب، ودخلها، وقطع الخطبة للصالح إسماعيل.

ولم يتقاعس الصليبيون فى هذه الأجواء عن مهاجمة صلاح الدين بغارات على البقاع وغيرها، لكن هجماتهم كانت ضعيفة الأثر محدودة النطاق بسبب اضطراب أحوالهم الداخلية، حتى الحملة الصليبية البيزنطية على مصر عام 1177م باءت بالفشل، وزار صلاح الدين مصر مرات، كان آخرها في آذار (مارس) 1182م، فحصن مدنها، وأمر ببناء الأسطول فى الإسكندرية، الذى استطاع مهاجمة عكا[2] فى تشرين الأول (أكتوبر) 1179م.

فى هذه الآونة مرض بلدوين الرابع فى بيت المقدس، وأخذ يشك فى كل من حوله، وفى إمارة أنطاكية استسلم أميرها بوهيموند الثالث لشهواته وأهوائه وملذاته، وفقد الصليبيون حليفهم القوى مانويل كومنين إمبراطور

(1) السلوك للمقريزى 59/ 1.

(2) قسطنطينية الفرنج كما يسميها أبوشامة المقدسى.

بيزنطة الذى توفى سنة 1180م، وتزوج أرناط (رينودى شايتون) سنة 1177م من إتينت دى ميلى وريثة صاحب الأردن، فملك حصنى الكرك والشوبك، وهما يتحكمان فى طريق حجاج المسلمين من جهة، وبالطريقة بين شطرى دولة صلاح الدين مصر والشام، وفى صيف س1181م سار متوغلا فى الصحراء جنوبا حتى وصل تيماء[1]، وهى (دهليز المدينة المنورة)، ولكن فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق، أسرع إلى الأردن مما جعل أرناط يرتد بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة[2].

ضم صلاح الدين حلب فى 12 حزيران (يونيو) 1183م، موحدًا البلاد من جبال طوروس شمالا، إلى النوبة واليمن جنوبا، يؤيده الخليفة العباسى فى بغداد، وعزالدين أتابك الموصل يرهب جانبه، وسلطان سلاجقة الروم يخطب وده، والإمبراطورية البيزنطية تصالحه، ولم يعد أمامه إلا مواجهة المحتل الدخيل، فبدأ التضييق على مملكة بيت المقدس، فأخذ بيسان، وعسكر عند العفولة فى مرج ابن عامر، وشن غارات مركزة على المواقع الصليبية الغربية، فى وقت عجز فيه ملك بيت المقدس عن الحركة لمرضه،

(1) تيماء: شمال الحجاز، بين الشام ووادى القرى، يسميها أبوشامة 23/ 2: دهليز المدينة.

(2) أسر أرناط حينما كان أميرًا لأنطاكية 1160م فى قلعة حلب حتى 1175م، وصفه المؤرخون الأوروبيون بأنه أنموذج للفارس اللص فى عصره، اتصف بالجشع، وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب الأعمى، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التى قضاها أسيرًا فى حلب فى تعديل سلوكه أو تهذيبه، (الحركة الصليبية 785/ 2)، وقال عنه أبوشامة 75/ 2، أغدر الفرنجة وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة وأنكثها وأحنثها.

ففوض الأمر لصهره جاى لوزينيان.

وعاد صلاح الدين إلى دمشق فى منتصف تشرين الأول (أكتوبر) 1183م.

وأقدم أرناط صاحب حصن الكرك على مشروع خطير سنة 1182م، هدفه السيطرة على البحر الأحمر، وغزو الحرمين الشريفين، فاستولى على ميناء العقبة (أيلة)، وبنى السفن التى أغارت على الموانئ المصرية كعيذاب المقابلة لميناء جدة على شاطئ البحر الأحمر الأفريقى، ثم نقل غاراته إلى ساحل الحجاز، حتى ذكر المقريزى فى السلوك 1/79، أن الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة، لقد نزلوا على ساحل الحوراء قرب ميناء ينبع، وهدفهم طعن العالم الإسلامى فى قلبه، ثم الوصول إلى عدن، والسيطرة على تجارة اليمن، واحتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى.

وسارع العادل أخو صلاح الدين إلى إرسال أسطول بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ، وبدأ بحصار العقبة، وتمكن من حرق مراكب الصليبيين كلها، ثم سار جنوبا وتعقب السفن عند عيذاب، فشواطئ الحجاز، ودمر معظم السفن الصليبية على ساحل الحوراء، وأطلق من فيها من التجار المأسورين فى شباط (فبراير) 1183م، وعاد حسام الدين بالأسرى، وأمر صلاح الدين بقتلهم جميعا بوصفهم مجرمى حرب، ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حرم الله وحرم رسوله، أما أرناط فقد أقسم صلاح الدين على ألا يغفر له فعلته هذه، ويذكر أبوشامة فى الروضتين أنه نذر دمه.

***

(4)

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى

1 - نسب صلاح الدين الأيوبى

ينتمى صلاح الدين إلى عائلة كردية، كريمة الأصل، عظيمة الشرف، هذه العائلة ملكت مصر والشام وعرفت بالدولة الأيوبية، وتنتسب هذه العائلة إلى قبيلة كردية تعد من أشراف الأكراد نسبا وعشيرة، هذه القبيلة تعرف (بالروادية)[1] من بطون (الهذيانية)، هى من أكبر القبائل الكردية، ونجد بعض المؤرخين فى بحثهم لينسبوا أسرة صلاح الدين فى سلسلة من الآباء تنتهى عند (مضر) الذى ينتمى إلى عدنان، ولاشك أنهم يريدون من وراء هذا البحث الذى لا يتفق مع منهج البحث العلمى ولا مع الحقيقة المجردة أن يلحقوا كل شخصية فذة ليست عربية بسلسلة من النسب العربى، وكأن الفضائل كلها، والمكارم جميعها مقصورة على العرب وخاصة بهم، وكأن المسلم غير العربى - فى نظرهم- لا يمكن بحال أن يبنى مجدًا، أو يشيد حضارة، أو يخلد ذكرًا.

---

(1) وهذه القبيلة كانت تسكن قرية يقال لها: (دوين) فى أقصى حدود (أذربيجان) وإلى قبيلة (الروادية) ينتمى (أيوب بن شاذى) والد صلاح الدين.

ونحن لو استقرأنا التاريخ، وبحثنا عن عظمائنا فى بناء الحضارة الإنسانية لوجدنا أن أكثر أولئك الذين كان لهم فى الحضارة سهم، وفى التاريخ ذكر، وفى الأجيال احترام، هم من مسلمى غير العرب.

إن مبدأ الإسلام لا يتبدل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[الحجرات: 10]، ومنهجه الثابت لا يتحول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات: 13]، فبأى حديث بعد هذا يؤمنون.

وينتسب صلاح الدين الأيوبى إلى نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان الكردى وهو مؤسس الدولة الأيوبية.

2 - ولادة صلاح الدين الأيوبى

من الأسرة العريقة فى حسبها وشرفها ولد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 532هـ الموافق 1137م.

أما المكان الذى ولد فيه فهو قلعة (تكريت) وتكريت كانت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل، وقد قامت فى طرفها الأعلى قلعة حصينة راكبة على دجلة، بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم، وجعلوها مخازن للذخيرة، ومرصدًا لمراقبة العدو، ثم افتتحها المسلمون فى السنة السادسة عشرة من الهجرة أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه[1].

وظلت (تكريت) تنتقل تحت دول المسلمين حتى كانت تحت حكم

(1) معجم البلدان 2ص491.

الدولة السلجوقية، واتصل أيوب بن شاذى والد صلاح الدين بأحد رجال رئاسة الشرطة السلجوقية ببغداد واسمه (مجاهد الدين بهروز) فجعل أيوب حاكمًا على قلعة تكريت، وجعل معه أخاه (شيركوه أسد الدين) مساعدًا له، وكانا أشبه بحاكم (تكريت) وكان هذان الأخوان قد قدما إلى العراق من قرية فى أقصى حدود أذربيجان يقال لها: (دوين) فى ناحية من إقليم (آران) وكانا من الأكراد الروادية فنزلا (تكريت) وعملا فى شرطة (بهروز).

ومن عجائب القدر أن ولادة صلاح الدين الأيوبى كانت فى اليوم الذى أمر فيه (مجاهد الدين بهروز) والى بغداد نجم الدين وأخاه شيركوه بمغادرة مدينة تكريت، لقتل شيركوه عم صلاح الدين أحد قواد القلعة، وذلك من أجل امرأة آذاها القائد فى شرفها، فانتقم (شيركوه) للشرف والمروءة حين استغاثت به فقتله، ولكن بهروز وقع فى حيرة من نفسه هل يبقيهما عنده أم يأمر بمغادرتهما؟ فإن أبقاهما يخشى عليهما من انتقام القواد وأن يصيبهما الأذى، فلم يجد بدا سوى أن يأمرهما بالمغادرة، فجاء بهما مظهرًا الخوف عليهما، وطلب إليهما أن يخرجا فى ليلتهما من تكرّيت فخرج الرجلان يقصدان (الموصل) وقد حملا أسرتيهما، وفى رحل نجم الدين يوسف ابنه الطفل المولود صلاح الدين الذى أصبح القائد العسكرى الفذ (صلاح الدين الأيوبى) محطم أسطورة الصليبيين ومحرر بيت المقدس.

ويذكر صاحب (وفيات الأعيان) أن أيوب قد تشاءم بمولوده الجديد صلاح الدين، وقد هم أيوب بقتل ولده عندما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة، ولكن أحد أتباعه حذره من هذا العمل قائلا: يا مولاى،

قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة والتشاؤم بهذا الصبى، وأى شىء له من ذنب؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر، ولا يغنى شيئًا؟ وهذا الذى جرء عليك قضاء من الله سبحانه وتعالى وقدر، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكًا عظيم الصيت، جليل المقدار، ولعل الله جاعل له شأنًا فاستبقه فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغم[1].

ولقد أثرت هذه الكلمات فى نفس أيوب، وسرعان ما رجع إلى الحق، وثاب إلى الرشد، واتبع طريق الإسلام الصحيح.

3 - نشأة صلاح الدين الأيوبى

هاجر الأخوان نجم الدين وشيركوه من بغداد إلى الموصل، حيث نزلا عند (عماد الدين زنكى) الذى رحب بالأخوين ترحيبًا عظيمًا، وأجرى عليهما المنح والعطايا، وما هذا الترحيب والإكرام إلا مكافأة على موقفهما الملخص فى إنقاذهما له من القتل أو الأسر، ذلك لأن عماد الدين زنكى صاحب الموصل قد حارب السلجوقية عند (تكريت) أيام كان (بهروز) واليًا على بغداد من قبل السلجوقيين، وسبق أن ذكرنا أن نجم الدين أيوب، وشيركوه كانا قائمين على تكريت وقلعتها من قبل بهروز، وكان من نتيجة حرب عماد الدين زنكى للسلجوقيين أن انهزم جيشه أمام جيش السلطان السلجوقى، وفى أثناء انسحابه ورجوعه إلى الموصل مر بتكريت وأصبحت حياته هو وجيشه فى يد نجم الدين أيوب والى تكريت

(1) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة.

يومئذ إن شاء أبقاهم أحياء، وإن شاء قتلهم، ففضل نجم الدين الإحسان على الإساءة فقام هو وأخوه شيركوه بمساعدة عماد الدين وسهلا له أمر النجاة والسلامة حتى وصل إلى الموصل، فكان لهذه المعاملة الحسنة، والموقف النبيل أكرم الأثر وأحسن النتائج فى بناء ملك أيوب، وإقامة مجد الإسلام على يد صلاح الدين.

ولما وصل الرجلان إلى الموصل لقيهما عماد الدين كما ذكرنا بالترحاب وجازاهما على ما صنعا من الجميل عند تكريت، فأقطعهما أرضا ليعيشا عنده معززين مكرمين.

عاش نجم الدين وأخوه شيركوه ومعهما المولود صلاح الدين فى رعاية عماد الدين بأحسن مظاهر العز والإكرام، وأسند إليهما أعمال الجيش، ولما سقطت (بعلبك) فى يد عماد الدين زنكى سنة 534هـ عهد بها إلى نجم الدين أيوب وعينه واليًا عليها، وفى هذا الاختيار برهان قاطع على مقدار وثوق عماد الدين زنكى بنجم الدين أيوب، وتمام الإخلاص له، وحسن الاعتماد عليه، فقضى صلاح الدين فى بعلبك بعض سنى طفولته، وتعتبر هذه السنوات الأولى التى قضاها فى بعلبك من أسعد السنين وأهنئها، ولاشك أنه درج على العز، ونشأ على الفروسية، وتدرب على الحرب والجهاد، ومارس السياسة وتدبير الأمور، وكما يقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا   على ما كان عوده أبوه

أما المدة التى قضاها فى دمشق بعد استيلاء نورالدين بن عماد الدين زنكى عليها فكانت من أفضل الأيام التى أظهرت شخصية صلاح الدين

الفذة، فكان محل احترام وتقدير، بل كان له من الاعتبار والمكانة ما لابن حاكم دمشق نفسه، وقد ظهر أمام المجتمع بمظهر الشاب الهادئ المهذب المتدين، المتقد غيرة على الإسلام والمسلمين، بما طبع فى نفسه من أخلاق نورالدين الذى أنزله لديه منزلة خاصة.

ومن المناصب التى أسندت إليه فى دمشق –فى عهد نورالدين– منصب رئاسة الشرطة، وقد قام بهذا المنصب أحسن قيام، واستطاع أن يطهر دمشق من عبث اللصوص، ومن شرور المفسدين، فأعاد الأمن والاستقرار فى ربوع الشام، وبات الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم، وينعمون بنعمة الحياة الهادئة المطمئنة الكريمة.. ولعل حسان بن نمير المعروف (بعرقلة) الدمشقى يوضح فى فرحته بيوسف صلاح الدين لتسلمه رئاسة شرطة بلده، وذلك حيث يقول:

رويدكم يا لصوص الشام   فإنى لكم ناصح فى المقال
أتاكم سمي النبى الكريـ   ـم يوسف رب الحجا والجمال
فذلك يقطع أيدى النساء   وهذا يقطع أيدى الرجال

أما المدة التى قضاها صلاح الدين فى مصر فتعد من أعظم الأيام التى أظهرت بطولته الفائقة، وحنكته الحربية النادرة، وذلك أن (شاور السعدى) عندما ثار ضد الخليفة الفاطمى (العاضد) سنة 558هـ توجه إلى دمشق مستنجدًا بنورالدين محمود، وبعد تردد استجاب نورالدين لطلب (شاور) فبعث معه قائده (أسد الدين شيركوه) وكان من ضمن رجاله الأفذاذ ابن

أخيه صلاح الدين الذى أظهر البراعة العظيمة، والعبقرية الفذة فى فنون الحرب والقتال، فبتدبيره وذكائه وحسن تصرفه استطاع مع عمه أسد الدين أن يضم المملكة المصرية إلى نورالدين محمود، وكان ذلك سنة 564هـ وسيأتي تفصيل ذلك فى الفصل القادم إن شاء الله.

نخلص مما تقدم أن صلاح الدين نشأ فى السنين الأولى من طفولته، وفى العقد الثانى والثالث من شبابه على الفضائل الكريمة، والخصال الحميدة، واكتسب فى مجالسته للأمراء، ومن مصاحبته للقواد العادات الأصيلة، والمهارة الحربية، والغيرة الإسلامية، والشجاعة المادية والأدبية، وهذا ما أهله - باستحقاق وجدارة- لأن يكون الشخصية الفذة النادرة التى هزت الدنيا وحولت مجرى التاريخ.

4 - تعليم صلاح الدين:

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين قضى فى بعلبك سنى طفولته الأولى، فمن الطبيعى أن يختلف إلى مكاتب التعليم ليتعلم منها القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم، وبالإضافة إلى هذا تعلم من العلماء قواعد اللغة، ومبادئ النحو كما يتعلم أولاد أمراء المسلمين.

يقول صاحب كتاب طبقات الشافعية: (وسمع صلاح الدين الحديث من الحافظ أبى طاهر السلفى، وأبى الطاهر بن عوف، والشيخ قطب الدين النيسابورى، وعبدالله بن برى النحوى وجماعة) واستطرد يقول: (وكان صلاح الدين فقيهًا يقال: إنه يحفظ القرآن الكريم، والتنبيه فى الفقه والحماسة فى الشعر).

ومما أجمع عليه المؤرخون أن العلماء كانوا يفدون إلى دمشق أيام نورالدين من الشرق والغرب ومن سمرقند ومن قرطبة ليعلموا ويتعلموا فى مساجدها ومدارسها، ومن المؤكد أن صلاح الدين قد استمع إلى أكثرهم.

ولاسيما عندما كان يجلس فى الجامع الأموى (عبدالله بن أبى عصرون) يلقى محاضراته هناك ليستفيد الناس من علمه ومن فضله، ويقتبسوا الكثير من توجيهه وخلقه.. وعبدالله بن أبى عصرون هذا هو الذى أحضره نورالدين، وابتنى له المدارس فى دمشق، وأمهات مدن الشام ليدرس فيها وينشر العلم فى طول البلاد وعرضها، وقد بلغ هذا العام من المكانة والمنزلة أنه وصل إلى مركز قاضى قضاة الجزيرة، ومن أعظم ما تحدث به التاريخ عن إخلاص صلاح الدين لهذا الشيخ أن قد أبت عليه مروءته إلا أن يقرب هذا الشيخ من مجلسه عندما فقد بصره، بل جعله من أخص خواصه.

أما تعليمه الفروسية والرمى والولوع بالصيد، وتدريبه على الأعمال الحربية، فحدث عنها ولا حرج.. وهذا ما أعانه إبان الحروب على قيادة الجند، والتصرف فى المآزق تصرفا حكيما منجيا.

ومن البديهى أن ينشأ صلاح الدين على هذا المنشأ، لأن العصر الذى درج فيه هو عصر فروسية وصيد وقلاع، فاجتمعت لديه الموهبة والذكاء والوراثة وملاءمة البيئة مع التعليم والتدريب، وهذه خصال قلما تجتمع فى رجل مثل صلاح الدين.

ومن الأمور التى جعلت صلاح الدين فى مصاف العظماء الخالدين هو: ثبات جنانه ورجاحة عقله حين تزول عقول من حوله، وتخف قلوبهم وتطير.

فى أثناء فتوحاته لبلاد الشام جاءه من حلب خبر بقتل أخيه تاج الملوك، وجاءه إبان هزيمة عكا خبر بموت أخيه الملك المظفر وكان من أعظم مهندسيه فى تحصين القلاع وتدبيرها وحراستها، فلم يتغير مظهره فى المعركتين، ولم يطر قلبه من الخبرين وذلك حين جاءه بريد السر بموت هذا وقتل ذاك.

من هذه اللمحة الخاطفة عن حياته، ومن تلك الدراسة الموجزة عن نشأته، تظهر لنا شخصية صلاح الدين سياسيًا بارعًا وقائدًا محنكًا، وفارسًا مدربًا، وعالمًا جليلاً. وكأن الأقدار قد هيأته ليكون بطل حطين يملأ قلوب الإفرنج رعبًا وفزعًا، ويطير ذكره فى البلاد شرقًا وغربًا، وتتخذه الأجيال الواعية أسوة وقدوة، ويضعه التاريخ فى مصاف العظماء الخالدين.

وهيهات أن تلد الأمهات مثل صلاح الدين غيرة وبطولة وجهادًا للدفاع عن معاقل الإسلام، وأرض الأنبياء!.

***

بداية حكم الناصر صلاح الدين

1 - حالة مصر الفاطمية:

كانت مصر قبيل ظهور صلاح الدين نهبًا للثورات الداخلية والمنازعات ما بين الطوائف المختلفة من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة، وكانت المجاعات والأوبئة تغشاها وتنهك من قواها، وكانت اغتيالات الخلفاء والوزراء تدبر بأشكال مختلفة ومتنوعة.

فالخليفة الفاطمى أصبح لا يمثل شيئًا إنما الأمر بيد المتغلبين من الوزراء والقواد، وكم جرت مذابح ومعارك من أجل الوزارة فى الخلافة الفاطمية! ولم تستقر الحالة إلا بتولية (طلائع بن رزيك) للوزارة سنة 549هـ ولكنه ما إن قتل سنة (558هـ1163م)، وتولى ابنه (رزيك بن طلائع) حتى عادت الفوضى من جديد.

وكان كل من نورالدين محمود، وملك بيت المقدس أمورى الصليبى ينظر إلى مصر نظرة خاصة ويود ضمها إليه لتعزيز جانبه، ولا يمنع كلل منهما عن احتلالها إلا خوفه من الآخر، وكانت الخلافات الداخلية من أجل الوزارة الفاطمية موجبة لتدخل كل من نورالدين وأمورى فى السياسة المصرية، وباعثة بهما إلى النزاع من أجل مصر.

2 – عندما انتصب رزيك بن طلائع وزيرًا للخلافة الفاطمية ثار ضده شاور ابن مجير السعدى الوالى على مصر العليا، واستطاع أن يتغلب على

رزيك ويقتله، وأن يتصب وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد مكانه، وذلك فى المحرم سنة (558هـ1163م).

وأساء شاور السعدى وأبناؤه السيرة مما جعل أحد القواد ضرغام بن عامر اللخمى يتوطأ مع الخليفة الفاطمى ضد الوزير فثار عليه وألجأه إلى الفرار وانتصب ضرغام على كرسي الوزارة.

فتوجه شاور السعدى إلى دمشق مستنجدًا بنورالدين محمود، متعهدًا إليه بنفقات الحملة، وغرامة سنوية قدرها ثلث إيراد البلاد المصرية، ولكن نورالدين محمود تلكأ وتردد فى إجابة طلب شاور السعدى إلى أن حدث ما أزال هذا التردد، فقد جاءت الأخبار معلمة بأن أمورى (ملك بيت المقدس) هجم على مصر وتغلب على ضرغام، فحالفه وأقر له بالجزية خوفا من تحالف شاور السعدى مع نورالدين محمود، هنا اضطر نورالدين محمود إلى إجابة طلب شاور السعدى إنقاذًا للموقف، فبعث معه قائده أسد الدين شيركوه وكان من ضمن رجاله البطل الشاب صلاح الدين الأيوبى ابن أخ أسد الدين.

وسرعان ما انتصر أسد الدين شيركوه على ضرغام، وانتصب شاور السعدى على الوزارة من جديد، إلا أن شاور لم يف بما تعهد لنورالدين محمود من التزامات، بل حالف مملكة بيت المقدس سرّاً، فاضطر أسد الدين لمحاربته بمساعدة البطل المظفر صلاح الدين، واستنجد شاور السعدى بملك بيت المقدس واستطاعت الجيوش الشامية أن تصمد أمام الجيوش المصرية والصليبية فى مدينة بلبيس من رمضان ذى الحجة

سنة 559هـ1164م، وانتهز نورالدين محمود اشتغال ملك بيت المقدس بحرب مصر، فتوجه إلى حصن حارم، وحصن بانياس وفتحهما، فخشى ملك بيت المقدس أمورى على مملكته وأخذ يفاوض أسد الدين شيركوه فى عقد هدنة بينهما، وتمت الهدنة على شرط انسحابهما عن مصر وتركها لأصحابها، وعلى هذه النتيجة انتهت الجولة الأولى من النزاع على مصر بين نورالدين والصليبيين.

3 - الدور الثانى من النزاع على مصر

استفاد أسد الدين شيركوه فى ذهابه الأول إلى مصر، إذ سبر أغوار المملكة المصرية وعرف ما فيها، وأيقن بضرورة الاستيلاء عليها للتغلب على الصليبيين، لهذا أخذ يهون أمرها على نورالدين، ويطلب منه الإذن فى احتلالها، وأذعن نورالدين أخيرًا لرأى قائده فجرد حملة ثانية على مصر سنة 562هـ بقيادة أسد الدين شيركوه ومساعدة البطل صلاح الدين، وما أن سمع الوزير شاور بتوجيه الجيوش الشامية إلى مصر حتى بعث إلى أحلافه الصليبيين فأسرع إلى نجدته (أمورى) ملك بيت المقدس، وتقابل الجيشان فى صعيد مصر قرب (المنية)، فانتصرت الجيوش الشامية سنة 563هـانتصارًا باهرًا، وأظهر الشاب صلاح الدين الأيوبى براعة وثباتًا منقطعة النظير، ثم سارت الجيوش الشامية شمالا إلى الإسكندرية فدخلتها دون مقاومة تذكر، وأقام أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين حاكمًا عليها.

وكانت هذه المرة الأولى التى تولى فيها صلاح الدين الإمارة وتحمل المسئولية، وكأن القدر قد هيأ له المجال لإظهار مواهبه، وإبراز بطولته

وعبقريته.. فإنه ما إن توجه عمه أسد الدين إلى الفسطاط والقاهرة حتى هاجم الصليبيون الإسكندرية وحاصروها برّاً وبحرًا بمساعدة الأسطول البيزنطى، واشتد الضيق على المحصورين بالإسكندرية وكادوا يستسلمون، ولكن صلاح الدين القائد الملهم والبطل المحنك أظهر من الجلد والبراعة والمقاومة.. إلى أن أدركه عمه شيركوه، وانتهى هذا الدور بعقد هدنة التزم فيها الطرفان بالانسحاب عن مصر وتركها لأصحابها.

4 - الدور الثالث والأخير من النزاع على مصر

لم يكن ملك بيت المقدس (أمورى) مخلص النية فى الهدنة السابقة، إذ لم يسحب كامل جيشه عن مصر، لأنه كان ينوى الاستيلاء عليها متى ابتعدت الجيوش الشامية عنها، وما إن اطمأن لهذا حتى جرد حملة على البلاد المصرية، واستولى على مدينة بلبيس، وفتكت جيوشه بالسكان وذبحوا الكثير منهم، وأغراهم هذا الانتصار فتقدموا إلى الفسطاط وخاف الوزير شاور من استيلاء الصليبيين عليها، فأشعل فيها النيران التى استمرت 54 يومًا فأتت عليها تمامًا، وتقدم الصليبيون إلى القاهرة وناصبوها الحصار، وأجرى شاور السعدى مفاوضات مع الصليبيين وأحكم التأجيل لهذه المفاوضات ريثما تصل الجيوش الشامية التى بعث يستنجد بها.

ولما كان نورالدين محمود عازمًا على الاستيلاء على مصر، فقد انتهز الفرصة مرة أخرى، وأرسل للمرة الثالثة قائده شيركوه بمعية صلاح الدين ابن أخيه، وما إن وصلت الجيوش الشامية وانضم إليها الجيش المصرى حتى بادر الصليبيون بالانسحاب، وفك الحصار دون قتال.

ودخل شيركوه القاهرة دخول القائد المنقذ، فهلل له الناس واستبشروا به، وقربه الخليفة الفاطمى العاضد منه وخلع عليه، ثم دبرت مؤامرة ضد شاور السعدى فقتل سنة 564هوانتصب أسد الدين شيركوه وزيرًا للخلافة الفاطمية، ولكن لم تدم وزارته أكثر من شهرين فتوفى فى جمادى الثانية سنة 564ه1669م.

5 - تحليل وتعقيب

يتبين من هذه المواقف التى وقفها صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه فى معارك مصر مع الصليبيين والجيوش المصرية أن صلاح الدين شخصية نادرة فى الشجاعة والحنكة والسياسة والخبرة فى فنون الحرب والقتال، وكأن الأقدار قد هيأته منذ نعومة أظفاره وتدرج شبابه، ليكون الشخصية الفذة فى التاريخ، والبطل العظيم فى معارك التحرير مع الإفرنج الصليبيين، ولاشك أن المعارك الأولى التى خاضها مع عمه فى حروب مصر زادته قوة وخبرة، وملأت نفسه إيمانًا وثقة، وكشفت عن بطولته النادرة التى كان لها الدوىُّ الهائل فى مسامع التاريخ، وسيأتى معنا فى الفصل القادم سياسته الفائقة فى ضم البلاد مع بعضها البعض تحت وحدة سياسية شاملة، وجبهة إسلامية واحدة، وهذا من العوامل الأساسية التى أقضت مضاجع الصليبيين وحققت الانتصار فى حطين، وأصبح لهذا الانتصار فى التاريخ ذكر، وفى الأجيال المتعاقبة قدوة.. وهو ما جعلنا نختاره من الشخصيات التاريخية الخالدة فى ذاكرة المجتمع العربى والإسلامى.

***

الناصر صلاح الدين فى مصر

كيف وصل الناصر صلاح الدين إلى مصر وكيف تقلد حكم البلاد وماذا فعل؟

التفاصيل فى الخطوات التالية:

أولاً: مات (أسد الدين شيركوه) بعد شهرين من توليه الوزارة، وأقام له صلاح الدين العزاء ثلاثة أيام، وفكر الخليفة (العاضد) الفاطمى فى اختيار وزير له، فقرر قراره النهائى على اتخاذ (يوسف صلاح الدين) خلفًا لعمه (شيركوه) فى الوزارة رغم صغر سنه، ورغم وجود كبار القواد والشخصيات الكبيرة ضمن الجيش الشامى المرابط بمصر، ويعلل بعض المؤرخين بأن أسباب هذا الاختيار هو أن الخليفة الفاطمى (العاضد) كان يرجو التغلب على صلاح الدين، وأنه سيكون رهن طوعه وإشارته نظرًا لصغر سنه، ولكن الأقدار هيأته لغير هذا كما سيأتى.

استوزر صلاح الدين وعمره 32 سنه بعد أن دربته الحروب، وأخذ من دروسها وعبرها أيام مخالطته لنورالدين وعمه (شيركوه)، وهذا ما كان سببا فى علو شأنه، وظهور أمره.

ورأى صلاح الدين من الحكمة أن يرضى المصريين حتى لا يقوى أمراؤهم بهم عليه، فأغدق نعمًا كثيرة، وعاملهم باللطف من أخلاقه،

وبالسماحة من معاملته، مما حببهم فيه، وقربهم إليه.

ومما زاد شهرته، وأظهر أمره، انتصاره على الإفرنج بعد غزوهم (دمياط) و(غزة) واستيلاؤه على مدينة (العقبة)، وهى مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين خاصة، والمسلمين عامة إلى مكة المكرمة، فكان هذا النصر العظيم، وتأمين طريق الحج للمسلمين عاملاً كبيرًا من عوامل تبادل الثقة والمحبة والإخلاص بينه وبين المصريين، وهذا من الأسباب التى دفعت المصريين أن يتركوا المذهب الشيعى، وينضموا إلى إخوانهم السنيين تحت راية صلاح الدين يقاتلون معه عدو الله وعدوهم من الكفرة الظالمين، والصليبيين الحاقدين.

ثانيًا: قضاؤه على المؤامرات الداخلية:

يمكن القول إن صلاح الدين لما تقلد منصب الوزارة كان فى ريعان الشباب، لذا كان موضع حسد كثير من رجال الدولة الذين عملوا فى ظل الدولة الفاطمية، فاعتبروه دخيلا عليهم ومغتصبا لحقوقهم، وفضلا عن ذلك كانوا يعملون على تثبيت حكم الفواطم فى مصر مهما كلفهم ذلك من ثمن.. فلم يألوا جهدًا فى تدبير المؤامرات، وبث الدسائس عسى أن يتخلصوا من الوزير الشاب الطموح صلاح الدين.

ومن أبرز هذه المؤامرات:

(أ) مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح.

(ب) مؤامرة عمارة اليمنى.

(ج) مؤامرة كنز الدولة.

(أ) مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح:

ففى عام 564هـ قام مؤتمن الخلافة نجاح وهو خصى كان بقصر (العاضد) آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر، وكان له الحل والربط فى قصر الخلافة، فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج، واستدعائهم إلى البلاد ليقووا بهم على صلاح الدين ومن معه.

فكتب هذا العبد الخصى كتابا إلى الإفرنج يحضهم فيه على الزحف على مصر حتى إذا وصلوا وخرج إليهم صلاح الدين، وزحف مؤتمن الخلافة بجموعه، واقتفى أثره، فيقع صلاح الدين بين نارين، فلا يبقى لصلاح الدين ومن معه باقية، ولما كتب (مؤتمن الخلافة) الكتاب وضعه داخل نعل جديدة وأعطاها إلى رجل من رجالاته ليذهب بها إلى الإفرنج، فوقعت النعل فى يد أحد أتباع صلاح الدين، وسرعان ما أوصلها إليه فعلم صلاح الدين الحقيقة لكنه لم يظهرها، ولم يعاقب مؤتمن الخلافة فورًا حتى لا تثور ثائرة أتباعه ومؤيديه، فمازال صلاح الدين يمهله ويطاوله حتى خرج ذلك المؤتمن الخائن يومًا إلى قصر له خارج القاهرة وأرسل إليه جماعة أخذوه وقتلوه، فأحدثت ردة الفعل أن قام جند الخليفة السودانيون -وكانوا حوالى خمسين ألفًا- للانتصار لمؤتمن الخلافة المقتول، ووقعت الواقعة بين جند الخليفة السودانيين وبين جند صلاح الدين ودامت يومين كاملين، وكان الانتصار الساحق فى هذه الموقعة لصلاح الدين، وهكذا قضى صلاح الدين على مؤتمن الخلافة نجاح، وعلى فتنة الجند السودانيين الذين ثاروا لقتله.

ولم يكن السودانيون وحدهم فى إثارة الدسائس، وحبك المؤامرات، بل كان لأمراء الفاطميين ضلع كبير فى إثارة الخلاف، وإشعال نيران الحرب والفتنة.

(ب) مؤامرة عمارة اليمنى:

ومن المؤامرات الكبرى التى قامت ضد صلاح الدين مؤامرة المؤرخ المعروف (عمارة اليمنى)، فقد جمع عمارة كثيرًا من الأنصار فى القاهرة ودعا إلى تنصيب رجل من أولاد العاضد ليعيد حكم الفواطم ويزيل حكم صلاح الدين، وسرعان ما كاتب الإفرنج فى ذلك ليستعين بهم على تقويض حكم صلاح الدين، وقتله والقضاء عليه نهائيًّا، ولقد استطاع عمارة أن يضم إلى حركته الكثيرين ممن جمعهم الحقد والكراهية على الدولة الناشئة، فالتف حوله الكثير من أولئك الحاقدين على صلاح الدين، والمبغضين له والمتألبين عليه.

لكن أحد المتآمرين وهو زين الدين بن نجا، وشى بخبرهم إلى صلاح الدين ابتغاء المكافأة، فقبض صلاح الدين عليهم وقتلهم وجعلهم عبرة لكل من يريد لهذه الدولة سوءًا، أو يبغى فى الأرض فتنة ويعيث فيها فسادًا وكان ذلك سنة 569هـ.

(ج) مؤامرة كنز الدولة:

ومن المؤامرات التى واجهها صلاح الدين فى مصر مؤامرة قامت فى أسوان وقوص وكان ذلك سنة 570هـ.

يقول المقريزى فى كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك)، عن هذه

المؤامرة والفتنة: (وفى سنة 570هـ جمع (كنز الدولة) والى أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة، يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق فى جموعه أموالاً جزيلة، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم، فقتل عشرة من أمراء صلاح الدين وخرج فى قرية (طود) رجل يعرف بـ(قياس بن شادى) وأخذ بلاد (قوص) وانتهب أموالها، فجهز صلاح الدين أخاه الملك العادل فى جيش كثيف.. فسار وأوقع بشادى وبدد جمعه وقتله، ثم سار فلقى (كنز الدولة) ناحية (طود)، وكان بينهما حروب فر فيها كنز الدولة، بعد ما قتل أكثر عسكره، ثم قتل (كنز الدولة) فى سابع صفر، وقدم الملك العادل إلى القاهرة فى الثامن عشر من صفر.

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يقطع دابر الفتن، وأن يقضى على شراذم البغى والعدوان، ومدبرى المكائد والمؤامرات، وهذا يدل على نباهته الدائبة، وسهره الدائم على مصالح الرعية.

ثالثاً: قضاؤه على المؤامرات الخارجية:

بعد تسلم صلاح الدين منصب الوزارة فى مصر وقف الفرنج يرقبون تحركاته بحذر، ويتطلعون إلى أخباره بلهفة، وكان أشد ما يخشونه منه أن تجتمع عليه القلوب ثم يمضى فى تحرير الأرض المقدسة، وفى ذلك طعنة لهم وقضاء عليهم، لهذا شمر الفرنج عن ساعد الجد والعمل يتربصون بصلاح الدين الدوائر، ويحيكون الدسائس وينتظرون الوقت الذى يمكن فيه التخلص منه والقضاء عليه، وكانت أول محاولة مكن جانب الفرنج

أثناء وجود صلاح الدين فى مصر هى مهاجمة دمياط، إذ أنه لما استقر الأمر لصلاح الدين فى مصر، شعر الفرنج فى الشام بالخطر يهددهم. فكاتبوا الفرنج بالأندلس وصقلية يحرضونهم على الثورة، ويذكرون لهم خوفهم على بيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القساوسة والرهبان يحرضون الناس على التمرد، وأمدوهم بالمال والرجال والسلاح.

وسرعان ما نزلت جنودهم دمياط عام 564هـ وضيقوا عليها الخناق، فأرسل إليهم صلاح الدين الجيش فى النيل، وزودهم بالأسلحة والذخيرة وطلب من نورالدين أن يعاونه فى دحر صفوفهم، فاستجاب نورالدين وأرسل الحملات العسكرية تلو الحملات إلى مصر، ولم يكتف بذلك بل سار فيمن معه من العساكر إلى إمارات الفرنج فى الشام وفلسطين، فلما رأى الفرنج تتابع العسكر إلى مصر، ودخول نورالدين بلادهم، رجعوا من حيث أتوا خائبين مدحورين، وكان مقامهم بدمياط خمسين يومًا.

لم تمر خمس سنوات على حصار الفرنج لدمياط حتى هاجم أهل صقلية من الفرنج الإسكندرية وكان ذلك فى أواخر عام 569هـ.

ولما سار الأسطول على الشاطئ نزل من مراكبهم ألف وخمسمائة فرس، وكان عدتهم ثلاثين ألف مقاتل بين فارس وراجل مجهزين بآلات الحرب والحصار، وبالمراكب والطرائد والمجانيق والمؤن، وعندما نزلوا إلى الساحل قتلوا من المسلمين سبعة، كما أغرقت سفنهم فى الميناء بعض سفن المسلمين، ونصبوا فى البر ثلاثمائة خيمة، ثم زحفوا لمحاصرة الإسكندرية.

وكان صلاح الدين فى ذلك الوقت فى (فاقوس)، وعرف أخبار نزولهم

فى اليوم الثالث، فشرع فى تجهيز العساكر، وإعداد آلات القتال لمنازلة الغزاة المعتدين، لم يكد يلتحم الفريقان حتى أيد الله جند صلاح الدين بنصره، واستمر القتال حتى عصر اليوم الرابع من نزولهم، فلم يمض الليل حتى أصلاهم صلاح الدين نارًا حامية، وأغرق سفنهم وقتل كثيرًا منهم، وانهزم من بقى يولون الدبر، وغنم جيش صلاح الدين كثيرًا من الآلات والأمتعة والأسلحة، وبذلك استطاع هذا البطل أن يحطم حصارهم، وأن يفرق جمعهم، وأن يمزقهم شر ممزق، فرجع من بقى منهم إلى بلادهم خزايا نادمين.

هكذا استطاع هذا البطل الملهم أن ينجى مصر من عدوان الفرنج ومؤامرتهم الدنيئة مرتين فى فترتين متلاحقتين، وهذا يدل دلالة بينة على أن صلاح الدين كان السيف المصلت على رقاب المعتدين الظالمين، بل كان الأسد الهصور فى الذب عن عرين الإسلام وثغور المسلمين.

رابعًا: الخطبة للخليفة العباسى:

بعد أن قضى صلاح الدين على المؤامرات الداخلية والخارجية واستأصل شأفتها وقلع جذورها، وثبت أقدامه فى مصر، فأراد أن يتقدم خطوة أخرى فى سبيل الاستقلال.

رأى البلاد يبالغ أهلها فى التشيع لآل البيت فليس من شىء يحولهم عن مذهبهم هذا سوى الدعوة إلى سيرة أهل السنة والجماعة التى هى عقيدة الأكثرية الساحقة من أبناء العالم الإسلامى، فأسس مدرستين كبيرتين: المدرسة الناصرية، والمدرسة الكاملية حتى حول الناس إلى المذهب الحق، ويمهد البلاد للتغيير الذى يريده، ولقد صادفت رغبته هذه

إلحاح (نورالدين محمود) بتغيير خطبة يوم الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسى (المستضىء) بدل الخليفة الفاطمى (العاضد) وما كان نورالدين وحده هو الذى يلح على صلاح الدين بذلك، بل كان العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه يترقب مثل هذه الخطوة وإليك ما قاله العماد مخاطبًا صلاح الدين فى هذا:

ردالخلافةعباسيةودع الدعى فيها يصادف شر منقلب

لاتقطعن ذنب الأفعى وتتركها الحزم عندى قطع الرأس كالذنب

فرأى صلاح الدين من الحكمة انتظار الفرصة الملائمة فى تبديل الخطبة ريثما يتم له الدعوة السنية من جهة، ويتمكن من جذب جميع المصريين إلى جانبه من جهة أخرى.

فلما مرض الخليفة الفاطمى (العاضد) وكثر الإلحاح من نورالدين جمع خاصته واستشارهم، فقام من وسط القوم عالم أعجمى يقال له (الأمير العالم) وأخذ على عاتقه القيام بالأمر كله، ثم أخذ سبيله إلى المسجد، وخطب للخليفة العباسى، فأمر صلاح الدين أتباعه بعدم إخبار الخليفة الفاطمى لمرضه، وقال للناس: إن عوفى فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، وقوبلت الخطبة للخليفة العباسى بسكون وهدوء عجيب، (ولم ينتطح فيها عنزان) كما يقول ابن الأثير فى تاريخه، فقد توفى (العاضد) وبوفاته انقرضت الدولة الفاطمية فى مصر، وكان ذلك عام 567هـ.

وبموت (العاضد) أصبح صلاح الدين سيد مصر، ليس لأحد فيها كلمة سواه، وقام صلاح الدين بمأتم العاضد وقبل التعازى ثلاثة أيام، وأكرم أهله وأحسن إليهم، فكانوا محل رعاية صلاح الدين وعنايته الفائقة.

خامسًا: سياسته مع نورالدين:

وما أن تولى صلاح الدين مقاليد الأمور فى مصر بعد موت الخليفة الفاطمى حتى زاد فى تحسين العلاقات بينه وبين نورالدين حتى لا يشعر أنه يريد الانفصال عنه والاستئثار بالحكم، بل تجنب كل ما من شأنه أن يشتم منه رائحة الخروج عليه للصلة المتينة التى كانت بينهما فى عهد عمه شيركوه، وللإحسان الذى أغدقه نورالدين عليه حين كان فى مقتبل العمر، وريعان الشباب.

فلم تمض فترة قصيرة من الزمن حتى أقام الخطبة فى المسجد لنورالدين بعد الخليفة العباسي، وضرب النقود باسمه، وأرسل له الهدايا الثمينة من كنوز القصر.. وهذا كله إظهار للفضل، واعتراف بالجميل وتجديد للولاء.

وفى هذه الفترة التى كان صلاح الدين يحكم فيها مصر أراد بعض الوشاة من أمراء الجيش الذين امتنعوا عن خدمته، وأبوا الإقامة معه فى مصر أن يوغروا صدر نورالدين، وأن يؤججوا بينهما نار العداوة والبغضاء.

وقد أثرت محاولتهم الدنيئة بعض التأثير، وكادت تقع بينهما اضطرابات وفتن، ولكن العقلاء استطاعوا أن يتداركوا الأمر، وأن يحذروا

الطرفين مغبة العداوة، وأنه سوف لن يستفيد من هذا الخلاف إن وقع سوي العدو المتربص بهم، والمترقب لخصوماتهم.. ولم تمض فترة قصيرة حتى عاد الصفاء إلى قلبىْ البطلين، ورجعت الثقة والمحبة إلى نفسيهما، واستمر صلاح الدين تحت الولاء الأسمى لنورالدين إلى أن توفى عام 569هـ1173م.

من استعراض هذه الأعمال التى أنجزها صلاح الدين فى مصر، وهذه المؤامرات التى تغلب عليها، تتراءى للقارئ شخصية هذا البطل وحنكته السياسية، وحزمه وحسن تدبيره للأمور.

ففى هذا العهد زالت كل عقبة كانت تقوم فى وجه صلاح الدين، بل أصبح فى فترة قصيرة سيدًا للشرق المسلم بلا منازع، والقائد المؤمل لمعارك التحرير، وكأن القدرة الإلهية قد هيأته لمحو العار الذى حاق بالمسلمين من احتلال الصليبيين للمسجد الأقصى فى فترات طويلة من التاريخ، وسنرى فى الفصول القادمة كيف استطاع صلاح الدين أن يوحد البلاد تحت إمرته، وأن ينتصر على الفرنج فى معركة حطين الحاسمة، وكيف أنه أعاد للإسلام عزته الرفيعة، وللمسلمين مجدهم المؤثل العريض و(فضل الله يوتيه من يشاء والله واسع عليم).

***

(6)

فى سَبِيل الوحْدَة

يقول الشاعر العربى:

لقد كان فى الهجران ما يَزَع الهوى ولكن شديدٌ فى الطباع انتقالها

ولو لم تكن الطّباعُ عسيرةَ الانتقال، ولو لم تكن الشهوات شديدة السيطرة على النفوس، ما جاز لحكّام صغار تقف سيطرة الواحد منهم عند بلدةٍ واحدة وما يجاورها من القرى أن يعلنوا الشقاق، ويتسارعوا إلى محالفة الأعداء كى يَهزموا صلاح الدين. وقد جاء صلاح الدين من القاهرة إلى الشام لا ليعزلهم عن مواقعهم، بل ليثبت أقدامهم لو انضموا تحت رايته المجاهدة، كما كانوا من قبل تحت راية نورالدين.

كان على كل واحد منهم أن يراجع نفسه مراجعةً واعية، فيسأل: هل سأخسر شيئاً إذا كنت ظهيراً لصلاح الدين؟ بل كان لابد أن يغلبهُ شعوره الدينى فيسأل: ولماذا يجاهد صلاح الدين؟ ومَن يُجاهد؟ وما الفرقُ بين بطل إسلامى غيور وَدّع الحياة وتلميذٍ له أَخَذَ مكانه عن جدارةٍ لا يبلغها سواه؟!.

لو أقبل بعضهم على بعض يتساءلون فى تَعقُّلٍ، لعلموا أن وجودَ مثل صلاح الدين من رحمة الله بهم، فهو حافظهم - بعد الله - من عدوان

الفرنجة، ولن يستطيعوا جميعاً أن يسدّوا مسدّه إذا تعرَّضت بلادهم الصغيرة لعدوان كاسح، من حملات الفرنجة، وقد أظهر الصليبيون الفرحة برحيل نورالدين، وحسبوا ساعة النصر دانية لولا ما تلبسهم من الخوف الكارب من قوة صلاح الدين، وهم على أتم استعداد أن يتعاونوا مع مخالفيه، مسلمين أو غير مسلمين ليكونوا حشداً متآزراً متسانداً أمام حاكم مصر وحده.

لقد كان أكبر أمل للفرنجة أن يقف أمراء الشام والموصل والجزيرة معهم ليصبح خليفة نورالدين دون نصير!! وها هم أولاء يَرون آمالهم تتحقق حين يُسرع هؤلاء الصغار إليهم صاغرين يطلبون الحماية من صلاح الدين! كأن لم يأتهم من قبل ما فعله الكامل بن شاور حين صاح فى وجه أبيه: لأن أموت قتيلاً بسيف بطل مسلم، خيرٌ من أن أعيش ذليلاً تحت رحمة عدو صليبى، وكأنهم لم يعلموا أن العدو الغادر سيفتك بالأغنام الشاردة واحدةً واحدة، إذا خلا له الطريق وغاب وجه صلاح الدين.

لقد علم صلاح الدين فرحة الصليبيين بموت نورالدين، وعَرف ببصيرته أنهم سيبتلعون مدن الشام مدينة مدينة، فيحققون ما حال نور الدين دون تحقيقه، فرأى من الواجب أن ينهض مُسالماً إلى أمراء الشام ليصارحهم بما يلمح فى الأفق من غيوم، أجل، ذهبَ مسالماً، لم يأخذ معه غير سبعمئة جندى توقعاً لاحتمال هجوم غادر من عدو صليبى، وحين أتى دمشق سالماً حمد الله أن نامت عيون الفرنجة عنه، لأنه خشى أن يزحف فى جيش مكتمل العدة والعدد فيظن أمراء الشام أنه جاء لحربهم وإرغامهم

بسيوفه، وقد وفقه الله فأرسل رسوله قبل أن يطرق دمشق ليخبر الناس بالمسجد الجامع أنه جاء زائراً مسالماً، لا خصماً محارباً، وأنه سيتدارس الموقف بعد رحيل نورالدين مع خلفائه على الإمارات فى الشام، لتلتئم الصفوف تحت راية واحدة، وأنه يكن للملك الصالح نجل نورالدين وكان عمره لا يتجاوز أحد عشر عاماً كل ودٍّ لذكرى والده، وأعظم احترام وتقدير لأسرته المكافحة.

وسمع الناس صلاح الدين فى صِدقه ومسالمته، فعرفوا أن الله لم يترك المسلمين هَمَلاً بعد نورالدين، بل هيأ من يُمثل دوره ويتابع خطوه، وقد جاءته الأنباء أن سيف الدين غازى حاكم الموصل - وهو ابن عم الملك الصالح - قد نشز عن صداقته، ورآه طفلاً صغيراً لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأراد أن يضم إمارته إليه، لا بالاتفاق الودى، بل بالغزو القاهر، وكأن عمه نورالدين لم يبوئه مكانه فى الموصل، ولم يهيئ له سبل الملك بما بذل من مال وعتاد ورجال.

جاءت الأنباء إلى صلاح الدّين بما اعتزم عليه سيف الدين، فعرف أن نُذر الشر قد بدأت تلوح، وأن ما حسبه من قبل من شتات الفرقة وسِعة الشّجار أصبح واقعة، فاطمأن إلى ما ظهر من دمشق من سلامٍ واقتناع، وتوجه إلى حمص فامتنع أميرها واعتصم بالقلعة.

على حين اجتمع الأمراء الوصوليون بالملك الصالح، ليفهموه أن صلاح الدين قد جاء لِيُزيحه عن الملك، وأن ما يقوله عن حمايته إياه

سرابٌ يخدع به الناس، والملك الغلام لا يتعرف وجه الحق فيما يسمع، وقد همُّوا جميعاً على مقاتلة صلاح الدين، عالمين أنهم لم يثبتوا لجيشه قدر ما ينهزمون، فدفعهم الطيش السفيه إلى الاستعانة بحاكم طرابلس «ريموند» عارضين له المال والسلاح كى يتقدّم بجيشه لنصرتهم من هول صلاح الدين! وقد استجاب «ريموند» فرحاً، وأخذ يجمع الجيش الصليبى للزحف، ولكنّ صلاح الدين لم يمهله بل تَحرّك قاصداً طرابلس، وحين جاءَته الأنباء بأن الجيش الإسلامى فى طريقه إلى طرابلس، انكفأ إلى قلعته، وأعلن أنه مسالم لا محارب.

وهكذا وقَى الله المسلمين معركة كانت وشيكة الالتهاب، على أنّ القوم قد فكروا فى اغتيال صلاح الدين، ولكن من الذين يجرؤُ على ذلك؟ إنهم الفدائيون من أنصار «سنان» شيخ الجبل، فاتصلوا بهم ليحضر من يأنسُ من نفسه الكفاءة على اغتيال صلاح الدين، وكادت تكون مأساة لولا أنْ سلّمه الله، ولم يلتقط صلاح الدين أنفاسه بل انكفأ إلى حمص فاستسلمت قلعتها، وكذلك فعل ببعلبك وعاد إلى حلب، محققاً ما أراده من الانتصار.

رأى أمراء الشام أن الأمر جدّ، وأن ملك الفرنجة قد أحجم، ومؤامرة الباطنيين قد فشلت، فلم يبقَ لهم من أمل غير الاستنجاد بسيف الدين غازى صاحب الموصل، وقد أفهموه أن جميع بلاد نورالدين ستكون تحت سلطانه، إذا تعاون معهم على دَرْء صلاح الدين. وأخذوا يجمعون من الأسلحة والجند ما سيكون مدداً فعَّالاً فى قتال صلاح الدين، وقد اغترّ

سيف الدين بما حدثوه عن ذخيرتهم وجيشهم، فَقَدِم سريعاً، وطلب لقاء الملك الصالح نجل نورالدين، ودعاه إلى أن يكون فى طليعة الجيش يسير معه خطوةً خطوة، ليعرف الناس أنه جاء ليثأر لابن أخيه من مُستبد غادر جاء ليطرد ابن سيده.

وأراد صلاح الدين أن يحسم الشر دون قتال، فأرسل إلى سيف الدين غازى يقول له إنه يرغب فى الصلح حقناً لدماء المسلمين، ونكايةً فى الفرنجة الذين يَسرهم أن يتقاتل المسلمون فتذهب ريحهم، وأنه على استعدادٍ أن يسلِّم له البلاد كما كانت على أن يبقى فى دمشق نائباً للملك الصالح بها! وهذا عرض سخى تقدم به صلاح الدين عن رغبةٍ فى رأب الصدع، لأنه لم يرد غير أن يضمن أن البلاد ستكون فى أيدٍ مسلمة، وأن سيف الدين إذا بقى فى دمشق نائباً للملك الصالح، فقد حفظ له حقه، ورعى واجب أبيه، وهو فى جهة ثانية سيربص بين سمع الفرنجة وبصرهم، فيكون على حذر منهم، كما يقف سدّاً منيعاً أمام مدن الشام، ولعمرى هذه التضحية بعينها، ولو عقل القوم لفرحوا بما أوتوا، إذا وجدوا فى معاهدة صلاح الدين واقياً لم يحلموا به من قبل.

ولكنهم لم يستجيبوا لما فيه صَونُهمُ الآمن، فصمّم سيف الدين أن يخوض المعركة ليطرد صلاح الدين نهائيّاً، فكانت النتيجة أن انهزم مع أعوانه شر هزيمة، وقد تفرقت الجنود بدداً بحيث لم يلتئم لهم شمل، وخصومُهم من ورائهم يأسرون ويستولون على الذخيرة حتى انتهوا إلى حلب، فتوارى الأمراء مقهورين.

أما سيف الدين فقد عاد إلى الموصل خائفاً يترقب، وجاءته الأنباء الكاذبة أن صلاح الدين فى طريقه إليه، وهى إشاعة لا سبيل إلى تصديقها، لأن صلاح الدين لن يغامر بجيشه إلى مطارح نائية بعيدة عن عدوه الحقيقى وهو الجيش الصليبى، ولعلّه كان سيتركه فى بلده حتى يغير موقفه مع الأيام، هذه الإشاعة الكاذبة عجَّلت بلقاء الجيشين، إذ زحف سيف الدين بجيش جديد جَمعه من أطراف البلاد حتى بلغ ستة آلاف مقاتل، وكان النصر لصلاح الدين، إذ سيطر على الموقف فى بسالة، وفرّ القادمون فى ذعر، وتركوا من الغنائم ما قوّى الجيش الصلاحى. وبذلك تبدَّد أمل سيف الدين، ومضى صلاح الدين يحتلّ ديار بلاد الشام وقُراها فتسلم إليه مقادها عن طوع.

وأثناء ذلك دهمت صلاح الدين فرقةٌ مغتالة من الخوارج بدسيسة من أحد الأمراء الموتورين، لبسوا لباس المصريين، وقدموا حوله، فهوى أحدُهم بالسكين على رأسه، ولولا حديدُ المغفر لقتلهُ لساعته، ولكن الله حاطه بعنايته، وكان صلاح الدين مالكاً أمْره، فأمسكه بيده، ولكن المجرم كان ذا بطش فأخذ يحاول الطعن فى رقبته بيدٍ، ويدُ صلاح الدين تعْصُرُ يَدَهُ الأخرى، حتى قدم جنده، فأخذوا هذا القاتل ليلقى حتفه، وأصيب البطل بعدّه خدوش جرى بها بعض الدم، ولكنها سارعت بالالتئام.

وقعت هذه الجريمة أمام قلعة «إعزاز»[1] - التى كانت تحت حصار

(1) وردت هكذا بالهمزة فى أولها، وذكر ياقوت أنها تقرأ أيضاً بدون همزة، وروى شعراً فى ذلك.

الجند، فقاومت عدة أيام، ويئس أهلها من الانتصار فتراسلوا بالصلاح، فقبل صلاح الدين ما عرضوه من المسالمة، وقد فوجئ صلاح الدين بابنة نور الدين تتقدم إليه وكانت من المحاصرين، وهى فى سنّ العاشرة، فتلقّاها بالحب والإكرام، ومنحها المال والذهب، وسألها عما تريد، فقالت: «إنّ أهل إعزاز يُريدونها دون سلطان عليهم»، فابتسم صلاح الدين وقال: «وهبتُ البلدة لك أنت فامنحيها لهم، وسألها عما تريد، فقالت: أحبّ أن أذهب إلى حلب جوار أسرتى، فأصرّ على أن يرافقها بنفسه إلى أسوار المدينة إكراماً لذكرى أبيها، وعادته أريحية التسامح بعد لقاء الفتاة الصغيرة، فأمرَ بفك الأسرى جميعهم، وقدّمَ العلاج لجرحاهم، وفيهم أناسٌ من علية القوم، فانقلبوا يشيدون بمروءته ويهتفون بذكره، ثم أغدق عليهم من الهدايا ما لم يكونوا يتوقعونه.

وهذا الموقف يحتاج إلى شاعر يصوره، وإلى عالم نفسى يحلّله! لقد كان البطل غاضباً على قومٍ ناوَؤُه دون أن يبدى لهم عداء، ثم فوجئ بضربات غادرة كادت تفقده حياته لولا أن منّ الله عليه، فنجا متأثراً ببعض الجروح، وكان فى ذلك ما يُشعل فيه حمية الانتقام، ولكنه فُوجئ بطفلةٍ صغيرة هى ابنة سيّده العزيز، برزتْ له على غير انتظار فحركت فى صدره كوامن بعيدةَ القرار، يختلجُ بها حبٌّ وتقديرٌ ووفاءٌ لراحلٍ عزيز، كانَ قدوةَ صلاح الدين ومَثله الأعلى الكبير، فَذهَب عَن صدْره كل غضب، وأشرقت صفحة محيّاه بالابتسام! وسألته الصغيرة شيئاً كبيراً جدّاً، هو أن يترك البلدة جميعها لأهلها دون والٍ يتبعه! وسرعانَ ما استجاب، حيث لم يرد أن

ترجع الطفلة العزيزة خائبة الرجاء!! ورأى من كرامة والدها أن يذهب معها بنفسه لتصل آمنة إلى أسوار حلب.. أليس للمؤرخ أن يستعين بالشاعر فى تصوير هذا الموقف النبيل.

وبعد: فهلْ سهلتْ مهمة صلاح الدين بعد انتصاره هذا؟ إن حزنه الكبير لتفرُّقَ كلمة المسلمين ومحاربة بعضهم بعضاً يُوازى حزنه لتسلُّط الفرنجة على بيت المقدس وما والاه، والحلُّ الأمثل فى رأيه ورأى مستشاريه أن يحاول جمع الإمارات الإسلامية كلّها صفّاً واحداً تحت رعايته، لأنْ نشوزَ حاكمٍ واحد يدعُو غيره إلى تقليده، بل يدعوهُ إلى تَحالفٍ سيئ مع الفرنجة!

لقد عَرف صلاح الدين أنّ أكبر أعدائه فى معركته مع الصليبيين هو ما يسمى الآن «بالطابور الخامس»! هؤلاء الذين يُظهرون الولاء المقائد الباسل، وهم عيونٌ عليه لمن عادوه، ثم إنهم كَمُنافِقى المدينة فى عهد الرسول ﷺ، لا يزالون يبغون الفتنة، ويبذُرون بواعث الشقاق، وهم أمام الناس حريصونْ على نصر الإسلام، ثم يكونونْ عامل تثبيطٍ إذا جدّ الجدّ، وقد اضطرّ صلاح الدين إلى جمع الحشود للنزال، وقد صدَق قول الله فى هؤلاء، ومثلهم من خلفهم فى عهد صلاح الدين ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾[التوبة: 57-56].

أقول هذا ردّاً على من كتب سيرة صلاح الدين فقال: إن اهتمامه الكبير كان فى توسيع سلطانه وامتداد نفوذه على حساب جيرانه، وقد حاربهم

حتى اضطرهم إلى الخضوع، مع أن قراءة التاريخ قراءة محايدة، تدل على أنه مد إليهم يد السلم عقب كل منازلة، ودعاهم إلى الالتئام فى معسكر واحد تحت قيادته، ولكُلِّ أميرٍ بَلْدَته التى يستقل داخلياً بأمرها، فما وَفوا بعهد، أو استكانوا إلى هدوء، وهكذا اضطُرّ صلاح الدين إلى منازلتهم اضطراراً، وتابع إخضاعهم عن يقين صادق بصواب ما يأتيه.

رجع صلاح الدين إلى مصر بعد أن أخذ العهود على من انتصر عليهم من الأمراء ألّا يخلُّوا بموثق، وكانِ بينه وبين الفرنجة هدنة ظنّ أنها ستحترم، ولكن القوم حين علموا انتقاله إلى مصر، زحفوا فى كثرتهم الكاثرة إلى الشام، فلم يستطِيعُوا الاستيلاء على بَعلبك لشدة مقاومتها، فولّوا وجوههم نحو دمشق، فقاومتْ ما قاومت ثم انخذلت مَقهورَة، وجاءَ النبأ إلى صلاح الدين، فهُرع على غير استعداد تام إلى فلسطين الجنوبية عند الرملة، وكأن ملك القدس كان يعرف زحفه السريع، فبادر بحشد قوّته جميعها لملاقاة صلاح الدين، وإذا كانت الحرب سجالاً يومٌ لك ويوم عليك، فقد انهزم صلاح الدين، وكاد يقع أسيراً لولا أن أنجاه الله، وقد كَتب إلى أخيه شمس الدين توران شاه يقول له: «لقد أشرفْنا على الهلاك، وما نجّانا الله إلا لأمر يريده». ولم يجد بدّاً من الرجوع إلى مصر ليعدّ العدة التامة من جديد، فتمكّن فى مدة ثلاثة أشهر من تهيئة الجيش.

وانتقل الخبر إلى الفرنجة فبادروا بمحاصرة «حارم»، ولم يكن لدى الملك الصالح ما يستطيع به المقاومة، فعَرض عليهم مالاً جزيلاً ليرحلوا عنها، فرحلُوا إلى حين، وقد فُوجئ صلاح الدين ببناء قلعةٍ صليّبية بالقُرب

من سهل بهناس لدى مكانٍ يسمّى «مَخاضة الأحزان»، وكانَ منطقةَ حرامٍ متفقًا عليها بين الطرفين، ولكنهمْ لم يرعوا ذمّةً لعهد، وصلاح الدين يعرفُ خطر القِلَاع فى اكتساب النصر، لأنها تحمى الجيش، وتصون الذخيرة، وتُطيل أمد المقاومة، فصبر على غيظ.

وقد اغترّ صاحبُ القلعة «بلدوين الرابع» بما لديه من مددٍ حربى، فزحفَ بجيشه على دمشق، وعجّل صلاح الدين بإرسال ابن أخيه الأمير فرُّوخ شاه لمنازلته على رأسِ جَيْشٍ مدرَّب مستعد، فصبر وجاهد حتى كسب النصر، وكاد «بلدوين» يقع أسيراً لولا أنه تنكر فى ثياب السوقة وفر هارباً، فرّ هارباً ليجمع جيشاً آخر يقاوم جيش صلاح الدين حيثُ يقيم.

وقد كان الباسل محاصراً القلعة «مخاضة الأحزان» حيث صمَّم على إزالتها ونهْب ما تحتويه، فتمّ له ذلك، وعزّ على «بلدوين» أن يُطرد من القلعة وأن تُصبح أطلالاً دارسة بعد أن تكبد فى تشييدها ما تكبّد، فجمع جيشاً عاونه فيه زملاؤه من أمراء الفرنجة، وسارَ من صَفد إلى الأردن نازلاً «بمرج العيون»، حيث دارت معركة حامية انتهت بانتصار المسلمين، وبعضُ الذين يتحفَّظون فى تقدير ما كَسَبتْه المعاركة وما خسرته يقولون إن قيمة المعركة الحقيقية ليستْ فى نتيجتها، ولكن فى أسرِ أمراء الصليبيين من كبار القادة، ومنهم «ريموند» صاحب طرابلس، و«بلدوين» صاحب الرملة، و«حوج» صاحب طبرية! وليت شعرى إذا انتهت المعركة بأسر هؤلاء الكبار ووراءهم زحوفٌ من أتباعهم، فكيف لا تكون ذات شأن جبّار، لاسيما وقد اضطرّ هؤلاء أن يفتدوا أنفسهم بما لم يستطعْ كاتب

صلاح الدين إحصاءه إلا بعد جهد شديد، على أن أسْر هؤلاء لابد أن قد أتى عقبَ معركة طاحنة متسمية، فلِمَ نحاول تهوينها؟!.

وقد كان تخريب قلعة «مخاضة الأحزان» وهزيمةُ موقعة «مرج العيون» سبباً لانهيارٍ نفسى فى صفوف الجيش الصليبى، فرأى المهزومون أن يعقدوا هدنة جديدة تمتد عامَيْن! وخالف فى ذلك صاحب طرابلس، فاكتفى بتقديم الفداء دون اشتراط، وأسرَّها صلاح الدين فى نفسه، وبعضُ الناس يلومونه أن أطلق سراح من لم يوقع على الهدنة، إذ ليس ذلك من الحكمة الحصيفة، وفاتَهُم أن صلاح الدين يعلمُ فى أعماقه أنّ معاهدة هؤلاء لا تخرج عن كونها حبراً على ورق! وأنّ صاحب طرابلس كانَ أصدق منهم، لأنه أفصح عن نفسه دون كيد مستتر، فهو أكرم ممن يعاهدون ويغدرون.

وقد انصرَف البطل إلى معارك جانبيّة مع صاحِب أرمينيا، ومع «قليج أرسلان» كُلّلت بالنجاح، وتركتْ له صدًى هائلاً فى ربوع بلاد الشام، فهرع الجميع إلى محالفته ومن بينهم صاحب الموصل وصاحب الجزيرة، وأربل وكيفيا وسلطان قونيا وملك أرمينيا وغيرهم، يقول الدكتور أحمد البيلى[1]: «ومن هذه المحالفة ندرك ما وصل إليه السلطان صلاح الدين من المركز الكبير الهامّ، وما وصلت إليه قوّته، حيث انتشرَ اسمُه فيما بين البحر الأسود وخليج فارس شرقاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً، كما

(1) صلاح الدين الأيوبى، للدكتور البيلى، (ص 142).

أن هذه المحالفات دلَّت دلالة واضحة على إمكان جمع هذه الإمارات، والدخول بها مع الفرنج فى حرب دينية مقدسة، كما كانت بلا شك الحجر الأول الذى وُضع للحروب القادمة مع الفرنج».

ولا يُنتظر فى دنيا السياسة أن تسير الأمور على نهج واحد، لأنّ الأطماع الذاتية ليست وليدة استجابة عقلية تأمر بالخير وتنهى عن الشر، ولكنّها تخضع لانفعالات عاطفية تجد تأثيرها الحادّ عند الأقزام أكثر مما تجد هذا التأثير عند العمالقة! لقد أنهى صلاح الدين دوراً كبيراً من جهاده فاطمأن على ما قدَّم، وبادر بالرحيل إلى مصر، فقد طال عهده بالاغتراب عنها، رحل إلى مصر وفى خاطره أنه سيعود

***

إصلاحات داخليَّة

لم يكن صلاح الدين قائداً حربيّاً فحسب، ولكنه كان قائداً إداريّاً يُلمّ بمرافق الدولة جميعها، ويُعين لها الأكفاء الممتازين من نوابغ الرجال، وكانَ حَسَنَ الفراسة فيمن حوله، فهو يزن معارفه وزْناً دقيقاً، ويضع كل رجلٍ من رجاله موضعه المناسب لمواهبه، ومن حُسن حظه أن زمانه قد سَمَحَ له بوجود رجالٍ أقوياء يجمعون إلى الإخلاص: الصبر على العمل، وانتقاء أيسر السبل لإتقانه، ومن هؤلاء العاملين العظام القاضى الفاضل فى مجال التعليم، وحسام الدين لؤلؤ فى قيادة الأساطيل وبنائها، وبهاء الدين قَرَقوش فى بناء الأسوار والقناطر المائية، وغيرهم ممن لا نحيط بهم على درجة التحديد من أمراء دولته، وأفضلهم من أسرته المقربين.

- ففى مجال التعليم بذلَ الأموال الطائلة فى بناء المدارس والخوانق والمساجد، حيث كانت حافلة بحلقات الدرس، ولو لم يُشغَل بالحروب الطاحنة لازدهر عهده بأعلام الفكر كما ازدهرَ عهدُ الرشيد والمأمون، ولكنّه على جهده الجاهد فى حروب الفرنجة كانت له فلسفةٌ خاصة فى اتجاه التعليم، إذ رأى أن يكون فقهُ أهل السنّة منتشراً بعد انتهاء العهد الفاطمى، فبادرَ بإنشاء المدارس الدينيَّة على أشمل وجه وأسرعه، وقد أنشئت فى عهد الخلافة الفاطمية مدارسُ معدودة فى القاهرة والإسكندرية، أمّا فى العهد

الأيوبى فقد امتدّت المدارس إلى غيرهما، وقد أحصى المقريزى أربعاً وعشرين مدرسة أُنشئت بالقاهرة وحدها لعهده، وكَتَبَ الأستاذ المستشرق «كريسويل» بحثاً مُفصّلاً عن هذه المدارس فى كتابه عن العمارة الإسلامية فى مصر، وكان شَغَفَ صلاح الدين بتدريس الفقه السنّى مصدر اهتمامه حتى قبل سقوط الخلافة الفاطمية. وينقل الدكتور أحمد فكرى فى كتابه «مساجد القاهرة ومدارسها»[1] عن المقريزى ما يلى ببعض التصرف:

«روى المقريزى أنّ صلاح الدين أنشأ فى سنة (566 هـ) عندما كان وزيراً للخليفة العاضد، مدرسةً أمر ببنائها بجوار مسجد عمرو، عُرفت أولَ الأمر بالمدرسة الناصرية، وعُرفت بعد ذلك بمدرسة «ابن زين النجار» ثم عُرفت بالمدرسة الشريفة، وكانت برسم الشافعية، كما كانت أول مدرسة عُملت بديار مصر -لتدريس الفقه السنى- وشَرع صلاح الدين فى السنة نفسها بإنشاء مدرسةٍ أخرى لفقهاء المالكية بجوار المسجد العتيق - مسجد عمرو - وسمّيت المدرسة القمحية لكثرة غلّة القمح التى كانت تدُرُّه أوقافها.

وفى سنة (570 هـ) أنشأَ قُطب الدين خسرو - وهو أحدُ أُمراء صلاح الدين - مدرسةً بالقاهرة سمّيت بالمدرسة القطبية نسبةً إلى منشئها، ووقفها على الفقهاء الشافعية، وفى نفس السنة أُنشئت مدرسة ابن الأرسوفى باسم صاحبها التاجر العسقلانى، وكان موقع هذه المدرسة بمصر الفسطاط، وأوقف صلاحُ الدين فى سنة (572 هـ) مدرسةً على فقهاء المذهب الحنفى، وكانت من جملة دار الوزير المأمون البطائحى وعُرفت بالمدرسة

(1) مساجد القاهرة ومدارسها، للدكتور أحمد فكرى، (2/ 50).

اليوسفية، من أجل أن سوق اليوسفيين كان يومئذٍ على بابها، وهذه المدرسة كانت أول مدرسة وُقفتْ على الحنفية بديار مصر».

ومضى صاحب كتاب «مساجد القاهرة ومدارسها» يُشير إلى أسماءِ مدارس أخرى كمدرسة الخبوشانى، ومدرسة التقويّة، وهذا يدل على اهتمام الملك الناصر بحركةٍ تعليميّةٍ كبرى تغطّى مساحاتٍ كبيرة من مصر، كما يدل على أنّ الأعيان من الأمراء والتجّار قد أسهموا فى هذا النشاط التعليمى حبّاً فى التعليم، أو تقرُّباً إلى الحاكم.

ولا شكّ أن القاضى الفاضل الفقيه العالم الأديب كانَ له أكبرُ الفضل فى اتجاه صلاح الدين، وقد بدأ فَبنى مدرسةً بجوار داره كانت فريدةً فى بابها، لأنها جُعلت لتدريس الفقه المالكى والفقه الشافعى معاً، والعهدُ بك مدرسةٍ ممن ذكرنا أن تَستقبلَ بمذهب واحد، كما جعل فى هذه المدرسة قاعةً للإقراءِ، أى لإقراء كتاب الله بالقراءات السبع، وأسنَد أستاذيتها إلى الإمام الشاطبى عَلَم الأعلام فى فن القراءات.

وقد زاد القاضى فضمّ إلى هذه المدرسة الفسيحة ذاتِ الشُّعَب المتعددة جُملةً عظيمة من الكتب النادرة فى سائر العلوم، يُقال: إنها بَلغت مئة ألف مجلد! وبها مصحفٌ كبير جدّاً مكتوبٌ بالخط الكوفى يَسميه الناس «مصحب عثمان»، وقد أُفرد فى مكانٍ خاص بجانب المحراب فى إطارٍ زجاجىٍّ، فكانَ الناس يتبرَّكون برؤيته، ومن يَقدِرُ عَلَى أن يقنِعَ المسئول بالقراءِة فيه أمداً قصيراً عَدَّ ذلك غَنيمةً كبرى حظى بها، وأخذَ يفاخر بأنه قرأ فى مصحف عثمان.

وقد عُرِفت مدرسة القاضى الفاضل بالمدرسة الفاضلية، نسبةً إليه، وإنّ مدرسة تضم مئة ألف مجلّد علمى لتُعطى دلالةً على الثروة العلمية التى وُجدت فى هذه المؤلفات، كما تدل على أن ما قيل أنّ صلاح الدين أحْرق كلَّ الكتب الخاصة بمكتبات الخُلفاء مبَالَغٌ فيه إلى حدٍّ لا يُصدَّق، إذ كَيف تجمعُ مدرسة واحدة - وهى مدرسة الفاضل-: مئة ألف مجلد!! مع أن القاضى قريبُ العهد جدّاً بزَمنِ الإحراق المزعوم، وطبيعىٌّ أن تكون لكل مدرسة مجلداتٌ أخرى، وإن لم تبلغ مبلغ مدرسة القاضى، مما يعصف بكثير من الأكاذيب.

وقد قال الأستاذ محمد فريد أبوحديد[1]: «إنّ من الخطأ أن نظنّ أن صلاح الدين قد أدخلَ المدارس بمعناها الحديث، لأنها اقتصرت على العلم الدينىِّ فقط، أمّا التعليم الصناعى وغيرُه من العلوم المادية ذات الصلة بالحياة فلم يكنْ ذا شأن فى هذه المدارس، وهذا لا يؤخذُ به صلاح الدين، لأن التعليم فى هذه العصور بكل مكان كانَ خاصّاً بالعلوم الدينية بالمدارس الرسمية، أما الاتجاهُ إلى العلوم الأخرى فأمرٌ عَرفته العصور التالية، وليسَ معنى هذا أنّ هذه العصور لم تَعرف أساطين كباراً فى الطب والهندسة والجبر وسائر العلوم، بل معناه أنّ دراسة هذه العلوم كانت محصورةً فى أساتذة يجمعون حولهم نفراً من التلاميذ الموهوبين، وقد لا يكونُ للأستاذ أكثرَ من تلميذ يحمل عنه علمَه.

على أنّ صلاح الدين قد أنشأَ البيمارستان وزوّدَه بأشهر الأطباء، وأنفق

(1) صلاح الدين الأيوبى، للأستاذ أبى حديد، (ص 126) وما بعدها.

على سعةٍ فى بنائه وإحضار أدوات العلاج، مما يدل على أن مسائل الطب والصيدلة وما تطلبهُ من حساباتٍ دقيقة فى تقدير العلاج كانت موضع الرسوخ من أساتذةٍ كبار، ولكنهم لم يجلسوا فى مدارسَ ذاتِ حلقاتٍ! ودراسةُ مسائلِ الفقه فى مذاهبه المختلفة خَلَقتْ وعياً إسلامياً كبيراً بالقانون لم يوجد مثله فى أوروبا حينذاك، لأن الفقهاء لا يدرِّسون لطلابهم فى هذه المدارس مسائل العبادات من طهارة وصلاة وزكاة وصيام وحج فقط، بل يدرسون أبواب المعاملات من بيْع ورَهْن وحَجْر وشفعة وربا وخَيار وزراعة وإجارة، كما يدرسون مسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاقٍ وميراث، ومسائل الحدود الخاصة بالقتل والفساد فى الأرض والزنا والسرقة وشرب الخمر، وإنّ إلمام الطالب بالقانون الإسلامى فى شتّى فروعه لهو مصدر تنوير ساطع، وتمييزٍ للحلال والحرام، وتلك ثقافة ممتازة لها أثرها البعيد.

ننتقل إلى الناحية المعمارية، لاسيما فى مصر، التى اهتمّ بها صلاح الدين كثيراً، فقد أخذت نصيباً كبيراً من جهده، لأنها فى صميمها تتجه إلى صيانة مصر من الهجوم الصليبى، وكان أول ما اتجهت إليه همّته هو إعادة بناء سور القاهرة الذى بناهُ جوهر الصِّقلى من اللَّبِن عند قيامه بالأمر فى القاهرة، ثم أتت عليه العوادى فاضطرّ بدرالدين الجمالى إلى ترميمه من جديد، ولكنْ من الطوب اللّبنى أيضاً، حتى إذا كان العهد الأيوبى، عَرف صلاح الدين قيمة هذا السور فى الدفاع عن العاصمة، إذ لاحظ فجواتٍ كبيرةً تخترقه، وهذه الفجوات تسمحُ بعبور الجيوش المهاجمة بمعدَّاتها

الثقيلة، وكانت الصلةُ بين الفسطاط والقاهرة مقطوعةً، فأراد صلاح الدين أن يجمع العاصمة القديمة مع العاصمة الحديثة داخل سورٍ واحد، ليملأَ الفضاء الشاسع الذى كان مبسوطاً بينهما بمختلف وسائل العمران، وهو بذلك يرمى إلى غرَضين كبيرَين: أولهُما تحصينُ العاصمة أمام الحملات المحتملة من الصليبيين، وثانيهما إقامة قلعة داخل السور تحمى السلطان وجنوده فى ساعة الخطر، إذا همّت ثورةٌ داخلية بالعصيان.

ولم تكن القِلاعُ معروفةً لدى المصريين، ولكنها منتشرةٌ فى الشام، وقد ساعدتْ على احتماء من يلُوذ بها سواء كان مسلماً أو صليبيّاً، كما أدى بأن يكون ما حول القلعة عامراً بالأسواق والمتاجر، وقد وَكّل بتنفيذ بناء السور والقلعة أحد أمرائه المشهورين بالصرامة والجد، وهو بهاء الدين قَرَقوش الأسدى، وكانَ الرجل ذاَ قدرةٍ على العمل الجاد صباحَ مساء، حتى لكأنه خُلِقَ من حديدٍ لا من دَم ولحم، وقد حَمَل بأسَه على مَعاونيه، فكان يُرهقهم إرهاقاً شاقاً، حتى ضُرب به المثل فى الشدّة القاسية، فأصبحَ «حكم قرقوش» فى المثل العامى دالًّا علىَ الظلم والاضطهاد، وهى دلالةٌ ليست صحيحة، إذ فرقٌ واضحٌ بين الظلم الذى يغصب الناس حقوقهم، والجد الذى يدفع إلى العمل الكادح.

ولا أنكر أن الأمير قرقوش كان يحتاج إلى رأفةِ صلاح الدين وحنانه ليُريحَ من ينفّذون أمره، ولعله نظر إلى أنّ أكثر العمال من أسرى الصليبيين وعددُهم ستّون ألفاً، فآثر أن يشغلهم طيلة اليوم، وهذا غير جائز، لأنّ للأسير فى حُكم الإسلام حظّهُ من الراحة والاطمئنان، والمعاملة بالتى هى أحسن.

وقد أتمّ قرقوش ما نيط به فى ستة أعوام لم يهدأ فيها العمل الجادّ ليل نهار، حيث كانت المصابيح تُضىء فوق الأسوار لتُرى العاملين مسالك الطريق، وفى سبيل إعداد هذا العمل الضخم فى وقته القصير، أمَر قرقوش بهدم عددٍ كبير من الأهرامات الصغيرة التى كانت بالجيزة، كما أزال ما اعترض الطريق منها إلى السور من أبنية عامرة، وفيها المنازلُ والمساجد، فضلاً عن الأضرحة والقبور.

ولصلاح الدين فَضْل حين جعل القاهرة مأوى للخاصّة والعامة من أبناء البلاد، لأنّ من سبقه من الحكام كانوا يبنون ديارهم فى حيّز مستقلّ عُرِف بالقطائع أو العسكر، فلا يسمحون لغير الحرّاس من الجند أن يقيموا فى هذه العواصم المستحدثة.

ولم تتمّ القلعة على وضعها النهائى فى عهد صلاح الدين، ولكنها أكتملت فى عهد الكامل حينَ جعلها مقرّاً لسُلطته، ولم تكن القلعة وحدها موضع اهتمام صلاح الدين، إذ أمر قرقوش ببناءِ عدّة قناطر على النيل بالجيزة، فكانت كجبلٍ ممتد فوقِ الماء، لأنّ أحجار الأهرام قد كانت موادّ هذه القناطر، ثم بنى برجاً فى شمال القاهرة، ثم بالمقْس - نسبة إلى الماقس وهو جابى الضرائب -، وكان البرج من الاتساع والارتفاع بحيث أصبحَ قلعةً أخرى أطلق عليها العامة قلعة قرقوش، فى حين أُطلق على القلعة الأولى اسم صلاح الدين.

ولم تكن القاهرة موضعَ اهتمام الملك الناصر فقط، بل تَعدَّاها إلى الثغور التى تفدُ إليها سفن الأعداء، وقد عرف قيمة تحصين هذه الثغور

عندَ محاصرته بالإسكندرية فى المرّة الأولى، وعند هجوم الحملة الصليبية على دمياط غِبَّ تملّكه الوزارة بعد أسد الدين، وقد كانت دمياط فى العهد الفاطمى داراً لصناعة السفن الحربية، وعُرفت من ذلك الوقت بجودة الصناعة حتى الآن، فأهلُها مَهَرة من خيرة الصُناع، وقد انتقل إليها صلاح الدين فور حكمه فجهزها بالسلاسل الحديدية الواقية، لأن هذه السلاسل هى التى عاقت جنود الحملة المشار إليها من اقتحام المدينة حينئذ، إذ كانتْ تُشدّ بين بُرجيْن ضخمين من الحجر الصوَّان كيْلا تُضعفها السلاسل المشدودة إليها، وقد ضعفت السلاسل فعمل على تقويتها، ولم يغفل عن سور دمياط، إذ رأى أن يُرمّم ليكون حامياً للمدينة عند الهجوم المباغت، وجميعُ ذلك يتطلب جهداً جسيماً، وذخيرةً مالية كبرى، لم يشأ الملك الناصر أن يضنّ بهما، لأن أدواتِ الدفاع فى المحلّ الأول من تفكيره السليم.

أما الإسكندرية فقد وجدت من اهتمام البطل جهداً مضاعفاً، وقد أَمَر برمى أكثر من أربعمئة عمودٍ من الأعمدة الرومانية الضخمة المحيطة بالبحر الأبيض فى الماء، لتكون عائقاً للسفن المهاجمة، فتعوقُ العدو عن الانتقال إلى الشاطئ، وانتقل إلى الأسوار بالمدينة فجدّدها وأحاطها بالخنادق، ولم يكتفِ بمباشرةِ عامله قرقوش على العمل، بل ترك القاهرة إلى الإسكندرية ليشرفَ على التنفيذ بخبرته العملية، وكذلك فعل بدمياط حيثُ وَالَى الإشراف بنفسه رَدحاً من الزمن، وقد بلغَ ما أنفقه من التحصينات فى دمياط وحدها مليون دينار، وما أنفق فى تحصينات الإسكندرية أكثرُ، لامتداد رُقْعتها، وضعف سورها الذى تكلّف كثيراً فى ترميمه واستعادة قوّته.

وبامتدادِ نظره الحربى الواعى انتقل إلى شبه جزيرة سيناء، فأنشأ مراكز الحراسة بها، وقد كلّفه ذلك جهداً كبيراً، لأن هذه المنطقة الصحراوية هى التى تفصلُ بين مصر والفرنجة فى بيت المقدس، وعن طريقها هَجَمت جيوش الفرنجة فلا بدَّ من حمايتها بالقلاع الضخمة، وهذا ما فعله، مما أرعب الصليبيين!.

ولا أحد فى هذا المقام أن أغفل كفاح قرقوش فى أكثر ما تحدثتُ عنه، لأن العامة لدينا ظلموه إذ اعتبروه فى أقوالهم مضرب المثل فى الحُكم الظالم، كما أشرتُ من قبل، وفى كلامِ ابن خلّكان عنهُ ما يكفى لإنصافه، حيث قال عنه[1]: «ولما استقلّ صلاح الدين بالديار المصرية جعلَه زمامَ القصر، ثم نابَ عنه مُدةً بالديار المصرية، وفوّض أمورَها إليه، واعتمدَ فى تدبير أحوالها عليه، كانَ رجلاً مسعوداً وصاحب همّة عالية، وهو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبَنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام، وهى آثارٌ دالّة على علو الهمّة، وعَمّر بالمقس رباطاً، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، ولهُ وقف كثير لا يُعرف مَصرفه، وكان حسن المقصد جميل النيّة.. وكانَ له حقوقٌ كثيرة على الإسلام والسلطان والمسلمين، والناسُ ينسبون إليه أحكاماً عجيبة فى ولايته، حتى إن الأسعد بن مماتى له جزءٌ لطيف سماه «الفاشوش فى أحكام قرقوش»، وفيه أشياءُ يبعدُ وقوعها من مثله، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمداً فى أحوال المملكة عليه،

(1) وفيات الأعيان: (3/ 254)، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد.

ولولا وثوقه بمعرفته وكافيته ما فوّضها إليه».

أمّا الاهتمام بإعداد الأسطول البحرى، فقد كانَ من مهام صلاح الدين التى شغلت باله، حيث أمر بإعداد السفن الحربية الكافية لمنازلة العدو حين اعتدّ بقدرته المتفوّقة فى هذا المجال، وقد كان لمصر أسطول بحرى فى العصر الفاطمى أدَّى دوره القتالى بنجاح، ثم أصيب بكارثةٍ أليمة لا من الأعداء، بل من وزير مصر الحاكم بأمره، إذ خاف «شاور» أن يستولى عليه «أموري» ملك بيت المقدس، وبَدل أن يعمل على تقويته وإنمائه أحرقَ جزءاً كبيراً منه، وجاء العبيدُ فنهبوا ما بقى من حطامه! وهكذا تُحرق الفسطاط تارة، ويُحرق الأسطول تارة أخرى على يد شاور!.

فلما حُوصرت الإسكندرية على عهد صلاح الدين وجد الأسطول ضرورةً ملزمة، لا لوقاية الإسكندرية فحسب، بل للهجوم على أعدائه فى موانئ الشام، فأَمَر حسام الدين لؤلؤ بالإشراف على تهيئة الأسطول الحربى، آخذاً ما يعنّ له من أشجار البلاد ومواد البناء الحربى، كما بحث عن مَهَرة الصنَّاع فى الدولة فجعلهم تحت إمرة حسام الدين، وخصّص للأسطول إقطاعاً خاصّاً، ومواردَ زراعيّة يكون نتاجها خالصاً لتعميره، وأعطَى لحسام الدين سلطة مميزة بين رجال الدولة، حيثُ جعل قوله لا يُردّ فى كل ما يطلب، وقد اهتمَّ حسامُ الدين بما كُلّف به، وواصل العمل حتى بلغت قِطَع الأسطول مبلغاً أورث الأعداء الذعر، وظَهرت باكورة نشاطه فى معركة «مرجِ عيون»، حيث قاوم حسام الدين أسطول الفرنجة، فحطم بعض سفنه، وغنم سفينتين كبيرتين تحملان أكياسَ الذهب، مع

ما تحمل من عدد القتلى، ورأى صلاحُ الدين أن يفرّق هذا الذهب على المقاتلين فى عرض الماء، فأصابهم خيرٌ كثير، كما دفع إلى الصناع ما ملأ جيوبهم بالدنانير، حتى قال صاحب الروضتين[1]: «لقد ظفر بالمال أناسٌ كانت وجوههم لا تعرف وَجْه الدرهم، ولا عين الدينار».

وقد تعرَّض الأسطول لهزيمة فى بلدة صور كانت موضعَ الألم للمسلمين، ولكنّه لم يلبثْ أن استعاد نشاطه فى معركة عكا، حيث أسرع لؤلؤ بخمسين سفينة حربية إلى أسطول الفرنجة فبدّده -كما سيأتى تفصيل ذلك فى حديث خاص بأمير البحر-، وغَنِم ما فيه وانتقلت جنودهُ إلى المدينة المحاصرة، فقدّمت الزاد والسلاح، فقويت نفوس أهل عكّا بنجاح الأسطول، وقوى جنانهم[2]، وفزع الصليبيون فجمَّعوا كل سفنهم لمنازلة الأسطول المصرى، ولكنّ المعركة انتهت بانتصاره الحاسم، ثم غَنم مركباً وصل لإنقاذ الفرنجة فى المعركة بعد انتهائها، غنيمة بما فيه وَمَنْ فيه.

ومضت أيامٌ وتجدّد القتال البحرى بعد وُصول سفن كثيرة من أوروبا، استطاعوا بها أن يُحاصروا عكّا، فلا تستطيع المؤونة أنْ تصل إلى أبنائها، وأدركت حسام الدين حيلته فأعدّ سفينة كبرى، وأمَر رجاله بأن يلبسوا لِباس الصليبيين، وأن يحلقوا لحاهم، ويُعلّقوا الصلبان، فظنّ قادة الفرنجة فى الأسطول أنّ القادمين إخوانهم، وتركوا السفينة تسير نحو بيت المقدس، فاتجهت إلى عكا بما تحمل من زاد، وفكّتْ كربةَ المحاصرين الذين

(1) الروضتين: (2/ 11).

(2) الكامل لابن الأثير: (12/ 20).

أعوزهم الطعام والشراب، وتكرَّر ذَلك حتى فطِن الفرنجة إلى حصافة التدبير، ودارت مَعركةٌ امتدت وقتاً طويلاً فى حساب الكرّ والصيال.

وللأسطول جهادُه الشاق فى كل موقف، ومن أظهر مواقفه انتصاره على الأسطول الإفرنجى حين قدم فى عدة هائلة تتعقَّب حجَّاج بيت الله، ولم يكتفِ بسلب ما يحملون، بل أعمَل السيف تقْتيلاً وذبْحاً للعزل المسافرين، وكانت غضبةُ صلاح الدين على «أرناط» صاحب الكَرك الذى تولَّى ذلك - ذاتَ غيظٍ وحفيظة، فأورده مورد الوبال بعد أن تَمكّن منه فى موقعة قادمة، لأنه أهان رسول الله ﷺ بقولٍ ساقط قفّ له شعر صلاح الدين، وأقسم أن ينتقم، وقد كان!.

هذا بعض جهاد الأسطول، وإذا كان ابن خلّكان قد أنصف بهاءالدين قرقوش بما نقلْته عنه من قبل، فلى أن أُنصف حسام الدين لؤلؤ، فأنقل للقارئ قصّة عنه كتبتها تحت عنوان «أمير البحر» وهى فى الصميم من تاريخ صلاح الدين.

***

إلى الشَّام مِنْ جَديد

ما طالعتُ صنوف المصاعب التى كابدها صلاح الدين فى حياته الحافلة بالأهوال إلَّا تذكرت قول أبى تمام:

قد علِمْنا أنْ ليس إلّا بشقّ النفس صار العظيم يدعى عظيما
طلبُ المجدِ يُورثُ المرءَ خَبْلاً وهموماً تُقَضْقِضُ الحَيْزوما
فتراهُ وهو الخلىّ شجيّاً وتراه وهو الصحيحُ سقيما
تيّمته العُلى فليس يَعُدُّ البؤسَ بؤساً ولا النعيم نعيما
كلّ حالٍ تَلقاه فيها ولكن ليس يُلفَى فى حالة مَذْموما

ذلك لأن صلاح الدين منذُ وُلِّى وزارة العاضد لم يبتْ ليلةً واحدة مستريحاً، فأعداؤه يحوطونه من كل جانب، أعداءٌ بارزون يَعرفهم بعدائهم السافر حيث خرجوا من ديارهم آثمين مُفْتَرين، وأعداءٌ متسترّون، منهم حُلفاؤه من المسلمين، يُظهرون الودّ ويبطنون الكيد، ومنهم أقرباؤُه من بنى عمه وبنى أبيه، إذ ينغّصون عليه مجده، ويرون أنهم أحقّ به منه، مع أنّ أباهم أيوبَ نفسه قد رأى نَجلَه أحقّ بالمجد منه، وارْتَضَى أن يعمل تحت رايته، لأنّ حنانَ الأبوة لم يَدعْ مجالاً للمنافسة، أمّا قُرْبى الأخوة والعمومة فسهلٌ أن تنفصم عراها لدى الأنانيّين.

لم يكد صلاح الدين يرجعُ من الشام ليستقرّ فى مصر، حتى أحسَّ بالقلق يأخذ عليه مضجعه إذا نام، فيبيت متقلّباً على الشوك، ويغيم وجهُ الأفق فى عينيه إذا قام، فلا يرى الصبح مشرقاً بل قاتماً، وقد حسب ظنوناً خالَها بفراسته الوقّادة دانيةَ الوقوع، ظنوناً لم تَهبّ من ناحيةٍ واحدة، بل من ناحيتين متعارضتين، لأن الذين عاهدهم من المسلمين فى الشام كانوا يسرّون حَسداً فى ارتغاء. وفيهم من يظنّ أنّ صلاح الدين قد اغتصب إرثه، مع أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، كما أنّ الذين هادنهم من الفرنجة قد هالهم أن تُصبحَ الشام ومصر معاً تحتَ راية صلاح الدين، وقد كان نورالدين فى الشام وحده يسقيهم المرّ الزّعاف، وهو رجل اطمئنانٍ واتّئادٍ، فماذا يكون شأنهم مع صلاح الدين وقد ضمّ الشام إلى مصر، وهو رجُل تَوثُبٍ وإسراع، أفيسكتون حتى يدهمهم بخيله ورَجِلِه، إذ يظنّ بهم الضّعف الواهن، أم يظهرون له العداء السّافر حين يحتلون دياره قريباً من مصر، فيعلم أن القوم لا يخفلون بمهادنته، وأنّهم على استعداد لمواجهته، لأنّ البحر يقذفُ إليهم بالسلاح والقوة والرجال! وقد كثُر الوافدون من المتعطّشين للنزال.. فلا بد أن يبدأ القتال!!.

وهذا إجمالٌ يحتاجُ إلى تفصيل يوضح جليّة هذه الظنون التى تلبَّست صلاح الدين، إذ أثبتت الأيام أنها صارت حقّاً واقعاً، فمن ناحية المتطلّعين إلى مزاحمته من المسلمين، أُتيحتْ لهم فرصةٌ عاجلة، إذ مات فى وقتين متقاربين سيفُ الدين غازى صاحب الموصل، والملك الصالح إسماعيل ابن نورالدين صاحب حلب، وكلاهما كان يضيق فى سرّه بصلاح الدين،

ويعتقد أن جمهوره الإسلامى سيدعوه إلى السيطرة على العالم الإسلامى فى الأمة العربية، وقد عبّرا عن هذا الضيق حين كَتَبا وصيتين متشابهتين تماماً، فالوصية الأولى كتبها سيف الدين غازى لتنصّ على أن مُلك الموصل من بعده لأخيه عزالدين مسعود، لا لأحدٍ من ولديه، لأنهما كانا صغيرين فاكتفى بحيازتهما لبلدين متواضعين تحت رعاية عزالدين، فكأنه حَوىَ الميراث جميعه. ولعلَّ صدى هذه الوصية قد انتقل إلى الملك الصالح فى الأيام الأخيرة من مرضه، فآثر أن يكتب وصيته لعزالدين مسعود أيضاً، وكأنه رأى أن امتلاكه هذا الإقليم الأساسى من بلاد الشام مُضافاً إلى إرث سيف الدين سيجعله خطراً قويّاً يهدّد صلاح الدين، فتعود الشام لآل زنكى كما كانت فى عهد نورالدين.

وما كاد الملك الصالح يفارق الحياة، وتأتى الأنباء لعزالدين مسعود بالوصية، حتى خفَّ إلى حلب ليكون بطل المواجهة القريبة، وقد علم من عيونه أن السلطان سيغادر مصر إلى الشام، وهو يعرف مَن صلاح الدين؟ فأدركه الوَجَل من لقائه، واستدعى أخاه عمادالدين صاحب سنجار كى يكون صاحب حلب، على أن يحلّ محلَّه فى سنجار، وهذا ما رحَّب به عمادالدين، فاعتقد أن القدر سيقف معه، لأن الشاميين يعرفون أنه أصيلٌ لا دخيل، فالبلد بلد أبيه، وصلاحُ الدين لم يزدْ عن كونه جنديّاً من جنوده، وهذا ما يبتعد به عن أىّ حقٍّ فى السيطرة على حلب!.

وقد نسى هؤلاء أن صلاح الدين قد تعاقد مع الرّاحلين والباقين من حكام المدن الزنكية من قبل، على أن يكون الحُكم لهم تحت رعايته

فحسب، ضماناً لهم أن يلتزموا بالوقوف معه أمام الزحف الصليبى، وما كان لأحد منهم أن يسدَّ مسدّه إذا ترك لهم الشام واكتفى بمصر.

دارت هذه الأحداث سريعةً متتالية، وجاءت أنباؤها إلى صلاح الدين، ثم جاءه ما هو أدهى وأفدح، جاءه أنَّ بعض حلفائه هؤلاء قد حالفوا الفرنجة والباطنية، ليعملوا صفّاً واحداً ضدَّ صلاح الدين! وما أشدّ ابتهاج الصليبيين بما قدَّمه هؤلاء لهم من الولاء، وإذن فمن الحتم أن يرحل إلى الشام، وقد صعُب على كثير من مُحبِّيه فى مصر أن تُزعجه الأحداث عنهم، فأقاموا له حفلاً توديعياً كان آخر عهده بوادى النيل. ولا أدرى لماذا أوحى الله لبعض معلِّمى أولاده أن يخاطبه بقول الشاعر:

تمتعْ من شميم عِرار نَجْد   فما بعد العشيّة من عرار

وهو استشهاد يبعث على التشاؤم، فقد انقبض له صدر صلاح الدين، وحين جُوبِه المعلم بالإنْكار الصائب لما نطق به، قال إنه يريد أنّه سيبتعد بعض الوقت فقط، فلْيتمتّع بنسيم مصر، والمسألة مسألة ذوق، والذوق شيء ليس فى الكتب، ومن المؤسف أنّ صلاح الدين قد ذهب كي لا يعود.

سار صلاح الدين إلى دمشق، ومعه الحشود الزاخرة لا من الجنود فحسب، بل من التجَّار والأعيان الذين أرادوا أن يصحبوا البطل حتى دمشق، لتبديل وحشته، وهو شعورٌ عربى نعرفه لدى أناس لا يتهيبون مواقف الخطر إرضاءً لمشاعر عاطفية تختلج فى صدورهم، وقد فَزع الصليبيُّون لمقدمه وتوقعوه أكيداً منذ جاءتهم الأنباء من قبل، بوقوف

آل زنكى فى وجهه، وفيهم من اتَّصل بهم، وعلم بذلك السلطان فاحتاط للموقف، وقسَّم الجيش فريقين، فريقاً ذهب إلى دمشق تحت قيادة أخيه البطل «بورى تاج الملوك» وفريقاً بقى معه استعداداً للمعركة، ومن حنكة ابن أخيه البطل الآخر «فرُّوخ شاه« نائبه على دمشق أنه علم بتجمُّع الصليبيين حول الأردن استعداداً لمنازلة صلاح الدين المنتظرة، فأسرع - أثابه الله - بالانقضاض على طبرية وعكا، واستولى على الشقيف وأرنون، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس من الغنم، وواصل الزحف فأغار على الضفة الشرقية للأردن، واستولى على أهم حصْنٍ من حصُونها بعد خمسة أيام من حصاره، وأسْكنَه المسلمين بعد أن هرب مَن به من الفرنجة!.

وجاءت هذه الأنباء السّارَّة إلى صلاح الدين فهنّأ أخاه على بطولته، وكانت فرْحَته تعادل حسرة الصليبيين الذين تركوا طبرية وعكا والشقيف، ليكون عتادها زاداً هنيئاً للمسلمين! وحين بلغ السلطان دمشق عَلِمَ من أخيه أن ما هاجمه من البلاد حول الأردن يضمُّ من العتاد ما يمكن أن يكون قوةً للجيش الإسلامى، ثم عَرف أن تجمُّعاً صليبياً قد احتشد حول طبرية، فأسرع السلطان لأمر فرُّوخ شاه بمنازلة الذين أُخذوا على غرّة هناك فبلغ أربه، ودخل مدينة بيسان مكتسحاً، وقفل راجعاً إلى دمشق بعتاد وفيرٍ مما غنم.

وكانت مهمة السلطان عسيرة أمام خصومه فى حلب، فاتَّجه إليها محاصراً دون أن يشبّ حرباً، لأنه يعلم أنها بلدٌ إسلامى، وليس من همّه أن يوهن من بأس المسلمين وإنْ نازلوه، ورأى أن يتركها إلى الموصل،

فاستولى فى طريقه على الرها وحرّان والرقة وسروج ونصيبين، ووقف أمام الموصل موقفه أمام حلب، حيثُ لم يشأ المهاجمة، ورأى من الحكمة أن يُرسل إلى الخليفة فى بغداد كى يعمل على رأب الصدع بينه وبين خصومه، منعاً لخسارة إسلامية، متوقعة ولم يأتِ الخليفة بعمل حاسمٍ، إذ أرسل أحد الشيوخ من العلماء للوساطة!.

وجاءت الأنباء بتجمُّع الصليبيين استعداداً لهجوم ساحق على دمشق فى غيبة صلاح الدين، ففكّ الحصار، وعجَّ بالرحيل، ولكنّ الفرنجة لم يقصدوا دمشق بادئ ذى بدء، بل عاثوا فساداً ورعباً فى إقليم حوران، ثم اتَّجهوا إلى ضواحى دمشق، على حين ماتَ نائب السلطان، فلم يلبثْ صلاح الدين أن داهمهم فأزعجهم عن مرادهم.

وحين تمّ له ما أراد اتَّجه إلى حلب، وكان حاكمها عمادالدين متردِّداً فى أمره مع صلاح الدين، لأنه يعلم فى ضميره أنّ اندحار السلطان سيسلمه إلى منازلة الفرنجة، ولا حول لديه أمامهم، فأرسل إليه يعرض أن يترك حلب ويكون والياً على سنجار بلده، وقد فرح السلطان بهذا العرض، وزاد فى ترضية عمادالدين فضمّ إليه الخابور والرقة ونصيبين وسروج، وبذلك صار حليفاً.

وأخلَتْ حلب ميادينها للبطل الفاتح فدخلها شاكراً حامداً، وعادت الشام ثانية إلى قبضته دون منازع، وما عليه بعد هذه الهوجة الرعناء إلَّا أنْ يفرغ للصليبيين، وقد فزع الفرنجة لِما تمَّ على أسرع مما لم يتوقعوه،

وكانت أنطاكية أكثر الإمارات فزعاً، إذ عرف أميرها أنه أصبح على مرمى قوس من صلاح الدين، وأن يومه قد حان، فبادر باسترضاء السلطان، وأرسل إليه جماعة من أسرى المسلمين، فأعطاه الأمان، ثم بادر مذعوراً بالاجتماع مع أمير طرابلس وملك بيت المقدس ليتفاهموا على ما ينبغى صنيعه، وقد خلت أكثر ربوع الشام لصلاح الدين ومعها مصر.

ومن ميزة القائد الحصيف أن يكون خبيراً بنفوس أعدائه، مُلمّاً باتِّجاهاتهم التى ينتَحونها، عن أسباب منطقية أو عاطفية تملك عليهم زمام التصرف فى الأزمات، وقد كان صلاح الدين بين هؤلاء الذين يدرسون خصومهم دراسةً واعية، تعتمد نتائجها على أدلة مُرَجِّحة تبعد عن الاحتمالات البعيدة، فملوك الفرنجة وأمراؤهم كانت سيرهم موضع تأمُّله الفاحص، وقد عرف منهم من يميل إلى السلام، فتمكن ملاينتُه ببعض ما يرضيه، ومن يجنح إلى الخصام لا عن قوة عاتية تُصبح ذخيرة له فى معركته، بل عن هَوَس غوغائى لا يرتكز على أصلٍ من أصول النظر.

ومن هؤلاء الملك الصليبى «ريجنالد» الذى عرفه العرب باسم «أرناط»، حيث لم يكن فى أصله غير انتهازى، ممن يصطنعون مظاهر الفردية دون أن يفهموا معناها الصحيح، وقد وجد فى الحرب الصليبية متنفَّساً لآمال بعيدة فى الثروة والجاه وسعة النفوذ. فهو فى أوروبا خاملٌ لا تشير إليه إصبع بمجادة، ولا يتحدث عنه لسانٌ بمكرمة، ولن يتاح له الظهور فى موطنٍ عرف منبته ومنشأه، فلْيهاجر مع المغامرين، فقد تُيَسِّرُ له الظروف أن يقود جماعةً من أمثاله، وقد تم له ذلك عن دسائس أحكمها،

ولكنّها لم تُبلغه ما يريد أمداً طويلاً، إذ دفعه تهوُّره إلى مهاجمةِ قافلةٍ عربية كقاطع طريق، وفيها من النساء والأطفال مَن عزَّ على أقاربهم أن يقعوا تحت أسره، فنشطوا إليه ثائرين، ولم يتحمل الصدمة الأولى فوقع أسيراً فى قبضة والى حلب، وظلّ فى الأسر سبعة عشر عاماً، لأنّ أحداً من ملوك الفرنجة لم يأبه له، ولم يَسْعَ إلى افتدائه، وذلك يدلّ على أنه فى نظرهم مغامرٌ أفّاق، سواء حُبس أو أطلق فلن يعود عليهم خيرٌ منه، بل ربما كان اعتقاله حاجزاً دون تهوّر يجلبه وحده، فيقع خطره على غيره.

وقد شاءت الظروف أن يطلَق مع جماعةٍ من أمثاله، لا ليعود إلى النهب الفوضوىّ فحسب، بل ليغرَّ امرأةً عجوزاً مات أبوها صاحب إمارة الأردن، وتطلعت لمن يرث إمارته عن طريقها، فتقدّم إليها أرناط فى شبابه واعتداده ودعاويه، فاختارته زوجاً، وفى غمضة عين صار مسيطراً على الأردن وما يتبعه من حصنى الكرك والشوبك، وقد توهّم أن انتقاله المفاجئ إلى إدارة الذّمّة فى الأردن جعله نظيراً لملك بيت المقدس وصاحبَى أنطاكية وطرابلس، وحين اجتمع هؤلاء معه بعد أن ضُمَّتْ حلب إلى صلاح الدين وأصبح رجلَ الموقف فى الشام، أبدى من نزعات التهوُّر ما جعل القوم من بنى جلدته ينزعجون من تهوُّره، ويعدُّونه مصدر خطرٍ عليهم جميعاً.

ومن ضِيقِ أفقه أنه حين خرج من الأسْرِ بعد سبعة عشر عاماً ظنّ أن الأمر فى القوة الإسلامية على ما كان قبل أسره، وهو جهْلٌ ساذجٌ لا يليق بمن يتصدَّر إمارة الأردن حاكماً بأمره، فقد كان الأمر مع صلاح الدين اليوم غيره مع نورالدين بالأمس، إذ لم تكن للمسلمين قيادةٌ جمعتهم

على رأى واحد، تحت زعامة بطل مفرد، وهذا يعنى فى أبسط أموره أنّ المسلمين جميعاً قد صاروا صفّاً واحداً أمام العدوان الصليبى، ومن يكره صلاح الدين زعامته لا يجرؤ على مخالفته أمام الرأى العام، وله فى كل يوم نصرٌ يتقدم به من موقعةٍ إلى موقعة!.

جهِل أرناط ذلك حين مثّل دور قاطع الطريق، فهاجم القوافل الآمنة التى توجّهت لحجّ بيت الله مهاجمة استئصال وإبادة، وانتهك الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين، وحين فزع الحجّاجُ صارخين، وألقوا المقادة إلى الاستشهاد مُرغمين، ظنّ أنه انتصر فى معركة حربية، وتقدّم بجيوشه زاحفاً فى الصحراء إلى تيماء معلناً فى أشنع ضروب الوقاحة أنه سينتهى إلى المدينة المنورة، ليحرق جثة رسول الله!! (نستغفر الله) وهو إعلانٌ وقحٌ كان من أثره الفورى أن اتّجه البطل فروخ شاه - حاكم دمشق وابن أخى صلاح الدين - إلى الأردن، فكسب النصر على نحو ما ألمحنا إليه من قبل.

لقد كان هذا الاعتداء الظالم على الآمنين من الحجاج، ثم ما تبعه من إعلان الاتّجاه إلى المدينة المنورة مصدر فزع للمسلمين جميعاً، حيث رأوا من الضرورى أن تجتمع كلمتهم تحت راية واحدة منذ الآن، وتحوّل الشعور الإسلامى إلى غضب هادر، فتلاحقت الوفود من شتّى الأصقاع إلى صلاح الدين، وأدرك ملكُ القدس أن خرق الهدنة على يد أرناط سيعجل باشتعال المعركة، فبعث إلى السلطان متبرئاً مما صنع أرناط، فجاء ردُّ صلاح الدين مطالباً ملك بيت المقدس أن يُسرع بردّ كل ما استولى عليه

أرناط من أسرى المسلمين وأموالهم دون إبطاء، فذهب الملك وَجلاً إلى أرناط، يوضِّح له سرعة الهجوم القادم، فجعل يهزأ به ويرميه بالضعف والخَرَف، ويؤكد عزمه على الذهاب إلى المدينة المنوّرة.

وكانت عدة سفن صليبيَّة قد اتَّجهت إلى فلسطين من أوروبا فقذف بها هواء البحر العاصف إلى شواطئ دمياط، وبها نحوٌ من ألفين وخمسمئة حاجّ ينوون الإقامة ببيت المقدس، فبادر صلاح الدين باعتقالهم، مُصدراً أمره إلى أخيه العادل بالقاهرة كى يتم الأمر على أسرع وجه، ليكون ذلك ردّاً على ما قام به أرناط نحو الحجاج من المسلمين! ولكن شتّان بين صنيعٍ وصنيع، فالملك الغاشم قد أعمل السيف فى أكثرَ مَن كان بالسفن الإسلامية، والسلطان المترفع لم يعمل سيفاً مع حاجّ أعزل، ولكن اكتفى بالأسر، ليكون المأسورون تحت يده فيفتدى بهم أسرى المسلمين.

تأهَّب صلاح الدين لردِّ الاعتداء بنفسه، بعد أن نجح قائد الأسطول المصرى حسام الدين لؤلؤ فى هزيمة أرناط، حيث تتبَّعه فى سيره نحو المدينة، إذ داهم سُفنه وأوقع به الهزيمة على نحو ما تحدَّثنا عنه من قبل موجزاً، وما سيطالعه القارئ فى فصلٍ تالٍ عن أمير البحر، وجهاده الباسل مفصّلاً.

فأمر صلاح الدين بالاستعداد لمعاقبة أرناط فى عقر داره، وكان قد حلف فى ثورته أن يقتله بسيفه حين جاءته سفاهته عن رسول الله ﷺ، ورأى هذا القسم نذراً شرعيّاً لابد أن يقوم بأدائه، ليعلم من يجهل أنّ نبىّ الله فى يثرب محاط بعناية ربّه، قبل أن يحاط برعاية أوليائه من المسلمين، فَعَبر السلطانُ نهر الأردن، ونازلَ جيوش الفرنجة فى مواقع حاسمة بعثتهم

على الفرار مذعورين، وقد التقتْ كتائبه بكتائب ابن أخيه فروخ شاه، فأغاروا معاً على إقليم الغوْر حول بيسان، ثم على بيسان نفسها حين قُهرت مدحورة، ولم يلتقط البطل أنفاسه، فاتجه إلى مهاجمة حصن الكوكب وهو من أمنع حصون الصليبيين، فاشتد القتال حوله، وتم النصر لجنود صلاح الدين، ولكن بعد استشهاد جماعة من الأبطال.

ورأى صلاح الدين أن يفصل بين إمارتى طرابلس وأنطاكية، بالاستيلاء على بيروت، فاتجه إليها وحاصرها حصاراً محكماً من ناحيتى البر والبحر، ولكنّها لم تستسلم، ووجد صلاح الدين مقاومةً أنذرته بأنّ أمد الحصار سيطول، فرأى أن يتركها مكتفياً ممن وقع من الأسرى حولها، وما جَمَعَ من الغنائم الكثيرة من أرباضها.. وقد اطمأن إلى منازلتها فى وقتٍ قادم حين جادته الأنباء بمرض «بلدوين الرابع ملك بيت المقدس» مرضاً منعه من مباشرة حكمه، فعيَّن صهره «جاى لوزجنان» نائباً عنه، ولم تكن له تؤده «بلدوين»، فأراد أن يضرب مثالاً لشجاعته أمام الفرنجة فزحف إلى قرية «الفولة» بالقرب منْ عين جالوت التى سيدوّى حديثها بعد سنوات فى انكسار التتار.

وأدرك صلاح الدين أن الوصى الجديد يستعرض شجاعته، فأراد أن يعطيه درساً لا ينساه، وزحف للقائه بجيشٍ يفوق جيشه، وجاءت الأنباء إلى «جاى لوزجنان» فأدركه الفزع بغتةً، ونسى حماسه العنترى حين أعلن أنه سيتجه إلى دمشق، ليسقط صلاح الدين فى عرينه، نسى ذلك وفرّ هارباً، ورأى صلاح الدين أن يحتفظ بجيشه لمعركة أشد خطراً، إذ أنّ أمر

لوزجنان – وقد شاهد فراره الجبان – أصبح لا يعنيه.

لقد كان حجّاج بيت الله الحرام فى فزع من فظائع أرناط، وقد مدّوا أيديهم بالدعاء إلى الله كى يكشف عنهم كربَ هذا السفّاح اللجوج، فجاءتهم الأنباء بانتصار حسام الدين لؤلؤ، وقد قدِم بنفسه إلى موسم الحج ومعه بعض الأسرى الذين قاوموه من قبل، فأعمل فيهم السيف بمشهدٍ من الذين فزعوا من الهول من قبل، ليكونوا عبرةً لمن تسوّل له نفسه أن يعتدى على زوّار بيت الله! بل كان ذلك جواباً حاسماً لأرناط يُريه عاقبة شرّه، وقد أقسم صلاح الدين على أن يصرعه بسيفه! وكأنّى به وقد ظنَّ البطلَ الإسلامى ممن يستهين بيمينه أمام الناس، فظنّ الأمر مجرد تخويف!.

لقدْ أخذ صلاح الدين يفكر فى مأساة الحجاج العزّل على يد قاطع الطريق، فحاصر الكرك زمناً طويلاً، غير أن النجدات الأوروبية المتوالية قد ساعدت على مقاومة الفرنجة، وتدبَّر البطل الموقف، فرأى أن الكرك ستسقط فعلاً حين تسقط الإمارات العملاقة من حولها، فلابدّ أن يستأصل رأس الأفعى أولاً.. وهذا ما سيكون.

❊❊❊

شبهات تحاك دُونَ إمْهَال

ما أكثر أن تُساق الأحكام من غير رويّة، وما أسهل أن يقرأ دارسٌ خبراً عن عظيم لمْ يحْظَ شاعرٌ عنده بما يؤمل، أو سدَّ بابه فى وجه أديب، فيجعل من ذلك حكماً عامّاً على اتجاهه.. وبصمُه بمحاربة ذوى الآداب، وأولى الفكر!

إننا نعرف أن ظروفَ صلاح الدين لم تكنْ تسمح له بتفريق الهبات على الشعراء والمادحين من ذوى التكسُّب ممن يمدحون الإنسان ويذمّون عدوّه، ثم لا يمشى أمد قصير حتى تتبدَّل بهم الحال فيمدحوا من هجوه، ويهجوا من مدحوه، نعرف ذلك فى تاريخ مئات الشعراء، ثم لا نزنُ الأمور بميزانها الصحيح حين نحكم على صلاح الدين بعدم الاحتفاء بشعراء دولته!.

إنّ الرجل كان يضيّق على شعبه ليجمع ما يستطيع أن ينهض به من تجهيز الأساطيل، وإعداد المؤن الحربية، وتقوية الكتائب المجاهدة! أفيُنتظر منه وقد جمع الدرهم قبل الدينار من مواطنيه، أن يكون مِتلافاً لما جمع، مُبذّراً ما لديه فى عطايا الشعراء، وهبات الوافدين! لنْ يكون صلاح الدين زعيم المجاهدين إذا صرف وجهته عن التعْبئة الحربية مسترضياً أناساً يعرف أنهم يقولون ما لا يفعلون!

❊❊❊

(7)
الناصر صلاح الدين فى بلاد الشام

أولاً: الحالة فى الشام وفاة نورالدين:

لقد توفى (نورالدين) وترك ملكه إلى ولده الملك الصالح إسماعيل، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك إلا الحادية عشرة، فتولى وصايته وتدبير ملكه شمس الدين ابن المقدم، فأخذ الأمراء النوريون فى الشام يتنافسون، كل منهم يعمل على إضعاف الآخر، والكيد له، والإيقاع به، والملك الصغير لا يدرى من الأمر شيئًا، بل كان ألعوبة فى يد أولئك الأمراء الذين كانوا يتصارعون للوصول إلى الحكم، وتحقيق مآربهم الشخصية.

نهض سيف الدين ابن عم الملك الصالح، وصاحب الموصل، واستولى على ما كان لنورالدين من البلاد فى أرض الجزيرة وركن الأمراء الآخرون إلى الاستقلال بما فى أيديهم من الولايات، ولجأ البعض الآخر إلى مهادنة الفرنج ليتقووا بهم ضد الأمراء الاخرين، وهكذا وصلت البلاد إلى حالة يرثى لها من التفرق والانقسام والصراع على الحكم، وكأن الأقدار هيأت صلاح الدين لينقذ البلاد من هذا الانقسام الشائن والتفرقة الممقوتة.

ثانيًا: مراسلة الدمشقيين لصلاح الدين الأيوبى:

كان صلاح الدين الأيوبى على علم بما يجرى فى بلاد الشام من فوضى وصراع وقلاقل، وكان يرقب الأحداث مراقبة دقيقة، كان ينتظر الفرصة

الملائمة للتدخل، وكان من سياسته أن لا يثير غضب أهل الشام عليه فى تدخل غير ملائم خشية أن يقفوا ضده، ويعرقلوا أعماله، ولهذا كان على الدوام يكتب إلى الملك الصالح إسماعيل فيظهر له خضوعه وولاءه، فضرب النقود باسمه وخطب له على المنبر، وبالتالى أظهر للشاميين شدة خوفه على مصالح الملك الصغير ابن سيده وأستاذه وصاحب نعمته.

وعندما علم الدمشقيون أن سيف الدين استولى على بلاد الجزيرة ليستقل بها، وأن شمس الدين ابن المقدم وصي الملك الصغير قد هادن مملكة بيت المقدس الصليبية واصطلح معها، وأن الأمراء النوريين أصبحوا يتنافسون على الحكم للوصول إلى أغراضهم الشخصية، فلم يجدوا بدا سوى أن يراسلوا صلاح الدين لإنقاذ الموقف، والحد من استمرار الموقف والفتن التى سادت البلاد الشامية، بل طلبوا إليه أن يحضر بنفسه، ويتولى الأمور بشخصه لينقذ البلاد من خطر داهم، وشر محدق، وبلاء عظيم.. وهذا ما كان!.

ثالثا: توجه صلاح الدين إلى دمشق:

ما كان لصلاح الدين أن يتمنى أكثر من هذه الدعوة لتكون مبررًا له عند أهل الشام فى تدخله فى شؤون البلاد، فلم يتأخر لحظة واحدة، بل أسرع بالمسير، فاخترق الصحراء دون أن يكترث بوجود الفرنج بينه وبين دمشق ثقة بالله وبنفسه، واعتمادًا منه على قوته.

ترك صلاح الدين مصر فوصل بصرى وقابله أميرها بالترحاب والتكريم، وبعدها رحل إلى دمشق فوصلها فى شهر ربيع الأول عام 570هـ1174م،

ودخل دار أبيه وجلس فيها قليلاً حتى سلمت له القلعة، فذهب إليها واستولى على ما فيها من الأموال والكنوز، ولم يفكر صلاح الدين فى يوم من الأيام أن يجعل السلطة أداة استغلال لجمع الأموال وتكديس الثروات، والانغماس فى الترف والنعيم، بل عاش عيشة الكفاف، ومات ولم يكن عنده شىء من المال كما سترى فى فصل المناقب والصفات إن شاء الله.

ولكن ماذا فعل صلاح الدين بهذه الأموال والكنوز التى حصل عليها وأصبحت فى حوزته؟ إنه وزعها على الفقراء والمستحقين ليحقق فى المجتمع مبادئ العدالة الاجتماعية ويقضى على الجهل والفقر والمرض.. بما يتفق مع عدل الإسلام وتعاليم القرآن.

ولقد خرجت الوفود الشعبية فى مواكبها الفخمة تعبر عن فرحتها الكبرى ابتهاجًا بدخول من تعقد عليه الآمال العريضة فى توحيد البلاد وتحرير بيت المقدس، وترسيخ الكيان الإسلامى فى العالم كله.

وقد أقبل الشعراء يحركون همسه للجهاد، ويثيرون حميته للنصر المرتقب، ومن ذلك قول (وجيش الأسدى):

قد جاءك النصر والتوفيق واصطحبا ... فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا

لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا

رأيت جلق ثغرًا لا نظير له ... فجئتها عامرًا منها الذى خربا

نادتك بالذل لما قَلَّ ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا

أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ... أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا

هذا الذى نصر الإسلام فاتضحت ... سبيله وأهان الكفر والصلبا

يستكثر المدح يتلى فى مكارمه   زهدًا ويستصغر الدنيا إذا وهبا
والشام لو لم يدرك أهله اندثرت   آثـاره وعفت آياته حقبا

وجلس صلاح الدين فى دار العدل بدمشق يرفع المظالم، ويعيد الحقوق إلى أصحابها، ويبطل ما كان الولاة قد استجدوه من الضرائب غير العادلة، فوقف (سعادة بن عبدالله) يسجل له سهره على العدالة، ويدعو بدوام التوفيق ويقول:

فى دار عدل مذ طلعت بأفقها   بدرًا جلوت الظلم عن سكانها
فبقيت معتصبا بتاج بهائها   فى دست مجلسها وفى إيوانها
ما أصبحت أيدى الرعية تجنى   عفوًا ثمار الأمن من بستانها

وبعد أن رسخت قدم صلاح الدين فى دمشق ذهب يؤكد في مكاتباته ومحادثاته المرة تلو المرة أنه ما جاء إلى بلاد الشام إلا لنصرة ابن سيده الملك الصالح إسماعيل، ومن ذلك ما قاله لرسول حلب بعد امتلاكه دمشق: يا هذا!.. اعلم أننى ماو صلتِ إلى الشام إلا لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسد الثغور وتربية ولد نورالدين، وكف عادية المعتدين.

رابعًا: استيلاء صلاح الدين على حمص وحماة وحلب:

وبعد أن انتهى صلاح الدين من فتح دمشق أقام فيها قليلا بعد أن أصلح ما فسد فيها، ورتب شؤونها وسلمها إلى أخيه (سيف الإسلام طغتكين)، ثم انحدر منها إلى حمص ففتحها دون قلعتها فترك من يحاصرها، ويحمى

المدينة، ويدبر شؤونها، ثم سار إلى حماه، وكان الوالى عليها (عزالدين جورديك) أحد أولئك الذين كانوا معه فى الحملة الثالثة على مصر، امتنع والى حماه أولا عن الاستسلام، ولكن صلاح الدين أعلم الوالى (جورديك) أنه جاء ليحفظ البلاد من الفرنج ويسترد ما استولى عليه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد فى الجزيرة وأنه فى طاعة الملك الصالح إسماعيل، فاقتنع والى حماه من كلامه، فسلمه حماه، ثم قبل جورديك أن يكون رسولا لصلاح الدين إلى (سعد الدين كمشتكين) صاحب حلب.

وسعدالدين هذا هو الذى اغتصب ولاية حلب من حاكمها الأصلى (شمس الدين ابن الداية) واستلم مكانه، وأودع (ابن الداية) وأولاده وغيرهم من الأمراء السجن ثم انحاز إلى الفرنج ليتقوى بهم.

فلما أن أرسل صلاح الدين رسوله (جورديك) إلى (سعدالدين كمشتكين) مغتصب الولاية الحلبية من (ابن الداية) أوصاه أن يطلب منه فك الأسرى، وإطلاق سراح ابن الداية، وما أن وصل (جورديك) إلى حلب وأخبر (كمشتكين) برسالة صلاح الدين حتى أودعه السجن مع ابن الداية فأصبح من المسجونين، ولاشك أن (كمشتكين) هذا سيحمل مسئولية عمله، وأن صلاح الدين سيكون له بالمرصاد، وسوف يتوجه إليه ليحاسبه على ما جنت يداه فى حق من أودعهم السجن ظلمًا وعدوانًا.

ولكن (كمشتكين) لم يقف عند هذا الحد، فأرسل إلى شيخ طائفة

الإسماعيلية[1] (راشد الدين سنان) المتمركز (بمصياف) أرسل إليه رسولا يطلب النصرة والمؤازرة، فأرسل (راشد الدين سنان) جماعة تغتال صلاح الدين، فلحقوا به وهو معسكر بتل (جوشن) مكان مدينة سيف الدين فى غربى حلب الحالية، وحاولوا أن يصلوا إلى خيمته فلم يتمكنوا، وردهم العسكر بعد قتال سقط فيه قتلى من الجانبين، ثم حدث اعتداء آخر من قبل هذه الطائفة الخبيثة، فبينما كان صلاح الدين يدخل (عزاز) التابعة لإقليم حلب سنة 571هـ دخل -فدائيوهم- كعادتهم إلى خيمته، وقد أحكموا هذه المرة أمرهم، وكانوا ثلاثة، ودخلوا فى زى حراس صلاح الدين وجنده، وما كاد الأول يدخل حتى وثب على صلاح الدين غير هائب من جند ولا سلاح فضرب رأسه بسكين كادت تقضى عليه لولا الدروع التى كان يرتديها فوقاه الله منهم، وحبطت مؤامرتهم، ونشبت معركة بين فدائيي الإسماعيلية وحراس السلطان وجرح بعضهم بعضا بالمدى والخناجر، ثم ثار العسكر كله ودهمهم الجند ففروا، وأخذ يتبعهم ويقتل من يلحق به منهم.

وقد بيت لهم السلطان نية الثأر، فحين عاد من حلب فى العام التالى مال إلى قلعتهم فى مصياف غربى حماة، ونصب عليها المنجنيق وأوسعهم قتلا

---

(1) يقول الإمام الغزالى فى رسالة (فضائح الباطنية عن مبادئ الإسماعيلية): إن مذهبهم ظاهره الرفض (أى التشيع) وباطنه الكفر المحض،ن والمنقول عنهم: الإباحة المظلمة، ورفع الحجاب، واستباحة المحرمات، وإنكار الشرائع إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم (وينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق).

وأسرًا، وساق أمامه ما نهبوه من دواب الناس وأموالهم وخرب ديارهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

فلما خاب (كمشتكين) فى متمناه هذا عمد إلى ناحية الفرنج ليستعين بهم على قتال صلاح الدين، فأرسل الفرنج جيشًا بقيادة (ريموند الثالث) وفورًا فك صلاح الدين حصار حلب، وتوجه إلى قتال الفرنج جهة حمص، ولكن الفرنج لما علموا أن صلاح الدين يقصدهم عادوا من حيث أتوا، فسار إلى دمشق واستولى فى طريقه على (بعلبك).

ومن المصاعب التى واجهت صلاح الدين فى هذه المرحلة: تألب أمراء النوريين ضده، وانقلابهم عليه، وذلك للأسباب التالية:

نظر الملك الصالح وأتباعه من الأمراء النوريين إلى ما وصل إليه أمر صلاح الدين، وما استولى عليه من البلاد الشامية، فخافوا أن يتمكن أكثر، ويصبح الأمر إليه، فراسلوا (سيف الدين غازى) صاحب الموصل وطلبوا منه أن يقدم المساعدة لابن عمه الملك الصالح، وفى الحال قام بتجنيد الجنود، وجمّع الذخيرة والمؤن، وواصل السير بها حتى اجتمع بابن عمه الملك الصالح، وانضم جيشه إلى جيش حلب وقصدوا جميعا صلاح الدين، ولكن صلاح الدين أراد فى أول الأمر أن يعالج الأمور بالحكمة.

فراسلهم فى الصلح ورغبهم فيه حقن دماء المسلمين، وحتى لا يتخذ الفرنج من هذا النزاع سبيلاً إلى إثارة الفتنة، ومن العروض التى قدمها لهم للصلح تسليمه كل البلاد التى استولى عليها، على أن يبقى فى دمشق نائبًا

للملك الصالح فيها، فأبوا عليه إلا أن يسلم كل ما بيده، ويعود إلى مصر فورًا، فلم يجد بدًا بعد رفضهم لهذه العروض سوى أن ينازلهم ويقف في وجوههم.

فتجهز لهم وخرج يقصدهم، فنازلهم بالقرب من حماه، وانتصر عليهم يوم التاسع من رمضان عام 570هانتصارًا حاسمًا حتى أصبح الواحد منهم لا يلوى على أخيه من شدة فزعه وخوفه، ومازالوا في الفرار وهو من ورائهم يستولى على أثقالهم حتى دخلوا حلب فحاصرهم بها، وبعد هذه الهزيمة عاد (سيف الدين) إلى بلده (الموصل) يستعد ثانية لقتال صلاح الدين، ولكن صلاح الدين لحق به، وتقابلا في مكان يعرف (بتل السلطان)، وانتصر جنود صلاح الدين على صاحب الموصل انتصارًا باهرًا، وقد أسر عدد كبير من جنود الموصل، ووقعت غنائمهم كلها في قبضة صلاح الدين.

أما صلاح الدين فإنه سار بما غنم إلى (بزاعة) وتسلم قلعتها، ثم سار إلى (منبج) واستولى عليها، ثم قصد قلعة (عزاز) فضيق عليها الحصار حتى استسلمت له، ثم توجه مسرعًا إلى حلب ثانية يريد الاستيلاء عليها، وفي أثناء حصاره لحلب خرجت له ابنة نورالدين وأخت الملك الصالح وكانت صغيرة السن، فقابلها صلاح الدين بالحفاوة والإكرام، وأعطاها من المال والهدايا الثمينة الشيء الكثير، وسألها عما يطلبه قومها فقالت: إنهم يريدون (عزاز) فوهبها لهم وردها إلى حلب بما يليق بمقام أبيها من التجلة والاحترام إذ أوصلها بنفسه إلى أسوار المدينة.

لما رأى الملك الصالح شدة حصار المدينة اتفقت كلمته مع قومه على قبول الصلح على أن تكون البلاد التي افتتحها صلاح الدين بيده

وتحت حكمه، وبموجب هذا الصلح أصبح صلاح الدين سيدًا على دمشق وحمص وحماه والمعرة، وما قارب هذه البلاد من المدن الصغيرة والقلاع، ولم يكن للملك الصالح سوى حلب وما قاربها.

وبعد هذا الصلح رجع صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أمرها، وينظم أمورها، وكان ذلك سنة 576هـ، ولم يكد صلاح الدين يرجع إلى مصر حتى وفاه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل وله من العمر 19 سنة، وأوصى أن يكون الملك من بعده لابن عمه (عزالدين مسعود) والى الموصل إذ ذاك، وبلغ (عزالدين مسعود)، وصية الملك الصالح فغادر فورًا الموصل إلى حلب ليتسلم زمام الملك هناك، وما كاد يطيب له المكان حتى كتب له أخوه (عماد الدين) والى (سنجار) فى أن يستبدل (عزالدين مسعود) سنجار بحلب، فأجابه إلى ما طلب، فرحل (عماد الدين) إلى حلب وتسلمها منه، وسلم سنجار إلى أخيه (عزالدين مسعود) وكان ذلك فى 13 محرم عام 578هـ.

وأخيرًا استطاع صلاح الدين أن يخضع لحكمه عماد الدين فتم له فتح المدينة، ودخل صلاح الدين حلب بين فرح الأهالى وسرورهم، وابتهاج الناس وحفاوتهم، وكان ذلك يوم 17 صفر سنة 579هـ.

وأخذ الشعراء والخطباء يشيدون بفضله ويعدون مآثره الكريمة، وبطولاته الخالدة، ومن عجيب ما وقع أن (محيى الدين بن الزكى) قاضى دمشق مدح السلطان بقصيدة جاء فيها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

وقد اتفق أن تم فتح القدس في رجب بعد أربع سنوات من تاريخ فتح حلب.

ومن هؤلاء الذين هنأوا السلطان بفتح حلب (يوسف البراعي) الذي أنشد قصيدة قال منها:

شرفت بسامي مجدك الشهباء وتجللتها بهجة وضياء

ألقت إليك قيادها وبها على كل الملوك ترفع وإباء

وخلاصة القول: إن صلاح الدين أخذ في ذلك النور الذي أقامه في بلاد الشام ببذل كل ما في وسعه لمواجهة القوى الثلاث، مؤامرات الإسماعيلية، وقوى الإفرنج، وتألب أمراء النوريين.. هذه القوى جميعا تحالفت ضده لتحول بينه وبين تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر، فلقد رأينا أن صلاح الدين قد تغلب على كل هذه القوى جميعا بما أعطاه الله من حكمة، وما وهبه من قوة وعزم ومضاء.

***

الناصر صلاح الدين
وتوحيد العالم الإسلامى

كان صلاح الدين الأيوبى قائدًا عسكريًا فذًا وكان يعلم ويدرك تماما أن الاتحاد قوة لذا كان هدفه الأول هو توحيد البلاد تحت إمرته وبالفعل هذا ما تم فعلا وفى السطور التالية نوجز لأهم الخطوات التى قام بها صلاح الدين الأيوبى فى هذا المجال:

أولاً: منذ أن توفى السلطان نورالدين تهيأت للبطل صلاح الدين الفرص المواتية لتوحيد العالم الإسلامى تحت لوائه وإمرته، واستطاع بفضل موهبته العسكرية، وخبرته الحربية والسياسية أن يوحد البلاد الواحد تلو الآخر، فقد كانت الطوائف فى اليمن تتصارع فى عهد صلاح الدين، وتقتتل قتالاً مريرًا مما عرض الوحدة الإسلامية للتفكك والتمزق، فكانت الحمدانية فى (صنعاء) والنجاحية فى(زبيد) تتنازعان على الحكم، كما ظهر دعى كاذب زعم أنه (المهدى المنتظر)، فأحدث بعض القلاقل والاضطراب فى بلاد اليمن، فانتشرت المذابح، وعمت الفوضى وسادت الفتن، فعز على صلاح الدين أن يرى الشعب المسلم يقتل بعضه بعضًا، وتكيد الطائفة للطائفة الأخرى فأرسل أخاه توران شاه إلى بلاد اليمن

لتخليصها من هذه الفتن التى ضربت أطنابها، ودبت فى طول البلاد وعرضها، ليضمها إلى مصر والشام تحت إمرة واحدة.

ثانيًا: سار توران شاه بجنده على طريق النيل حتى وصل إلى مدينة (قوص)، ثم سار برّا حتى بلغ ساحل البحر الأحمر، ثم أبحر حتى وصل (جدة)، وبعدها وصل إلى اليمن، وتوغل فى أرضها واستولى على مقاطعة (زبيد) وعلى بعض الحصون الأخرى، ويذكر بعض المؤرخين أنه فتح وحده ما ينوف عن ثمانين حصنًا ومدينة باليمن وبظهر أن اليمنيين ارتاحوا إلى مجيئه لما كان يعانيه اليمن من الفوضى والاضطراب، بل كان اليمنيون أنفسهم يسهلون للقائد توران شاه أمر فتحها، فكان نواب القلاع يرسلون إليه مفاتيحها حقنا للدماء ورغبة فى الاستقرار، ولما تم له فتح اليمن استشار (توران شاه) أصحابه وخاصته فى اختيار المكان المناسب ليتخذه موطنًا له ولجنده فوقع الاختيار على مدينة (تعز) فاتخذها مستقرّا وموطنًا.

ثالثًا: وما أن تم فتح اليمن حتى ولى صلاح الدين عليها أخاه (توران شاه)، ثم أخاه (طغتكين بن أيوب) الذى بقىَ فيها حتى مات سنة 593هـ وتولى ولاة الأيوبيين على اليمن ما يقارب أكثر من ثمانين عامًا من عام 569هـ حتى عام 652هـ.

رابعًا: وفى العام الذى تم فيه فتح اليمن استطاع صلاح الدين أن يفتح برقة وطرابلس، والجزء الشرقى من تونس الحالية، إلى قابس وكان ذلك عام 569هـ.

خامسًا: وفى عام 579هـ استدعى صلاح الدين أخاه (الملك العادل) لحضور المؤتمر الإسلامى الذى تم عقده فى دمشق لسفراء الأمراء المسلمين، ومنهم شيخ الشيوخ (صدرالدين)، و(شهاب الدين بشير) رسولا الخليفة الناصر لدين الله العباسي، والقاضى (محيى الدين الشهرزورى)، و(بهاء الدين بن شداد) سفير صاحب الموصل، وسفير (معز الدين سنجر) صاحب الجزيرة، وغيرهم كثير من السفراء.. وقد حاول صلاح الدين فى هذا المؤتمر أن يقطع دابر الخلاف بين أمراء المسلمين، وأن يقيم بينهم الأخوة والوئام.. وقد اجتمعت كلمتهم على الاتحاد، ولم يشذ فى هذا الاجتماع سوى مندوب (الموصل) الذى دارت بينه وبين صلاح الدين مناقشات حادة لم تأت بالنتيجة المرجوة.

سادسًا: ولما لم يستجب صاحب الموصل إلى الانضواء تحت راية الأخوة الإسلامية اضطر صلاح الدين أن يحمل السلاح لردع صاحب الموصل، ورده إلى الحق والرشد، فتقدمت جيوش صلاح الدين إلي الموصل فحاصرتها، فرضخ (عزالدين) صاحب الموصل وتم الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة 581هبمقضتى (معاهدة حران) على أن يسلم (عزالدين) صاحب الموصل إلى صلاح الدين (شهرزور) وأعمالها، وولاية (القرابلى) وجميع ما وراء نهر الزاب من أعمال ولاية (تفجاك) وأن يتخلى صلاح الدين عن الموصل على أن تكون الخطبة والنقود باسم صلاح الدين، وأن يخضع (عزالدين) صاحب الموصل لسياسة صلاح الدين.

ويقول ابن واصل فى كتابه (مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب)، إن

صلاح الدين استطاع بعد (معاهدة حران) أن يحشد عساكر الموصل، وسنجار والجزيرة، وأربل، وحران وديار بكر وغيرها تحت لواء واحد، بعدما كانت شيعًا وأحزابًا.

سابعًا: ومن الأمور التي عمد إليها صلاح الدين في هذا الدور مراسلته للخليفة العباسي (المستضيء)، فكتب إليه وزيره (القاضي الفاضل) كتابا يذكر به ما لصلاح الدين على الخلافة في بغداد من مآثر كبيرة بجهاد العدو وفتح مصر واليمن وإفريقيا، وإقامة الخطبة العباسية، وطلب تقليدًا جامعًا لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشمل عليه الدولة النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره، ولمن يقيمه من أخ أو ولد بعده، فأجابه (المستضيء) لما أراد، وأرسل إليه وفدًا بالتقليد بما شاء من الولايات، وأفاض الخلع والهدايا على الوفد وعلى أقرباء السلطان.

ثامنًا: تبين من الذي قدمانه آنفًا أن البلاد التي وحدها صلاح الدين أصبحت ممتدة الأطراف، واسعة الأرجاء، فقد كان سلطانه ينشر أجنحته على جهات كثيرة من الرملة إلى حوض النيل، ويمتد ظله فيعم سواحل أفريقيا الشمالية حتى طرابلس، وأخضع بلاد اليمن وعدن، واستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة (قابس)، وخطب له على المنابر في هذه الجهات كلها.

وإذا أضفنا إلى ملكه مصر والشام وشمال العراق فتصبح البلاد التي تحت إمرة السلطان صلاح الدين شاملة لشمال العراق (كردستان) والشام

واليمن ومصر والمغرب وسواحل أفريقيا الشمالية.

ولاشك أن الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها عقدت أملها الأكبر على البطل صلاح الدين واستبشرت خيرًا فى تحقيق وحدة المسلمين على يديه، ولقد حان الانقضاض - بعد هذه الوحدة المتراصة - على دولة الصليبيين فى القدس، وجعلها أثرًا بعد عين فى معركة حاسمة لها فى التاريخ دوي وفى الأجيال افتخار وإعجاب.

تاسعًا: وقد رأى الشعراء أن فى توحيد صلاح الدين للبلاد تحت حكمه صلاحا للبلاد، وعزّا للإسلام، بعد أن شقيت هذه البلاد بحكام لا يصلحون لتدبير الملك، ولا لإدارة شؤون الرعية، يصف ذلك ابن سناء الملك فيقول:

ممالك لم يدبرها مدبرها إلا برأى خصى أو بعقل صبى

حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحت من الوصب[1]

ويرون فى هذه الفتوح، وتوحيد كلمة البلاد تمهيدًا لفتح القدس، وتحريرها من الضليبية الحاقدة اللئيمة، ونصر كلمة الإسلام، فهذا الفتح به تتم الفتوح، وهو لها الغاية والأمل والسيادة الكاملة.

***

(1) الوصب: المرض.

(8)

معركة حطين

(17 ربيع الآخر سنة 583هـ)

ظل اسم القائد البطل الناصر صلاح الدين مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمعركة حطين والتى حطم فيها غرور الصليبيين الغزاة واستطاع بعدها استرداد بيت المقدس.

1 - الأسباب المباشرة لمعركة حطين:

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين استطاع أن يكوِّن مملكة عظيمة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام، ومصر، وبرقة.. وأنه يعد العدة لأجل أن يغزو الفرنج، ويستخلص من أيديهم بيت المقدس، والبلاد التى كانت خاضعة لحكمهم وسلطانهم، وكان ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليهم، وتلقينهم درسًا لا ينسونه أبدًا.. للفظائع التى ارتكبوها، والجرائم التى أحدثوها فى بيت المقدس والمسجد الأقصى.

ولقد حانت الفرصة للانتقام لما اعتدى (أرناط) أمير (الكرك) على قافلة تجارية لصلاح الدين سنة 582هـ وإمارة الكرك هذه واقعة بين البلاد الشامية، والبلاد المصرية، وكان بين صلاح الدين وبين هذه الإمارة هدنة ومسالمة، وكان من بنود الهدنة السماح للقوافل الإسلامية بالانتقال من

مصر إلى الشام أو العكس فى سلامة وأمن.

وكان من نتيجة اعتداء (أرناط) على القافلة الإسلامية مصادرة الأموال وأسر الرجال، ويروى المؤرخون أن قافلة المسلمين لما وقعت فى قبضة الصليبى صاحب الكرك استهان بالدين الإسلامى، وبالنبى عليه الصلاة والسلام، وقال للأسرى: (إن كنتم تعتقدون فى محمد فادعوه الآن يفك أسركم، ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه) فنمى هذا إلى السلطان صلاح الدين، فغضب غضبًا شديدًا وحلف لئن أسره ليقتلنه بيده، وحقا بر السلطان فى قسمه كما سنرى، وكان هذا الاعتداء من قبيل الإفرنج الشرارة الأولى لاندلاع الحروب التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين والتى أذاقهم فيها كئوس العذاب والردى، بل ذاع اسمه فى أوروبا وتناقلته ألسنة الأمهات ليخوفن أبناءهن باسم صلاح الدين، مع العلم أن هذا البطل عامل الأسرى والنساء والأطفال معاملة حسنة مما يعد مفخرة للتاريخ، وقدوة للأجيال.

2 - معركة حطين وفتح بيت المقدس:

وبعد هذا الاعتداء الفاضح أخذ السلطان صلاح الدين يعد العدة ويجمع الجيوش، ويهيىء كتائب المجاهدين ليوقع النكال الشديد بالإفرنج قاطبة، ويسترد أرض الإسراء، ومهبط النبوات ما وجد لذلك من سبيل.

كان هذا الوقت وقت أوبة حجاج المسلمين، فتأهب صاحب الكرك إلى اقتناصهم والاعتداء عليهم وهم راجعون، واستعد صلاح الدين لحمايتهم بعد أن أعلن الجهاد فى كل بلاده، وعسكر فى (قصر السلامة)

بالقرب من (بصرى) وظل فيها حتى مر الحجاج المسلمون بسلام آمنين مطمئنين، ودعا الحجاج للسلطان صلاح الدين بالنصر والغلبة على قوم لا هم لهم إلا نكث العهود، ونقض المواثيق، أعماهم التعصب والحقد، وأغلظ قلوبهم الجهل والعداوة فأوقعهم فى شر ما يصنعون.

وبعد أن جمع صلاح الدين الجموع، ونظم الجيوش عقد مجلس شوراه للتشاور فى منازلة العدو، وتوقيت المعركة فاتفقوا على الخروج فى 17 ربيع الآخر سنة 583هبعد صلاة الجمعة بين تكبير المسلمين وابتهالهم، وتضرعهم بالدعاء.

خرج صلاح الدين من دمشق، ولما وصل رأس الماء جعله مركزًا لاجتماع الجيوش، وبقى ولده (الملك الأفضل) برأس الماء وسار هو إلى بصرى، وسار (مظفر الدين كوكبرى) إلى عكا، ومن بصرى توجه صلاح الدين إلى حصن (الكرك والشوبك) ثم عاد إلى (طبرية) ولم يأل جهدًا رحمه الله فى استنفار المسلمين، واستنهاض هممهم للجهاد المقدس فى سبيل الله، وكان إذا رآه من رآه، لا يراه إلا مهتما مغتما تعلوه كآبة الحزن والأسى.. بل كان عزوفًا عن الطعام لا يتناول من الغذاء إلا الشىء اليسير، ولما سئل عن سبب ذلك أجاب: كيف يطيب لى الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدى الصليبيين؟ قال صاحبه ومرافقه القاضى (بهاء الدين ابن شداد) يصف حاله فى حروبه للصليبيين: (كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال) وقال: (وهو كالوالدة الثكلى، ويجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، ويطوف

بين الأطلاب بنفسه وينادى:

يا للإسلام وعيناه تذرفان بالدموع، وكلما نظر إلى عكا، وما حل بها من البلاء، وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد فى الزحف والحث على القتال، ولم يطعم فى ذلك طعامًا البتة، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب، ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه).

وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التى دبرها صلاح الدين ضدهم، فاجتمعت كلمة رؤسائهم وحشدوا جموعهم، وتوجهوا إلى (طبرية) وتقابل الفريقان فى مكان اسمه (حطين)، أصبح الصباح وانتشرت حرارة الشمس المحرقة، فأعانت المسلمين على الفتك بهؤلاء العطاش لاستيلائهم على مواقع المياه، وهجم البطل صلاح الدين على الفرنج هجومًا عنيفًا فرق فرسانهم عن مشاتهم، وتقهقرت فلولهم إلى تلال حطين من شدة ما لاقوا من الهول والشدة والعطش الشديد، وبعد معارك ضارية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين انتصارًا حاسمًا، وانهزم الصليبيون هزيمة منكرة لم يفلت منهم أحد، وكانوا بين قتيل وأسير، وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف، وفى تلك الأثناء سقط (أسقف عكا) قتيلاً ووقع بين يديه (صليب الصلبوت) فاستولى عليه المسلمون، وكان ذلك من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم حتى بقى ملك بيت المقدس وحوله 150 من الفرسان، فتساقطوا على الأرض

لا يستطيعون حراكًا من الإنهاك والعطش والخوف.. وأسر ملك بيت المقدس، وأرناط موقد شرارة هذه الحرب، وأقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة اجتمع فيها بذوى الرأى من أتباعه ومستشاريه، فسجد الجميع لله شكرًا على ما أنالهم من نصره، ثم أمر بإحضار الملك (جاى لوزجنان) و(صاحب الكرك) (أرناط) فأجلسهما بداخل خيمته، وقد أخذ العطش من الملك كل مأخذ، فطلب ماء فأحضر له ماء مثلوجًا، فشربه إلا قليلا منه ثم ناوله صاحب الكرك، فقال السلطان حينئذ: (إنا لم نعطه هذا الماء حتى يكون آمنا على نفسه)، ثم قام وأنب صاحب الكرك على سوء صنعه مع قافلة المسلمين، وتطاوله على مقام النبوة، ثم ضرب عنقه بيده تنفيذًا لوعده وبرًا بيمينه، وعند ذلك رعب الملك، فطيب السلطان خاطره، وهدأ من روعه وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى.. ثم أمر به فأرسل إلى دمشق هو وبقية قومه بكل حفاوة وإكرام.

انتهت معركة حطين، وكان النصر فيها حاسمًا لصلاح الدين، فلقد هزم فيها الإفرنج الغاصبون هزيمة منكرة.. لقد خاض جيش الإسلام المعركة وهو أحسن ما يكون نظامًا وأقوى ما يكون عدة، وأمهر ما يكون قيادة، ولقد كان اختيار أرض المعركة موفقًا من الناحية العسكرية والحربية.. لذا كانت هذه الموقعة ضربة قاضية على فلول الإفرنج الصليبيين.

وبعد الانتصار الكبير الذى أحرزه صلاح الدين فى حطين توجه بقواته إلى ميناء (عكا) فاستسلم من فيها بأمان ودخلها صلاح الدين فى جمادى

الأولى سنة 583هـ، وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة (صور) ثم وقع احتلال المدن والحصون التى حول عكا مثل (تبنين - صيدا - جبيل - بيروت)، وبعد ذلك ساير الساحل، وحاصر (عسقلان) مدة أربعة عشر يوما، وانتهى الأمر باستسلامها، وبذلك نصب صلاح الدين حصارًا على بيت المقدس، وحال بينها وبين الإمدادات الصليبية التى كانت ترد إليها من الساحل، وتوجه إلى بيت المقدس بعد استلام (الرملة - الداروم - غزة - بيت لحم - النطرون)، وفى أثناء توجهه إلى بيت المقدس أرسل إليه أحد المسلمين المأسورين فى القدس قصيدة على لسان المسجد الأقصى يخاطب صلاح الدين ويمدحه ويطلب منه أن يخلصه من دنس الصليبيين.

وعند الفتح أراد صلاح الدين الأيوبى ألا يتعرض لبيت المقدس بسوء، ولا يمسه بأذى، واختار دخول مدينة القدس صلحًا دون أن يسلط عليها من قوة جيشه الهائلة ما يهدم أبنيتها، وينتهك حرمة مقدساتها، وكأنه أراد أن يعيد سيرة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى فتحها مرة ثانية، فأوفد الرسل إلى أهلها يطلب منهم التسليم على شروط وضعها قائلا لهم: (إنى على اعتقاد تام بأن القدس هى بيت الله المقدس كما تعتقدون، وليس فى عزمى أن أتعرض لبيت الله بأذى الحصار أو ضرر الهجوم)، بيد أن الفرنج أبوا عليه ما أراد من غير أناة ولا نظر إلى العواقب، وعلى إثر ذلك صمم السلطان صلاح الدين أن يستولى على المدينة بطريق الحرب والمقاومة.. ولم يمض أسبوع واحد من المقاومة الصلاحية حتى استسلمت القدس، ورضى الفرنج بالصلح، وتم الاتفاق على: (أن يسمح

لهم بالخروج فى مدة أربعين يومًا، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير).

وقد نظم ابن جبير قصيدة يمدح بها السلطان صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس.

وفى بيت المقدس بدأ السكان يجمعون متاعهم ويخرجونه من حيث أمرهم السلطان، يحث أقام العمال والموظفين لتسلم الفدية منهم وهم مفارقون، وكان أول يوم بدأوا بالخروج فيه يوم الجمعة 27 رجب 583هـ يوم الإسراء، فصدقت نبوءة محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق حين قال مخاطبا للسلطان صلاح الدين:

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر　　　مبشر بفتوح القدس فى رجب

وقد أحضره السلطان ليكون خطيب القدس فى يوم الجمعة الأكبر فى المسجد الأقصى بعد أن انقطعت فيه الصلاة هذا الزمن كله منذ احتلال الفرنج له، وقد كانت صلاة الجمعة يومًا مشهودًا وصلاة مباركة ميمونة لكثرة من حضر للصلاة، ولعظم الفرحة التى غمرت قلوب المسلمين.

وإليكم الخطبة بحذافيرها كما جاءت فى كتاب الروضتين الجزء الثانى:

وكان أول خطيب فى المسجد هو القاضى محيى الدين بن زكى الدين، ومما قاله هذا الخطيب بعد مقدمات الخطبة: (أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدى

المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه، واستعمر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وقبلتكم التى تصلون إليها فى ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحى، ومنزل تنزل الأمر والنهى، وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه، عيسى الذى شرفه الله برسالته، وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال الله تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله) وقال: (قد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وهو أول القبلتين، وثانى المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختار الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجارٍ، ولا يباريكم فى شرفها مبارٍ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيرية، والهجمات الخالدية، فجازاكم الله

عن نبيكم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء فاقدروا - رحمكم الله- هذه النعمة حق قدرها وقوموا إلى الله بواجب شكرها، فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة.. إلى ما جاء فى الخطاب.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال:

3 - سياسة صلاح الدين فى معاملته للصليبيين:

من بنود الصلح التى تمت بين الفرنج وصلاح الدين: (أن يسمح لهم بالخروج فى مدة أربعين يومًا يدفع عن الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنان، ومن لم يستطع فهو أسير)، غير أن السلطان صلاح الدين قد تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان ليعطى للبغاة المعتدين والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب والقدوة الصالحة فى السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.. ليعرف أولئك جميعًا أن الإسلام دين الرحمة والإنسانية، لم يظهر ليشهر سيفًا على مغلوب، أو ينتقم من مستأمن، أو يريق الدم البشرى ظلمًا وعدوانًا، وإليكم ما فعله صلاح الدين بأعدائه بعد أن أمكنه الله منهم.

رأى السلطان أن عددًا كبيرًا من الإفرنج يحمل على ظهره والديه الضعيفين، أو أقاربه المرضى، فأثر فيه هذا المنظر أشد التأثير، وهاله الأمر كثيرًا، ولم يطق صبرًا على رؤيته، فأمر بالمال فأعطى لهم، وبالدواب فوزعت عليهم، لتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

ولقد كانت شفقته بالنساء أكبر، وعطفه عليهن أعظم، فقد كان بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم، وقد ترهبت، وأقامت تتعبد وتتقرب إلى الله والتف حولها خلق كبير من الخدم والأتباع، وكانت ذات مال كبير، فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها.

ولما استأذنته الملكة (سيبيل) فى الرحيل هى وأتباعها، أظهر لها من العطف والتأسف على حالها ما أنطق الألسنة بالشكر له والثناء عليه، خاطبها بكل حنو ورحمة وسيرها إلى زوجها السجين بقلعة (نابلس) وسمح لها بالمكوث فيها عنده، وقد تبعها فى خروجها عدد كثير من النساء الباكيات الحاملات أطفالهن بين أذرعهن، ولما اقترين من السلطان تقدمن إليه وخاطبنه:

(أيها السلطان! أترانا الآن راحلات عن هذه الديار، ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لأولئك الجند الذين لا يزالون في أسراك، ونحن الآن نغادر هذه الديار إلى الأبد، وهؤلاء الجند الذين نتركهم عدتنا فى حياتنا، وسلاحنا فى أيامنا، فإذا ما فقدناهم فقدنا الحياة، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم، وخففت بذلك آلامنا، وأزحت بؤسنا، وأبعدت عنا شقاءنا، فإنا لا نكون على ظهر هذه الدنيا من غير مساعد أو عائل).

تأثر السطان بما سمع وما رأى من بكائهن، وأمر بإعطاء الأمهات أبناءهن، والزوجات بعولتهن والبنات آباءهن، وحلف ليعاملن من بقى فى الأسر بكل إحسان ورحمة.

ويقول (استفين سن): (إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية) ويروى (استانلى لين بول) أن (أرنولد) يقول: (إن السلطان قد قضى يوما من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية).

وقد أذن السلطان لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال، فأخذوا معهم كل ما شاءوا دون أن يعترضهم فى ذلك معترض، تاركين ما لا قبل لهم بحمله، فابتاعه المسلمون منهم.

واستأذن (الملك العادل) أخاه صلاح الدين بإعفاء سبعة آلاف من الفقراء والمساكين من الفدية، وأعفى السلطان صلاح الدين ما يقارب عشرة آلاف.

هذه المعاملة الحسنة من السلطان صلاح الدين للإفرنج بعد انتصار حطين كانت تخالف ما كانوا هم عليه فى معاملتهم السيئة لبعضهم بعضًا فضلا عن معاملتهم الحاقدة للمسلمين فى الحرب الصليبية الأولى.

وإليكم ما يرويه (الأمير على) عن (مل) المؤرخ الإنجليزى: (ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى أنطاكيا المسيحية، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم، فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين، فقوبلوا بكل ترحيب).

ويقول الأمير على أيضا: (ولقد وصف (ميشود) حال أولئك الذين طردوا

من القدس وما لاقوه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية، فقد تضور عدد منهم جوعا فى سوريا، وهم على أشد ما يكونون من البؤس، وقد أغلقت طرابلس أبوابها فى وجوههم - ثم قال ميشود-: وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقى بولدها فى اليم وهى تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤوها، وقيل للسلطان صلاح الدين، والبطرق خارج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جدا، لم يصرفها فى فداء الفقراء والمساكين، بعد أن وصف -ستانلى- البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان، قيل للسلطان: (لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين؟ فقال لهم السلطان: لا آخذ منه غير العشرة دنانير، ولا أغدر به)، وفى ذلك يقول (ستانلى لين بول): (وقد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقى على راهب مسيحى درسا فى معنى البر والإحسان).

أما معاملتهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين فى الحرب الصليبية الأولى فكنا أشرنا فى فصل سابق عن المجازر الوحشية التى ارتكبوها، وآلاف النفوس البشرية التى أزهقوها، وحمامات من الدم الفوار التى أراقوها، فالتاريخ لا ينسى ما اقترفته أيديهم الآثمة من بغى وغدر وحقد وإجرام.. عندما وطئت أقدامهم أرض القدس سنة 482هـ1099م وإليكم ما قاله (ميشود) عند دخولهم القدس كما جاء فى كتاب (الأمير على) نقلا عن (مل) المؤرخ الإنجليزى: (كان المسلمون يُقتلون فى الشوارع والبيوت، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر، فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار وانزوى البعض الآخر فى

القصور والأبراج وحتى فى المساجد، غير أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا ثم يقول:ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين، فلم يسمع فى وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى) ثم يروى (الأمير على) عن ميشود ما معناه: (أما أولئك الذين أبقاهم الفرنج أحياء أملا فى أموالهم فقد ذبحوا عن آخرهم بلا مبالاة ولا شفقة، حتى اضطر المسلمون إلى أن يلقوا بأنفسهم من فوق المنازل وقد أحرق بعضهم وهم أحياء، وسحب آخرون من أخبيتهم إلى الساحات العمومية وقتلوا على جثث القتلى هناك، وما كانت مياه عيون النساء، ولا صياح الأطفال، ولا منظر المكان الذى عفا فيه المسيح عن قاتليه لتسكن من ثورة أولئك المنتصرين.

(ثم أضاف (مل) قوله: ولم يتحرك أى قلب حنانا ولا شفقة على أولئك الأبرياء، ولم يتقدم إلى عمل البر والإحسان رجل واحد، نحو سبعين ألف نفس ذهبت ضحيته بلا ذنب).

هل سمعتم فى التاريخ سماحة أروع وأنبل من سماحة صلاح الدين؟ وهل طرقت مسامعكم وحشية ظالمة أفظع وأكبر من وحشية الصليبيين؟

ويقول (فيليب حتى) فى ذلك: (وكان الفرق جليّاً بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الفرنج ومعاملة الفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة).

4 - حصار عكا والحملة الصليبية الثالثة:

كنا ذكرنا أن الصليبيين خرجوا من بيت المقدس ومن عكا وغيرها من البلاد.. تحت حماية القوات الإسلامية إلى مدينة (صور) بعد أن تعهدوا بعدم الرجوع إلى الحرب، وعدم إخفار الذمة والعهد، ولكن الصليبيين نقدوا عهدهم، وأخلوا بوعودهم، وقطعوا كل ذمة أعطوها للسلطان صلاح الدين.

فما أن اجتمعت الفلول الصليبية اللاجئة إلى مدينة (صور) حتى أغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد الذى أعطته لصلاح الدين، لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة (عكا) ونصبوا عليها الحصار اعتمادًا على قوتهم المجتمعة، وعلى الإمدادات التى ترد إليهم من أوروبا، وحصار عكا كان له دوى فى التاريخ نظرًا لطوله الزمنى الذى استمر عامين، ونظرًا لضروب الشجاعة والبسالة والإقدام التى أظهرها كل من المتحاربين، سواء من المسلمين أو الصليبيين.

تحركت الجيوش الصليبية إلى عكا فى 8 رجب 585هـ وما أن وصلوها حتى حاصروها برًا وبحرًا، ثم وصلت الجيوش الإسلامية، وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البر، ونصب صلاح الدين خيمته على (تل كيسان) واستمرت المناوشات والمعارك، وكان الأمر يشتد كل يوم وساعة، فصلاح الدين بعث النفير إلى أطراف مملكته يحث المسلمين على التحرك والجهاد، والصليبيين تتوارد عليها الإمدادات من أوروبا التى ضجت لنبأ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس.

وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة (عكا) كانت ممالك أوروبا

تستعد لحرب صليبية ثالثة إثر الانتصارات الباهرة التى سجلها صلاح الدين ضد الإمارات الصليبية، واسترجاعه لبيت المقدس، وقد امتازت الحرب الصليبية الثالثة بأن كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا فى ذلك الزمان:

1 - إمبراطور ألمانيا (فريدريك بربروس).

2 - ملك فرنسا (فيليب أوغسطس).

3 - ملك الإنجليز (ريتشارد قلب الأسد).

أما مصير الحملة الألمانية: فإن الإمبراطور الألمانى سار فى جيش كبير يقارب مائة ألف محارب مخترقًا بلاد المجر فى اتجاه القسطنطينية، وأفزع هذا الجيش العرمرم إمبراطور بيزنطة (إسحاق لانج)، فلم يجد الألمان من الإمبراطور البيزنطى مساعدة ولا استبشارًا، وبلغ الأمر بالإمبراطور البيزنطى أن أبلغ صلاح الدين بمجىء الألمان، وأعلمه بأنه سوف لا يمدهم بأية إعانة، وعبرت الجيوش الألمانية إلى آسيا الصغرى، ولما وصلوا (أرمينية) وجدوا من الأرض خير مساعد، إلا أن غرق الإمبراطور الألمانى (بربروس) وموته بنهر (سالف) فى جبال أرمينية جعل الجيش الألمانى فى تشتت واضطراب ورجع غالبه إلى ألمانيا أما بقيته فقد ركبوا السفن إلى (عكا وصور) بقيادة (فريدريك داوسواب) ابن الإمبراطور الألمانى السابق، وحتى هذا الابن مات أثناء الطريق، ولم يصل إلى عكا من الألمان إلا عدد قليل من هذا الجيش العرمرم، الذى لو وصل تامًا لكان له أثر كبير فى النزاع بين الصليبيين وصلاح الدين.

أما الحملتان الفرنسية والإنجليزية فكانتا كما يلى:

التقى الإنجليز والفرنسيون فى (صقلية) وأقاموا فيها مدة طويلة لخلاف وقع بينهم بينما الصليبيون فى عكا ينتظرونهم بفارغ الصبر، وأخيرًا بارح الفرنسيون صقلية، وبعد عشرة أيام بارحها الإنجليز واستبشر الصليبيون بوصول القوات الفرنسية إلى عكا لإضافتهم قوة أخرى تشد من أزرهم، وتمكن من انتصارهم.

أما ملك الإنجليز -قلب الأسد- فقد ألقت عاصفة بأسطوله على جزيرة قبرص التى كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية فما كان من قلب الأسد إلى محاربة البيزنطيين والاستيلاء على قبرص والاستقرار بها مدة، ثم أبحر إلى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس الذى أطلقه صلاح الدين من الأسر.

ماذا تم فى مقاومة عكا بعد أن أحاط بها العدو من كل جانب؟

لاشك أن الصليبيين ازدادوا قوة على قوتهم بوصول قلب الأسد ملك الإنجليز، ورغم المحاولات العديدة التى بذلها البطل صلاح الدين ورجاله لإنقاذ من بعكا من المسلمين وفك الحصار، فإن المحاولات لم تجد نفعا، وأخيرا اضطر المحصورون إلى الاستسلام بعد أن أيقنوا باستحالة المقاومة وفك الحصار عنهم وفى ظهر يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الثانية سنة 587 هـ بينما كان السلطان صلاح الدين يستشير خاصته فيما ورد عليه من عزم المحصورين على المصالحة والاستسلام، ارتفعت الأعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا معلنة احتلالها واستسلامها، ففوجئ المسلمون وارتاعوا واستبشر الصليبيون وصاحوا، وبعد استسلام عكا

عادت الأعمال الوحشية إلى حالتها الأولى، فنكل الصليبيون بأهالى عكا المسلمين وأشبعوهم ذبحًا وقتلاً، وكأنهم لم ينظروا إلى المعاملة الحسنة التى عاملهم بها صلاح الدين، ولم يرقبوا فى ذلك إلا ولا ذمة، يقول ستانلى: (وقام ملك الإنجليز (ريتشارد قلب الأسد) يوم 23 رجب سنة 589هـ أغسطس سنة 1911م فقتل 2700 مسلم أمام معسكر المسلمين والفرنج، من غير أن يتحرك قلبه من شدة بشاعة هذه المجزرة العظيمة، فسالت الدماء بحورًا، وسبحت فيها الأجساد سبحا، وإن أردت – أيها القارئ– أن تقف على بشاعة هذا المنظر فاقرأ ما يقوله (ستانلى) عند الاستيلاء على عكا: (ولم يبق الإفرنج إلا على من كان ذا مال يطمعون فيه، ولم تذهب عكا بلا ثمن فقد كلفت المسلمين 60 ألف نفس)، أما الفرنج فإنهم عندموا استولوا على عكا انغمسوا كعادتهم فى المسرات والملذات، فقال ميشود: (ولقد تمتع الإفرنج المنتصرون واستراحوا راحة فى عكا ما سبق لهم بها مثيل منذ جاءوا إلى سوريا، فمسرات السلام وكثرة الطعام والنساء اللاتى حضرن من الجزر المجاورة القريبة، كل هذه أنستهم وقتا ما مهمتهم التى جاءوا من أجلها).

فكان من المنتظر بعد انتصار الإفرنج فى عكا، وبعد أن قامت أوروبا بأسرها والعالم اللاتينى كله فى آسيا وغيرها تناوئ قوات السلطان صلاح الدين، كان من المنتظر بعد هذا كله أن ينال الفرنج بجموعهم الكبيرة، وقوتهم الهائلة من السلطان صلاح الدين شيئًا كثيرًا فيتمكنوا من إيقاع الهزيمة بالمسلمين إلى الحد الأعظم ويستردوا كل ما فقدوا من البلاد،

لكنهم لم يستولوا بعد حرب دامت سنتين إلى على مدينة واحدة، وبقى جيش صلاح الدين فى قوته ومنعته لم يذهب منه سوى القليل.

ومن الأمور التى ساعدت على توقف الجيش الصليبى عن الفتح والنصر حدة الخلافات التى وقعت بين ملك فرنسا وملك الإنجليز لما كانا فى صقلية، وكان الخلاف أشد ما يكون بين ملك بيت المقدس الطريد، وبين المركيز (كنراد مونت) صاحب مدينة صور، وقد كان ملك الإنجليز يميل إلى ملك بيت المقدس، بينما ملك فرنسا يميل إلى المركيز صاحب صور الطامع فى تاج مملكة بيت المقدس، وحالما تم انتصار الصليبيين فى عكا عادت الخلافات إلى الظهور، وانتهت على اتفاق يتضمن استمرار ملك بيت المقدس حاملا للتاج مدة حياته، وبعد موته يتولاه المركيز (كنراد)، وبادر الملك الفرنسى بالرحيل إلى بلاده، أما (ريتشارد قلب الأسد) ملك الإنجليز فقد أخذته العزة بالإثم وظن أنه بقتاله سيسترد البلاد التى فتحها صلاح الدين وجرت بينه وبين صلاح الدين معارك كثيرة، وحروب طاحنة كان النصر فيها سجالا، تارة لصلاح الدين وأخرى لصالح قلب الأسد، ومن المعارك الكبيرة التى وقعت وكانت لصالح الصليبيين معركة (أرسوف)، تغلب فيها الصليبيون على القوات الإسلامية واعتبروها أخذًا بثأر معركة حطين.

على أية حال انتهت الحرب؟

استمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين، وحاولوا مرات الاقتراب من بيت المقدس حتى أصبحوا مرة على بعد فرسخين منها، وكان قلب الأسد لا يقوى على محاصرة بيت المقدس مخافة أن يكون الحصار

قاضيًا عليه، لأن حماة بيت المقدس فى هذه الصليبية لم يكونوا كحماتها من الصليبية الأولى وتكاد الوقائع الحربية تكون سجالا بين الصليبيين وصلاح الدين: الصليبيون لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الشامية وإنقاذ بيت المقدس، وصلاح الدين لم تسنح له الظروف فى زحزحة الصليبيين عن الساحل وإلقائهم فى البحر والانتصار عليهم، ولهذا كانت الدعوة إلى المهادنة والصلح تجد رغبة عند الجانبين، وإنما كان يعرقلها اشتراط الشروط وعدم التنازل.

وأخيرًا ركن الطرفان إلى الصلح والمهادنة، فتم ذلك فى شعبان فى الرملة سنة 588هـ1192م وكان أهم ما فى هذا الصلح:

1 - أن يستقر الصليبيون فى الشريط الساحلى الممتد من صور إلى حيفا.

2 - السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها.

3 - أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

والشريط الساحلى الذى استقر فيه الفرنج هو الذى اعتبر امتدادًا لمملكة بيت المقدس السابقة، وأصبحت مدينة عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس الجديدة.

وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشامية قاصدًا بلاده بعد أن اكتسب شهرة عظيمة، وأصبح ألمع شخصية فى الحرب الصليبية الثالثة.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بعد حرب دامت خمس سنوات ذهبت فيها أرواح الكثيرين وخربت بلاد بأسرها، وفقدت ألمانيا إمبراطورًا من

أعظم أباطرتها، كما أضاعت فرنسا وإنجلترا نخبة من زهرة شبابها وقوادها.

كل هذا دون أن ينال الفرنج سوى عكا، فلم تكافئ نتيجة هذه الحرب بأى شكل من الأشكال ما تكبدته أوروبا وفقدته فى سبيلها.

قامت هذه الحرب، وما كان للمسلمين إذ ذاك قيد شبر من أرض فلسطين قبل صلاح الدين، أما بعد موقعة حطين وصلح الرملة، فقد أصبحت فلسطين كلها مسلمة عدا الجزء الضيق من صور إلى عكا، وصار بذلك صلاح الدين من القوة والمنعة بحيث لا يهتز لأية قوة أخرى، فخضع لسلطانه أمراء تلك الجهات كلها، وطرد الفرنج من البلاد، واسترد بيت المقدس، وأعاد للإسلام مجده التليد وسلطانه العظيم، وكون مملكة كبيرة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام ومصر وفلسطين وبرقة فى فترة قصيرة من الزمن تعد قصيرة بالنسبة لعمر التاريخ.

ماذا فعل صلاح الدين الأيوبى بعد معركة حطين؟

عام 1187م اتجه صلاح الدين الأيوبى إلى عكا والمدن الساحلية ليحرم الصليبيين إمدادات قواعدهم البحرية التى تربطهم بأوروبا، وليتصل عبر هذه الموانئ بمصر، أحد شطرى دولته، وحررت عكا صلحا، وحررت الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وشقيف والعفولة والطور ويافا وتبنين وصرفند وصيدا وبيروت والرملة ويبنا والداروم وغزة والنطرون وبيت جبرين وعسقلان.

ولم يبق أمام صلاح الدين داخل فلسطين إلا بيت المقدس، فاتجه إليها، وتصرف تصرفا كريما حينما سمح بخروج النساء والأطفال من المدينة آمنين تحت حراسة جنده، وفى يوم الجمعة 27 رجب 583هـ/ 12

تشرين الأول (أكتوبر) 1187م دخل صلاح الدين القدس في ليلة الإسراء والمعراج ولم يهدم كنيسة، وأما اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين فقد منحهم صلاح الدين مساعدات مالية من ماله الخاص.

ولما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب مع تكبير المسلمين فرحًا، وأمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم، ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين، وكان الخطيب والإمام محيي الدين الزكي قاضي دمشق، فلبس الخلعة السوداء - رمز الخلافة العباسية- وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، أوردها أبوشامة في الروضتين بطولها، وكان أول ما قال ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[الأنعام: 45][1].

ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبًا وإمامًا برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر، فقيل له: إن نورالدين كان قد عمل بحلب منبرًا أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين، لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد

(1) جاء في الروضتين 2/ 108: وكثر المترشحون للخطابة، فكل واحد منهم يريد نيل شرف الخطبة الأولى في الأقصى بعد تطهيره من دنس المحتل، فنصب السلطان صلاح الدين الخطيب بنفسه: القاضي محيي الدين أبوالمعالي محمد ابن زكي الدين علي القرشي، والخطبة كاملة في الروضتين 2/ 110.

على عشرين سنة؛ وكان هذا من كرامات نورالدين وحسن مقاصده.

ولم يبق فى مملكة المقدس غير ميناء صور، الذى لم يحرره صلاح الدين عقب تحرير عكا مباشرة، فتجمعت فيه البقايا الصليبية، لتزود الميناء بطاقة بشرية كبيرة، إلى جانب حصانته الطبيعية[1]، خصوصا بعد وصول كونراد دى مونتغرات ملك فرنسا إليها، فحصنها أكثر.

وكان لتحرير بيت المقدس رد فعل عنيف بالغرب، فدفعوا بالحملة الصليبية الثالثة بقيادة إمبراطور ألمانيا فردريك بربروسا، وسنتابع الأحداث حتى تحرير البلاد كلها فى الجزء التالى من هذه السلسلة (عين جالوت).

صورتان متلازمتان فى تاريخ البشرية ما أبشع الأولى وأسوأها، وما أروع الثانية وأجملها.

الأولى: صورة بيت المقدس يوم الجمعة 15 تموز (يوليو) 1099م، حيث وحشية الصليبيين والدماء سواقى.

والثانية: يوم الجمعة 12 تشرين الأول (أكتوبر) 1187م، حيث استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين، حيث أبت أخلاقه الإسلامية الرد بالمثل، ملقنًا الغرب درسًا فى تسامح الإسلام، وروحه الإنسانية.

دخل الصليبيون ثانية عكا فى تموز (يوليه)1911م، مما أثار موجة

---

(1) ذكر ابن جبير فى رحلته 277: مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة، وذكر ابن الأثير فى الكامل أحداث سنة 583هـ: حفر حولها خندق جاءته المياه، فصارت صور جزيرة لا يمكن الوصول إليها، ولا الدنو منها.

من الحزن والأسى، (وغشي الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب)[1].

وزاد من لوعة الأسى أن الصليبيين غدروا بوعدهم، ونقضوا شروط الصلح (فأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفًا)[2]، وكان ريتشارد قلب الأسد الزعيم الأوحد للحملة الصليبية الثالثة، أحوج ما يكون للاتزان والتعقل والبعد عن التهور، لقد سار بأسرى عكا من المسلمين في 20 آب (أغسطس) 1911م، حينما تبطأ المسلمون في تسليم صليب الصلبوت وتبادل الأسرى، ولم يحاول الاتصال بصلاح الدين ومعرفته السبب والزمن، وكان الأسرى ثلاثة آلاف مسلم، حيث تم قتلهم صبرًا وطعنًا وضربًا بالسيف، والمسلمون عن بعد يشاهدونهم، ولا يدرون ما يفعلون لبعدهم عنهم.

وشتان بين هذا السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد في ذبح أسرى المسلمين، وبين السلوك الإنساني الذي اتبعه صلاح الدين عقب انتصاره في حطين، ثم عقب تحريره بيت المقدس[3]، إذ حرص دائمًا على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التعرض لهم، بل إنه لم يضن على ريتشارد نفسه في أثناء مرضه بالفاكهة والثلج، أرسلها إليه، والصليبيون يحاصرون عكا[4].

---

(1) الروضتين 188/ 2.

(2) السلوك 105/ 1.

(3) الحركة الصليبية 872.

(4) مفرج الكروب 355/ 2.

ولم يرد صلاح الدين على وحشية ريتشارد بالمثل، ولم يقتل من كان فى حوزة المسلمين من أسرى الصليبيين، وهم أعظم عددًا بكثير من أسرى عكا المسلمين.

صحيح أن صلاح الدين أغلق باب المفاوضات مع ريتشارد حول أى موضوع يتعلق ببيت المقدس وبصليب الصلبوت[1]، ثم استعد لقتال ريتشارد والصليبيين، ولم يحجم فى المعارك التالية عن قتل بعض من وقع فى يده من أسرى الصليبيين، ويروى ابن شداد أنه حينما وقع أسيران فى يد صلاح الدين فى أثناء الزحف على عسقلان فإنه قتلهما[2]، وكان فى حدة الضيقة لما جرى على أسرى عكا.

وهنا قال ابن الأثير: الإفراط فى التسامح مع الخصوم، والمبالغة فى التساهل، فالملك أو الحاكم (لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار، فلئن يعجز حازمًا (خير له من أن يظفر مضيعا للحزم)[3].

فالجفوة (أو التحامل) سببها الإفراط فى التسامح مع الخصوم، والمبالغة فى التساهل معهم، ناهيك عن حب ابن الأثير لنورالدين الشهيد وتحيزه له[4].

***

(1) الفتح القسى 293.

(2) النوادر السلطانية 287.

(3) الكامل فى التاريخ 187/ 9.

(4) مصادر ومراجع الأجزاء الخمسة الأخيرة فى آخر جزء منها: تشالديران.

(9)
صلح الرملة
ووفاة صلاح الدين الأيوبى

1 - مما دلت عليه الشواهد التاريخية أن صلاح الدين لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختارًا وإنما الظروف السيئة هى التى ألجأته إلى الصلح مضطرّا بعد أن رأى (سآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة)، ولو سارت الأمور لصلاح الدين على حسب ما يهوى لاستمر بالجهاد لإعلاء كلمة الله حتى تتطهر بلاد الشام وأرض فلسطين من الشراذم الباغية والغزاة المعتدين، وكان أخشى ما يحذر منه صلاح الدين هو أن الصليبيين فى بعض مراكزهم ببلاد الشام يعيثون فيها فسادًا، ويتحدون ويجتمعون ثم ينقضون على العالم الإسلامى لتقويضه والسيطرة عليه وإحداث البلبلة فيه كما كانوا يصنعون.

ويؤكد القاضى ابن شداد فى كتابه (النوادر السلطانية) هذا المعنى فيقسم قائلا: (والله العظيم! إن الصلح لم يكن من إيثاره فإنه قال لى فى محاوراته فى الصلح: أخاف أن أصالح، وما أدرى أى شىء يكون منى فيقوى به هذا العدو، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى قلعته).

وعلى كل حال إن صلح (الرملة) قوبل بالارتياح التام من المسلمين والصليبيين سواء، بعد أن ملوا جميعا تلك الحروب الطويلة الطاحنة التى كانت تأتى على الأخضر واليابس، فتجعله خرابًا يبابًا، والتى لم تنته إلى نتيجة حاسمة يرضى عنها الطرفان، بل أصبح الناس يتوقون إلى فترة من الهدوء والاستقرار يباشرون فيها تقدمهم الحضارى ونشاطهم العمرانى، ويصور لنا (المقريزى) فى كتابه (السلوك) عظم الفرحة التى عمت المسلمين والصليبيين سواء عند إعلان الصلح فيقول: (كان يوم الصلح يومًا مشهودًا، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب).

ومهما يكن من أمر، فإن صلاح الدين أعلن (أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل)، وبعد هذا الإعلان السلمى من صلاح الدين أخذ النشاط يسير سيرًا حسنًا فى طريق التجارة، وازدهار الحياة الاقتصادية، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة وابتغاء الرزق، وعادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين، وبات الناس ينعمون بالأمن والاستقرار وفتح السلطان صلاح الدين الباب على مصراعيه لزيارة بيت المقدس من قبل الصليبيين، ودخل من النصارى للزيارة ما لا يتصوره عقل، ولا يحصيه رقيب، ولما علم (ريتشارد قلب الأسد) كثرة من يزور بيت المقدس من الحجاج النصارى خشى أن يغضب صلاح الدين لذلك (وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقتراح أن لا يؤذن لهم إلا بعد إحضار علامة من جانبه أو كتاب منه)، ولكن صلاح الدين أبى ذلك، ورد عليه بأن أولئك

الزوار (قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم)، بل إن صلاح الدين بالغ فى إكرام من يرد إلى بيت المقدس من الزوار النصارى (وشرع فى مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم).

وبهذا التسامح النبيل، والأخلاق الرضية لقن صلاح الدين ملوك الغرب والشرق دروسًا فى التسامح والعفو ومكارم الأخلاق.. وذلك قبل أن يركب (قلب الأسد) البحر قافلا إلى بلاده، رحم الله صلاح الدين وأعلى مقامه فى عليين.

2 - وبعد أن تم توقيع صلح الرملة توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس، متفقدًا أحواله، ومنظمًا أموره، وأصدر أوامره فى فتح المدارس، وإنشاء المستشفيات، وتنظيم الإدارات.. ثم أعلن رغبته فى أداء فريضة الحج، فخاف الأمراء غدر الفرنج به إذا علموا ذلك، فألحوا عليه بالعدول، فأجابهم إلى ما طلبوا، ورحل بعد قليل إلى جهات الساحل ليتفقد أحوال الحصون والمعاقل، وليصلح ما يحتاج منها إلى إصلاح، فسار من القدس إلى نابلس فبيسان فطبرية ثم إلى بيروت، ثم إلى دمشق فوصلها يوم 26 شوال، ففرح الناس بقدومه، وأغلقوا حوانيتهم لاستقباله، والاحتفاء به، ولا عجب إذ هم فعلوا ذلك لما للسلطان عليهم من فضل، فى حفظ البلاد، ونشر لواء العدل، وإخماد الفتن والثورات.

وما إن وصل صلاح الدين إلى دمشق حتى شرع فى تنظيم شؤون البلاد، وتوزيع الأموال على المستحقين، وتسريح الأجناد إلى بلادهم

وجلس ينظر فى شكاوى الأهالى (لينشر جناح عدله، ويهطل سحاب إنعامه وفضله) وقد طاب له المقام فى دمشق، ومارس فيها رياضة الصيد هو وأخوه العادل وأولاده، ويتفرجون فى أرض دمشق وموطن الظباء، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب، وسهر الليل، ونصب النهار، ويذكر القاضى ابن شداد أن بهجة دمشق أنست صلاح الدين ما كان اعتزمه من قصد الديار المصرية، بل إنه أرسل إلى ابن شداد بالقدس يستدعيه، ليكون إلى جواره فى دمشق، استدعاه صلاح الدين على انفراد يقول ابن شداد: (فدخلت عليه، فقام ولقينى لقاء ما رأيت أشد من بشره بى فيه، ولقد ضمنى إليه، ودمعت عينه رحمه الله).

ومازال على هذه الحال حتى خرج يوم 14 صفر سنة 589هـ لمقالاة الحجاج العائدين من مكة وكان لقاء رهيبًا تأثر منه السلطان وبكى، وكم تمنى أن يكون معهم ليفوز فوزًا عظيمًا! وكم تمنى أن يؤدى الفريضة ولكن الرياح تجرى بما لا تشتهى السفن!.

3 - وما إن رجع صلاح الدين من استقبال الحجيج حتى غشيته (حمى صفراوية)، وأخذ المرض يشتد به ويتزايد حتى أصبح فى حالة خطيرة أيأست علاج الأطباء له، والمهتمين به، وما لبث أن انتشر خبر مرض صلاح الدين فى دمشق، فاضطرب الناس وخافوا (وغشيتهم من الكآبة والحزن ما لم تمكن حكايته).

وقد تكاثرت جموع الناس حول قلعة دمشق بين مستفسر يريد الاطمئنان، وبين داع له بالشفاء، ولم يؤذن لأحد بالدخول عليه سوى

القاضى ابن شداد، والقاضى الفاضل، فكانا يلازمانه طيلة أيام مرضه.

وفى اليوم السادس لمرضه كان يجلس عنده القاضى ابن شداد، فأحضروا له ماء فاترًا ليشربه عقب الدواء، ولكن صلاح الدين اشتكى من شدة حرارة الماء، ولما أحضروا له ماء ثانياً شكا صلاح الدين من برده، وقال: (سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء!) وكان ذلك دون أن يغضب أو يصخب، يقول ابن شداد: (فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء، والقاضى الفاضل يقول لى: أبصر هذه الأخلاق التى أشرف المسلمون على مفارقتها! والله لو أن حصل هذا لبعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره).

ويقول القاضى ابن شداد: (ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة، وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا، وفرح الناس فرحًا شديدًا.. وأخبرنا فى هذا اليوم بأن العرق قد أخذ فى ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك.. ثم ذكر لنا أن العرق سابغ (أى عم جميع جسمه) فانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فى الحادى عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ بالفراش ثم فى الحصير، وتأثرت به الأرض.. وحارت فى القوة الأطباء).

ولما رأى الملك الأفضل (نورالدين على) أكبر أبناء صلاح الدين ما حل بوالده وألا رجاء فى شفائه، وأن الحالة التى يعانيها هى سكرات الموت، استحلف الناس على أن يكون الأمر لوالده مدة حياته، وله بعد وفاته.

ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها – كما ذكرها القاضى ابن شداد فى كتاب النوادر السلطانية – ما يلى: (إنى من وقتى هذا صفيت نيتى، وأخلصت طويتى للملك الناصر مدة حياته، وإنى لا أزال باذلا جهدى فى الذب عن دولته بنفسى ومالى، وسيفى ورجالى ممتثلا أمره، واقفا عند مراضيه، ثم من بعده لولده الأفضل (نورالدين على) ووريثه، ووالله إنى فى طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى، وأمتثل أمره ونهيه، وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل).

4 – وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة 589هوهى الليلة الثانية عشرة من مرضه، ساءت حالة صلاح الدين، وأصبح فى حالة غيبوبة طويلة لم يفق منها إلا نادرًا، فاستحضر أحد المقرئين ليقرأ عنده القرآن الكريم حتى إذا وصل المقرئ إلى قوله تعالى: (لا إله إلا هو عليه توكلت) تبسم وجه صلا الدين وتهلل، وأسلم الروح لبارئها، وكان ذلك بعد صلاة الصبح يوم السابع والعشرين من صفر تسع وثمانين وخمسمائة.

5 – لقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين جميعا وقع الصاعقة للصدمة الفادحة، والمصاب الجلل، ولنترك المجال للقاضى ابن شداد –وهو شاهد عيان– يصف لنا حالة الناس وغمرتهم الشديدة، إذ يقول: (وكان يومًا لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله، منذ أن فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون

فداءه بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس.. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم، ودام الحال على ذلك إلى ما بعد صلاة الظهر.. وكان نزوله في حفرته -قدس الله روحه ونور ضريحه- قريبًا من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، فما وجد قلب إلا حزين، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع).

6 - وأخرج قريبًا من صلاة العصر في تابوت مسجى ببعض الثياب التي استحضرها القاضي الفاضل، وعند مشاهدة الناس للتابوت انهمرت الدموع، وعظم الضجيج حتى إنه خيل للسامع أن الدنيا تصيح صوتًا واحدًا.

ودفن رحمه الله حيث مات في قلعة دمشق، وبعد ثلاث سنوات من موته، أعد له ولده (الملك الفاضل) قبرًا بجوار الجامع الأموي مكان دار رجل صالح اشتراها منه، ونقل رفاته إليه في يوم عاشوراء بمحفل رهيب، وجلس للعزاء بالجامع الأموي ثلاثة أيام كاملة.

مات السلطان صلاح الدين، وفي يوم وفاته فقدت الأمة الإسلامية رجلاً كان له في التاريخ ذكر، وفي القلوب مكانة، وفي النفوس احترام وإجلال، وهيهات أن تلد الأمهات مثل صلاح الدين نبلا وتضحية وإخلاصا وجهادًا، أكرم الله نزله، ونور ضريحه، وأعلى مقاومه في أعلى عليين.

7 - وكان عمر صلاح الدين رحمه الله بعد أن فاضت روحه إلى بارئها السابعة والخمسين، ولما مات لم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرياً، ودينارًا واحدًا، ولم يخلف ملكًا ولا عقارًا، ولا بستانًا ولا مزرعة، ولا شيئًا من الأملاك.

8 - وبعد وفاته رثاه الشعراء بنفائس الشعر، وعددوا فيه تلك السماحة والمآثر الكريمة التى جعلته حبيبا إلى القلوب، أثيرًا لدى النفوس، وقدوة للأجيال، ورمزًا للدفاع عن مقدسات الإسلام، واسترداد الوطن المغصوب، فمن غرر هذه القصائد فى رثائه قصيدة (العماد الأصبهانى) جاء فيها:

شمل الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى كانت له طاعاتنا	مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى	لله خالصة صفت نياته
أين الذى ما زال سلطانا لنا	يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله	وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه	ذلا ومنها أدركت ثاراته
لذا المتاعب فى الجهاد ولم تكن	مذ عاش قط لذاته لذاته
لا تحسبوه ممات شخص واحد	فمات كل العالمين مماته
فى نصرة الإسلام يسهر دائما	لتطول فى روض الجنان سناته

[illegible] الإسلام كان حاميا   أبـدًا إذا ما أسلمته حماته

[illegible] والأرامل راحم   متعطف مفضوضة صدقاته

من [illegible] وقد عداها حفظه   من للجهاد ولم تعد عاداته

يا وحشة الإسلام يوم تمكنت   فى كل قلب مؤمن روعاته

ما كان أسرع عصره لما انقضى   فكأنما سنواته ساعاته

فعلى صلاح الدين يوسف دائما   رضوان رب العرش بل صلواته

***

(10)
البطل الناصر صلاح الدين
وأسرار الانتصار على الصليبيين

البطل صلاح الدين الأيوبى وسر الانتصار على الصليبيين وأسبابه

سبق أن عرضنا أن النصر الأكبر الذى أحرزه صلاح الدين فى حروبه مع الصليبيين هو معركة حطين الفاصلة، فكان من نتيجة هذا الانتصار الخالد تحرير بيت المقدس من براثن الصليبية الحاقدة بعد أن عاثوا فيه بغيًا وفسادًا ما يقارب مائة عام، ولقد سجل التاريخ هزيمتهم المنكرة بعد أن خلفوا وراءهم الآلاف من بنى قومهم بين قتيل وأسير وجريح.

وإذا كان للنصر أسباب ومقدمات فلنبحث عن أهم هذه الأسباب والمقدمات التى حققت للبطل صلاح الدين نصره الخالد فى معركة حطين المظفرة.

ويجب ألا يغرب عن البال أن الأسباب التى هيأت للبطل المظفر، وأن المقدمات التى حققت للأمة الإسلامية النصر لم تكن من عندديات صلاح الدين، ولم تكن من إبداعه وابتكاره، وإنما هى متابعته المسيرة التى نهجها الرسول ﷺ فى بدر والأحزاب وفتح مكة.. وسيره على الدرب الذى سار فيه الصحابة الكرام فى معارك القادسية واليرموك.. فمن البديهى أن ينتصر

صلاح الدين، ومن الطبيعى أن يمكنه الله من أعدائه لسلوكه المسالك الذى سلكوه، والتزامه المنهج الذى نهجوه وصدق الله العظيم القائل: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾(الحج: 40 – 41) والأمة الإسلامية – فى كل زمان ومكان – حين تأخذ بهدى هذه الآية الكريمة، وتعمل على تهيئة الأسباب للنصر، وتسعى مخلصة فى تحقيقها، وتسهر جادة على تنفيذها فإن الله جلت حكمته سيحقق لها ما تنشده من عز ونصر، وما تتمناه من مجد وسيادة، لأنه القائل فى كتابه العزيز:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾(النور: 55).

أما سر الانتصار وأسبابه فيعود إلى الأمور التالية:

1 - تقوى الله والاحتراس من المعاصى:

إن تقوى الله، والخشية منه، وحسن الظن به، والالتجاء إليه واجتناب المحارم، وتنفيذ الأمر.. هى أول مقدمات النصر، ومعالمه المبشرة، لأن هذه المعانى الروحية، والقوى المعنوية إن تأصلت فى الجيش المسلم

المحارب جعلت هذا الجيش قوة هائلة لا تعرف الضعف والخور، وطودًا راسخًا لا تزلزله العواصف الهوج، ولا تنال منه حادثات الليالى، والله سبحانه لن يتخلى عن هذا الجيش المؤمن الواثق به، المعتمد عليه، المنفذ لأحكامه مهما كانت حراجة الموقف، ومهما تألب العدو على أمة الإسلام وتآمر، فإذا أعوزت الأمة الإسلامية المجاهدة المعونة المادية، والأسباب الأرضية، فإن الله تعالى سيمدها بمدد السماء، ويقذف فى قلوب أعدائها الرعب، وينصرها من حيث لم تحتسب، لأنه القائل فى محكم كتابه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ (الأنفال: 12 – 13).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الأنفال: 10).

ومن الأمثلة التى نوردها فى احتراس صلاح الدين من المعاصى وقمعه للفواحش والمنكرات موقفه الرائع فى إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون أيام تقلده الوزارة فى مصر، هذه المظاهر كانت متفشية فى المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين، ولاسيما فى المواسم والأعياد كعيد النيروز، إذ كانت المنكرات ظاهرة فيه، والفواحش صريحة فى يومه، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النيروز، ومعه جمع كثير، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على بيوت الأكابر، ويقنع بالميسور من الهبات، ويتجمع

المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ حيث يشاهدهم الخليفة (الفاطمى) وبأيديهم الملاهى، وترتفع الأصوات، وتشرب الخمور فى الطرقات، ويتراش بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجًا بالقاذورات، فإن غالط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإما فدى نفسه، وإما فضح..[1].

أما فيما يتعلق بتقواه وسلوكه العبادى، وخشيته من الله، فإن مرافقه القاضى بهاء الدين يحدثنا الكثير عن جانب التقوى والخشية والعبادة التى شاهدها منه فى حله وترحاله، يقول القاضي: (وكان رحمه الله خاشع القلب، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن خشع قلبه، ودمعت عيناه.. وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضًا للفلاسفة والمعطلة، ومن يعادي الشريعة، وإذا سمع عن معاند ملحد فى مماكته كان يأمر بقتله).

(وكان ناصرًا للتوحيد، وقامعًا لأهل البدع، لا يؤخر صلاة ساعة إلى ساعة، وكان له إمام مواظب على التنقل معه فى غدواته وروحاته، يصلى به الصوات الخمس فى أوقاتها، فإذا غاب هذا الإمام صلى به من فى حضرته من أهل العلم المتجنبين للإثم، وكان يواظب على صلاة السنة، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت من الليل، وإلا صلاها قبل صلاة الصبح).

ويقول أبوشامة صاحب كتاب (الروضتين فى أخبار الدولتين): إنه رآه يصلى فى مرضه الذى مات به وهو قائم، وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاث التى تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل

(1) ذكره المقريزى في مخطوطه.

وصلى.. (وكان يوصى أولاده ومن يعينهم من الولاة بتقوى الله، وامتثال الأموار الإلهية، وحفظ الحقوق واجتناب الظلم، نقل (ستانلى لين بول) عن المؤرخين المسلمين أنه قال لابنه الظاهر ذات يوم: (أوصيك بتقوى الله، فهى رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك، واحذر من الدماء والدخول فيها، والتقلد بها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر فى أحوالها، فأنت أمينى وأمين الله عليها).

فقائد هذه حاله، ورئيس هذه صفاته!.. هل يعقل أن يتخلى الله عنه، أو يخذله فى أحرج المواقف، وأقسى الظروف والشدائد؟

يقول القاضى ابن شداد: (كان إذا سمع أن العدو قد داهم المسلمين خر إلى الأرض ساجدًا لله داعيا بهذا الدعاء: (إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك أنت حسبى ونعم الوكيل..)، ويقول: (ورأيته ساجدًا، ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته، ولا أسمع ما يقول، ولم ينقض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء.. وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجُمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب للإجابة).

وهذا النهج الذى نهجه صلاح الدين هو نهج الخلفاء من قبله، حيث كانوا يأمرون الأجناد بتقوى الله والجيوش من الاحتراس للمعاصى، والأمة بالعمل بأحكام الإسلام.. فهذا عمر بن الخطاب الخليفة الراشد

رضى الله عنه كتب إلى سعد بن أبى وقاص حين وجهه إلى فتح فارس عهدًا هذا نصه: (أما بعد: فإنى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لها بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليس كعدتهم، فإذا ستوينا فى المعصية كان لهم علينا الفضل فى القوة، وإن لا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

فاعلموا أن علكيم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم.. فلا تقولوا: إن عدونا شر منا، فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بالمعاصى- كفار المجوس.

وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

نستنتج من هذا كله أن هذه الأمة الإسلامية لا تنصر على أعدائها فى كل زمان ومكان إلا بتقوى الله، والثقة به، والالتجاء إليه، والعمل بشريعته والامتثال لأوامره، والاجتناب لنواهيه.. فهذا هو طريق النصر، وهذا هو طريق الخلود، وهذا هو طريق الحياة.

2 - الإعداد الكامل والاهتمام البالغ لقضية التحرير:

من الأمور التى أجمع عليها المؤرخون عن صلاح الدين أن اهتمامه لقضية التحرير كان اهتمامًا بالغًا ملك عليه وقته وراحته، واستحوذ على كل ما تتطلبه النفس من أشواق، وما تنشده من اطمئنان واستقرار، يقول مرافقه القاضى بهاء الدين فى وصف حال صلاح فى استنفار المسلمين، واستنهاض هممهم للجهاد فى سبيل الله، ووقفته الباسلة أمام الصليبيين: (كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال)، وقال: (وهو كالوالدة الثكلى، يجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادى: يا للإسلام!.. وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر إلى عكا، وما حل بها من البلاء، وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد فى الزحف، والحث على القتال، ولم يطعم فى ذلك اليوم طعامًا البتة، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب)، وقال: (والسلطان يوالى هذه الأمور بنفسه، ويكافحها بذاته، لا يختلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه).

(وكان حديث الجهاد يشغله دائمًا، ويستولى على قلبه وجوانحه استيلاء عظيمًا بحيث لم يكن له حديث إلا عنه، ولم يكن له نظر إلا فى وسائله، أو اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه)، ومن أجل الجهاد وإعلاء كلمة الله هجر أهله وولده، وظل بعيدًا عنهم فترة

طويلة من عمر الجهاد حتى يخلص الأرض المقدسة من براثن الصليبية الحاقدة، ويطهرها من الغزاة المتوحشين.

أما اهتمامه رحمه الله بالاستعداد الحربى، وتهيئة أسباب القوة المادية فلا يقل عن اهتمامه بالإعداد الروحى والمعنوى، فمن ضروب هذا الاستعداد إنشاؤه ديوانًا للجيش، وكان لصاحب هذا الديوان اختصاصات واسعة، (منها أن ينتقل أثناء المعركة من صف إلى صف للتأكد من سلامة الخيل، وصلاحية السلاح وعدد الجنود، واستعراض ملابسهم وزينتهم وإنهم جميعًا فى حال مرضى).

كما اهتم بصناعة الأسلحة، وبناء السفن، وعمل المفرقعات، وتركيب الألغام والمجانيق وما إليها من أدوات القتال، وقد عنى صلاح الدين بالأسطول، فأنشأ له ديوانًا خاصّاً به يختص بموارده، وطرق صرفها، وإدارة شؤون الأسطول، وأطلق على رئيس الأسطول (أمير البحر) أو (أمير الماء)[1].

وبعد هذا الاهتمام البالغ، والإعداد الكامل.. يكر على العدو بإيمان راسخ، وعزيمة صادقة، فإذا هو مندحر منهزم لا يلوى على شىء.

وهذا سبب فى دحر العدو، والوصول إلى شاطئ النصر والكرامة.

3 - وحدة البلاد السياسية تحت إمرة واحدة:

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين رحمه الله حين انتصب على كرسى الوزارة بمصر، ومات آخر خليفة فاطمى سنة 567هـ أصبح صلاح الدين سلطانًا على مصر، ثم وسع دائرة مملكته، فغزا بلاد النوبة (جنوبى مصر)،

(1) عن كتاب (صلاح الدين) لمؤلفه الدكتور جمال الدين الرمادى ص 57

واحتل بلاد اليمن والحجاز، وأصبح البحر الأحمر كله تحت حكمه وسيادته، ومما ذكرناه كذلك أن (نورالدين) صاحب البلاد الشامية حين وافاه الأجل، عمل صلاح الدين على ضم مملكته إليه بعد أن دخلها الانقسام والاضطراب، فامتلك دمشق وحلب وبقية البلاد الشامية.. وتكونت لصلاح الدين يومئذ وحدة إسلامية، تشمل شمال العراق، (كردستان)، والشام، واليمن، ومصر، وبرقة... وغيرها.

ولاشك أن إرساء هذه الوحدة، وتثبيت دعائمها كان له أكبر الأثر فى تحرير الأرض المقدسة بعد أن كانت تحكم من قبل الصليبيين ما يناهز المائة عام، ومما لا يتجادل فيه اثنان، أن البلاد حين تتوحد إسلامياً، وترتبط ببعضها سياسياً، وحين يتولى إمرتها رجل مؤمن، وبطل محنك، وقائد شجاع، وسلطان مدرب، وأمير مخلص.. فإن النصر للأمة الإسلامية لابد أن يتحقق وأن راية العز الإسلامى ستخفق لا محالة فى أرض الإسلام وبلاد المسلمين.

وهذا ما استطاع أن يفعله البطل المخلص صلاح الدين، قاهر الصليبيين، وطارد الغزاة المتوحشين، ومحرر المسجد الأقصى: ثالث الحرمين، وأولى القبلتين، ومهد عيسى، ومسرى النبى ﷺ، رحمه الله وغفره له، ورفعه فى الآخرة مقامًا عليّاً.

4 - الهدف من القتال إعلاء كلمة الله:

من المقرر فى الشريعة الإسلامية أن المجاهد قبل أن يخوض معارك الجهاد، ويقاتل أعداء الإسلام، عليه قبل كل شىء أن يحرر النية من كل قتال لأجل المغانم أو السمعة أو الحمية أو الرياء.. حتى يكون جهاده

خالصًا لوجه الله، وفى سبيل مرضاته تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[النساء: 76].

وفى الحديث: لما سئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل، شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء.. أيهم فى سبيل الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله)[1].

انطلاقًا من مبدأ القتال لإعلاء كلمة الله خاض صلاح الدين حروبه مع الصليبيين، فقد ذكر القاضى بهاء الدين بن شداد فى كتابه (النوادر السلطانية)، حكاية يؤخذ من مغزاها ومعناها أن قتال صلاح الدين للفرنج كان فى سبيل الله وإعلاء كلمته، قال القاضى: (لأحكين عنه ما سمعت منه.. فى ذى القعدة سنة 584هـ أعطى العسكر دستورًا، وأخذ عسكر مصر فى العودة إلى مصر، وكان أخوه الملك العادل أمير الجيش، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد فى القدس، وقع له أن يمضى إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه ألا يفعل، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى فى عدة يسيرة، والفرنج كلهم فى صور وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت رحمه الله وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا فى خدمته إلى الساحل طالبين عكا، وكان الزمن شتاء، والبحر هائجًا شديدًا، وموجه كالجبال.. فبينما أنا فى ذلك التفت إلى صلاح الدين رحمه الله وقال: أما أحكى لك

(1) البخارى ومسلم.

شيئًا فى نفسى: إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، وأتبعتهم فيها لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت!.. فعظم هذا الكلام عندى.. ثم قال القاضى للبطل: ما ينبغى أن يخاطر المولى بنفسه وبعسكره فى ركوب البحر، والعسكر هو سور الإسلام ومنعته، فقال له صلاح الدين: أنا أستفتيتك، ما أشرف الميتتين عندك؟ فقلت: الموت فى سبيل الله، قال صلاح الدين: غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتتين؟.

فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها، وإلى هذا النفس ما أشجعها وأجرأها، رحمة الله عليه، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه) اهكلام القاضى.

وسبق أن أشرنا إلى استغاثته، والإلحاح فى دعائه حين مقارعته للأعداء، ومنازلتهم.. فمن دعائه فى هذا المجال: (إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبى ونعم الوكيل)، وهذا دليل آخر على أن جهاده كان فى سبيل الله.

ومن الأدلة الأخرى التى تؤكد أن قتاله كان لإعلاء كلمة الله: مواقفه النبيلة التى وقفها مع أعدائه، والمؤرخون جميعا من شرقيين وغربيين، ومسلمين ومستشرقين قد أفاضوا فى تعداد هذه المواقف، وتسجيل هاتيك المآثر.. منها توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والفقراء من الفرنجة، ومنها قبول فدائه للأسرى، وإكرامهم، وعدم التعرض لهم بأذى..

إلى غير ذلك - مما سنذكره فى حينه- من المآثر الكريمة، والمواقف الخالدة التى سجلها التاريخ فى صفحاته، وتلقتها الأجيال عن الأجيال.

ويقول الدكتور (فيليب حتى) فى ذلك: (وكان الفرق جليا بين معاملة صلاح الدين للصليبيين المدنيين من الإفرنج، ومعاملة الإفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة)، ولقد ذكرنا الشيء الكثير فى بحث (سياسة صلاح الدين فى معاملة الصليبيين) عن رحمة صلاح الدين بالأسرى ومعاملته النبيلة للنساء والأطفال والشيوخ، فارجع إليه.

5 - قضية التحرير كانت قضية الإسلام والمسلمين:

ومن الأمور التى قررتها الشريعة الإسلامية: أن الكفار إذا اغتصبوا أرضًا للمسلمين، وجب على جميع المسلمين فى الأقطار الإسلامية أن يقوموا قومة الرجل الواحد، لتخليص الأرض المغتصبة من براثن الأعداء، واستيلاء الكفار، وإذا قصروا فى هذا الواجب فإن المسئولية الإلهية والتاريخية تعم الأمة الإسلامية قاطبة فى مشارق الأرض ومغاربها لتقصيرهم المفرط وتهاونهم الأليم.. وصدق الله العظيم القائل:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾(التوبة: 41).

انطلاقًا من هذه الفكرة، وتحقيقًا لهذا المبدأ جمع صلاح الدين الكردى جموع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم تحت لواء الوحدة الإسلامية ليقفوا وقفة صامدة أمام الصليبية الحاقدة، والاستعمار اللئيم، أمام القوة الباغية التى دنست مهد عيسى (وانتهكت مسرى محمد

ﷺ بوحشية فاجرة وهمجية وضيعة، وتسلط بغيض).

وكيف لا يهب المسلمون هبة الرجل الواحد، وقد جعلهم الإسلام إخوة متحابين متراحمين متعاطفين كالجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؟

وكيف لا.. وقد جمعهم الإسلام تحت راية واحدة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى؟!.

وكيف لا.. وهم أبناء عقيدة واحدة يجمعهم الدين، ويوحدهم القرآن، ويؤلف بينهم الإسلام، وترفرف فوق هاماتهم المرفوعة راية التوحيد؟!.

وكيف لا.. وكل شبر من الأرض يذكر فيها اسم الله هى أرضهم، وكل ديار ترفرف عليها راية الإسلام هى ديارهم؟!

وكيف لا.. وكل واحد من جنود صلاح الدين كان يتمنى أن ينال الشهادة فى سبيل الله، تى إذا خر شهيدًا فى المعركة أو قال: (عجلت إليك ربى لترضى) أو قال: (فزت ورب الكعبة)؟!.

وهكذا انخرط فى جيش صلاح الدين كل مسلم آمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا بغض النظر عن جنسه أو لغته.. لأن القضية التى من أجلها يجاهدون وفى سبيلها يستبسلون ويستشهدون هى قضية المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

(11)

أشهر سمات القائد الناصر صلاح الدين

صفات صلاح الدين الأساسية

بعد أن عرضنا للمراحل التى مر بها صلاح الدين منذ نشأته حتى حروبه مع الصليبيين إلى أن توفاه الله وأخذه إلى جواره، بعد التعرض لكل هذا يحسن بنا أن نتحدث عن الصفات الأساسية التى تحلى بها هذا البطل، وأن نكشف النقاب عن عبادته المخلصة، وأخلاقه الشخصية، ومزاياه العالية.. التى خلدت اسمه فى التاريخ، وجعلت له ذكرًا فى العالمين.

وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق:

1 - تقواه وعبادته:

لاشك أن تقوى الله وعبادته، والخشية منه، وحسن الظن به، والاعتماد عليه، هى أول ما يجب أن يمتاز به المسلم، وأفضل ما ينبغى أن يتصف به، لأن الاعتصام بالسند الأكبر، والاتصال بالله، والاستعانة به فى كل ما ينوب ويروع، تجعل من المسلم أسدًا كاسرًا لا يعرف الهزيمة، وبطلاً مقدامًا لا يهاب المنية، وشجاعًا كرارًا لا يخشى جبارًا، ولا يهاب عدوًّا، وهذه السمة من الإيمان والعبادة، وهذه الظاهرة من الإقدام والشجاعة، قد

تحققت فى القائد البطل صلاح الدين، وإليكم ما كتبه القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد الذى عاصره واجتمع به وعرف أخباره، يقول فى كتابه (سيرة صلاح الدين) ما يلى مع بعض التصرف والاختصار:

(وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وقد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء.. وكان قد جمع له الشيخ (قطب الدين النيسابورى) عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلِّمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم منذ الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه.

وأما الصلاة: فإنه كان رحمه الله شديد المواظبة عليها حتى إنه ذكر يومًا أنه من سنين ما صلى إلا جماعة.. وكان يواظب على السنن والرواتب، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ من الليل، وإلا أتى بها قبل قيام الفجر، ولقد رأيته قدس الله روحه يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائمًا، وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى.

وأما الزكاة: فإنه مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل: فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه ملك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضلة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، وجرمًا[1] واحدًا ذهبًا، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئًا من أنواع الأملاك.

---

(1) الجرم: النواة من التمر، والمعنى ترك من الذهب ما يزن النواة.

وأما صوم رمضان: فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه.. وشرع رحمه الله فى قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف فى السنة التى توفى فيها، وكان الطبيب يلومه على القضاء وهو لا يسمع ويقول: لا أعلم ما يكون، فكأنه كان ملهمًا ما يراد به رحمه الله تعالى.

وأما الحج: فإنه كان لم يزل عازمًا وناويًا له سيما فى العام الذى توفى فيه، ولكن لم يتيسر له بسبب ضيق الوقت، وخلو اليد.. فأخره إلى العام المقبل فقضى الله ما قضى، وهذا شيء اشترك فى العلم به العام والخاص رحمه الله.

وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم، ويستجيد إمامه، ويشترط أن يكون عالمًا يعلم القرآن الكريم متقنًا لحفظه، وكان رحمه الله خاشع القلب غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه، وتدمع عينه فى معظم أوقاته.. وكان رحمه الله شديد الرغبة فى سماع الحديث وإذا سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره، وسمع عليه فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده وخاصته المختصين به.

وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضًا للفلاسفة والمعطلة، ومن يعاند الشريعة وإذا سمع عن معاندة ملحد فى مملكته كان يأمر بقتله، وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه، وكان إذا سمع أن العدو قد دهم المسلمين، فكان يرى ساهرًا مهتمًا مغتمًا ساجدًا لله داعيًا فى سجوده بهذا الدعاء: (إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك أنت حسبى ونعم الوكيل).

ويقول القاضي بهاء الدين: ورأيته ساجدًا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته، ولا أسمع ما يقول، ولم ينقض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء.

لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه ومشاعره وسائر جوانحه استيلاء عظيما وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجُمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة. اهـ بتصرف.

2 - عدله ورحمته:

يقول القاضي بهاء الدين: (وكان رحمه الله على جانب كبير من العدل والرحمة والرأفة ونصرة الضعيف على القوى.. وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا.. فما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته واعتنى بقصته).

ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجًا أو غضاضة، لأن الحق في نظره أحق أن يتبع، وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى (سنقر) واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق وعندما تقدم التاجر المدعى بظلامته إلى القاضي ابن شداد أظهر صلاح الدين حلمًا كبيرًا ورضى أن يقف موقف الخصم من صاحب

الدعوى، وأحضر كل من الطرفين من لديه من شهود، وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه، حتى اتضح فى النهاية -عند القاضى- كذب الرجل وإدعاؤه الباطل على صلاح الدين ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المدعى يخرج من عنده خائبًا فأمر له بخلعة ومبلغ من المال، ليدلل على كرمه فى موضع المؤاخذة مع القدرة.

ومما يدل على عدله وسهره على مصالح الرعية إزالته بعض المكوس والضرائب تخفيفًا عن الناس، ورفعًا للظلم عن كواهلهم.

وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التى أبقاها ذكرًا جميلاً للدين والدنيا (أنه أزال كثيرًا من المكوس والضرائب التى كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع و يشترى مما دق أو جل، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس)، فألغى صلاح الدين هذا كله.

وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف الدينار تفرض على كل حاج فى طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة ومساعدة الناس هناك، وقد اشتط الفاطميون فى جمع هذه الضرائب، ومن يعجز عن دفعها يعذب عذابًا أليمًا.. ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز، ولذلك أراح الحجاج من عنت الجباة، ولاسيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لا يستطيعون دفع ما يؤخذ منهم (فكفى الله المؤمنين على يد هذا السلطان العادل حادثًا عظيمًا وخطبًا أليمًا).

3 - شجاعته وصبره:

أما شجاعته رحمه الله: فكانت مضرب المثل، وقد شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء، ولم يكن هذا البطل كأولئك الملوك والقادة الذين يتربعون على عرش الزعامة وليس لهم عمل سوى أن يصدروا الأوامر إلى أتباعهم، ويقذفوهم إلى ساحات الوغى، فإن أصابوا نصرًا فالذكر لهم، وإن كانت الهزيمة والبلاء فهم فى مراكز قيادتهم آمنون، ولم يكن صلاح الدين من ذلك الصنف من الملوك والقادة، وإنما كان إذا أراد منازلة العدو تقدم الصفوف، وخرج مع الجيش ليصحبه فى ساحة القتال، بل شاركهم مخاطر الحرب، وثبت معهم فى أحلك الظروف، وأشد الأزمات.

ومن الأمثلة على هذه الشجاعة الفائقة التى تحلى بها هذا البطل أنه بعد أن استولى على (حصن كوكب) سنة 584هـ، سمح للعسكر المصرى بالانصراف للراحة، وكان ذلك العسكر بقيادة أخيه (الملك العادل)، فقرر صلاح الدين أن يودعهم حتى (عسقلان) ثم يتفقد البلاد الساحلية حتى (عكا)، ولم يوافق المستشارون من صلاح الدين على تلك الخطة، لأنه بعد أن يودع العسكر المصرى فى عسقلان سيبقى هو فى عدد قليل من الجند، فكيف يأمن على نفسه أن يتنقل من مدينة إلى أخرى من مدن الساحل ليتفقدها وهو دون جيش يحميه، لاسيما وأن جموع الصليبيين كانت كبيرة فى مدينة (صور).

لذلك أشار مرافقو صلاح الدين – ومنهم القاضى ابن شداد– أشاروا عليه ألا يفعل ذلك، واعتبروا عمله (مخاطرة عظيمة)، ولكنه أصر على

رأيه، ومضى فى طريقه إلى (عكا) بحذاء الساحل بعد أن صرف العسكر المصرى دون أن يخاف عدوّا أو يخشى خطرًا، وكان الفصل شتاء، والبرد قارصًا والبحر هائجًا، فنظر صلاح الدين إلى أمواج البحر الهادرة، ثم التفت إلى القاضى ابن شداد وقال: (أما أحكى لك شيئًا فى نفسى؟ إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد (بين أبنائه) ووصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، وأتبعتهم (أى الصليبيين) فيها، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت!!).

وكان رحمه الله رابط الجأش، ثابت العزيمة لا تخور قواه إذا أحاطت به الشدائد، أو نزلت فيه ساحته الأحداث.. ومن ذلك ما يرويه القاضى ابن شداد: (إنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا أن وصل فى البحر فى ليلة واحدة أكثر من سبعين مركبًا صليبيّا، وهو يعدهم مركبًا بعد آخر من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، ومع ذلك فإن صلاح الدين كان لا يزداد إلا قوة نفس).

يقول ابن شداد: (ما رأيته استكثر العدوّ أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط..) وقد حدث فى بعض المواقع التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين فى مرج عكا أن هُزم المسلمون وسقط علمهم على الأرض، ومع ذلك (ظل صلاح الدين ثابت القدم فى نفر يسير، حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس، ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى انتصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك اليوم).

وقد حدث فى ليلة ممطرة عاصفة، وصلاح الدين يرابط على مرج عكا

أن سقطت خيمته، وكان من الممكن أن تقتله، ومع ذلك لم يزده ذلك إلا رغبة فى الجهاد، وإصرارًا على القتال.. وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن هذا البطل كان يحتفظ بروح معنوية عالية، وثقة بالله قوية، وشجاعة فى الحروب فائقة.. ونترك الكلام للقاضى بهاء الدين ليعبر لنا عما لمسه فى صلاح الدين من حب للجهاد، وتضحية فى سبيل الله، يقول القاضى بهاء الدين: (لقد كان حبه للجهاد، والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا فى آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلى ما يذكره ويحث عليه، لقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه، وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة).

وقد حدث أكثر من مرة أن قاد صلاح الدين جيوشه وهو مريض، وأخذ ينظم جيوشه ويقاتل أعداءه وهو يعانى آلام المرض، وابن شداد يتعجب من ذلك فيرد عليه صلاح الدين قائلاً: (إذا ركبت يزول عنى ألمها).

ومما يدل على صبره واحتسابه هذا الحادث الذى رواه ابن شداد فى كتابه، هذا الحادث يتلخص فى أن صلاح الدين كان له ابن اسمه (إسماعيل) فجاءه خبر وفاته فتجلد وصبر واحتسب ولم يحدث أحدًا، ولم يظهر عليه شىء من الألم سوى دمعة ذرفت من عينه، يقول ابن شداد: (فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب، وإلى أى غاية بلغ هذا الرجل، اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب، ووفقته له، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين)[1].

(1) هذه المقتطفات من كتاب النوادر السلطانية لابن شداد ص50.

4 - حلمه وعفوه:

ومن الأخلاق الكريمة التى تحلى بها هذا البطل خلق الحلم والعفو، فكثيرًا ما يقابل الإساءة بالإحسان، والغلظة بالحلم.

من ذلك ما يرويه ابن شداد من أن الناس كانوا يتزاحمون على صلاح الدين لعرض شكاويهم، وربما داسوا على أطراف ثيابه، والمفرش الذى يجلس عليه بأقدامهم وهو لا يتأثر لذلك، وينظر فى شكاويهم، ويمضى فى قضاء حاجاتهم فى أناة وحلم، وقد كان يحدث أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلظون له القول، ويستعلون عليه بالكلام، فيتقبل قولهم بالبشر والقبول.

وفى ذات يوم مر عليه القاضى ابن شداد وهو ممتط بغلته، وكان اليوم مطيرًا كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان يرتديه من ملابس، ومع ذلك رفض أن يسمح لابن شداد بالانزواء خجلاً، وابتسم وقربه منه حتى يزيل ما فى نفسه من خجل وألم.

وثمة قصة يرويها ابن شداد – وهو شاهد عيان فيها – ليستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه، فيذكر أنه حدث أثناء الصراع بين صلاح الدين (وريتشارد) حول يافا أن عصى بعض عساكر صلاح الدين الأوامر الصادرة منه إليهم، وأجابوه (بكلام فيه خشونة)، فتركهم صلاح الدين وانصرف كالمغضب حتى خيل لمن رآه أنه قتل جماعة من العساكر فى ذلك لما أتوه من أعمال وأقوال، ولم يزل صلاح الدين سائرًا حتى وصل إلى قيادته وحوله الأمراء يرعدون خيفة، وكل منهم يعتقد أنه مسخوط عليه، حتى ابن شداد مع عظم مكانته عند صلاح الدين، يقول ابن شداد: (لم تحدثنى

نفسى بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعانى)، فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه فى أكل كمية من الفاكهة كانت قد وصلته من دمشق، فحضر الأمراء وهم خائفون، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا على عزم الرحيل للقتال كأن لم يحدث شيء أصلاً، ومما كتب المؤرخون فى الحلم أن رجلا تقدم إليه -وهو تعب ضجر- بإحدى الشكاوى، فطلب منه صلاح الدين أن ينتظر قليلا ويؤخر شكواه غير أن الرجل لم يشأ الانتظار، وطفق يقرأ شكواه على مسمع من صلاح الدين، وأدنى الشكوى من بصره فقال له صلاح الدين: إن الدواة غير موجودة هنا حتى أوقع لك هذه الشكوى، فما كان من الرجل إلا أن أسرع بإحضار الدواة وقربها من صلاح الدين وطلب منه التوقيع، فلم تثر ثائرته، ولم يدركه الغضب، بل تمسك بأهداب الحلم والعفو، وحمل قلمه ووقع على شكوى الرجل.

ولم يكن حلمه رحمه الله قاصرًا على أتباعه ورعيته وجنده، وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربونه ويحاربهم، وقد أفضنا فى سرد الأمثلة عن هذا العفو، وتلك السماحة.. فى (فصل السابق) من هذا الكتاب حين تطرقنا لبحث (سياسة صلاح الدين فى معاملته مع الصليبيين) فارجع إليه تجد ما يروى الظمأ ويشفى الغليل.

5 - مروءته وسماحته:

أما عن المروءة والسماحة التى تحلى بهما صلاح الدين فقد أجمع المؤرخون قديمًا وحديثًا أن المعاملة الحسنة التى عامل بها صلاح الدين

أعداءه لم يسبقه بها أحد فى تاريخ الحروب والفتوحات، وإليكم شهادة المؤرخين الغربيين فى سماحة هذا البطل ومروءته النادرة فى التاريخ.

يروى (الأمير على) عن (مل) المؤرخ الإنجليزى قوله: (ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى إنطاكيا المسيحية، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب).

ويقول (الأمير على) أيضًا: لقد وصف (ميشود) حال أولئك الذين طردوا من القدس، وما لاقوه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية، فقد تضور عدد منهم جوعًا فى سوريا، وهم على أشد ما يكونون من البؤس، وقد أغلقت طرابلس أبوابها فى وجوههم – ثم قال ميشود–: وقد اضطرت إحدي السيدات أن تلقى بولدها فى اليم وهى تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤوها)، وقيل للسلطان صلاح الدين، والبطرك خارج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جدا لم يصرفها فى فداء الفقراء والمساكين، بعد أن وصف –ستانلى– البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان، وقيل للسلطان: لِمَ لَمْ تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين؟

فقال لهم السلطان: لا آخذ منه غير العشرة دنانير، ولا أغدر به، وفى ذلك يقول (ستانلى لين بول): (قد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقى على راهب مسيحى درسًا فى معنى البر والإحسان).

ويروى القاضى ابن شداد أنه كان راكبًا ذات يوم فى صحبة صلاح الدين على مقربة من خطوط الصليبيين فإذا بأحد الجنود المسلمين يحضر

امرأة صليبية تبكى فى حرقة وتدق على صدرها دقا متواصلاً، فلما سأل صلاح الدين عن قضيتها عرف أن ابنتها الصغيرة فقدت منها، وعندئذ رق ودمعت عيناه، وحركته المروءة، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع لها ثمنها ويحضرها، وهكذا لم تكد تمضى ساعة حتى أحضروا الطفلة الصغيرة، فجرت الأم نحو طفلتها لرؤيتها، وأخذت (تعفر وجهها فى التراب، والناس يبكون على ما نالها، وهى ترفع طرفها إلى السماء، ولا تعلم ما تقول، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى معسكرها).

ويروى القاضى ابن شداد هذه القصة الرائعة التى تنبئ عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة يقول ابن شداد: (لما مرض الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد – أكبر خصوم صلاح الدين– بعث إليه صلاح الدين ورفه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج، وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم المسلمين نحوهم، ومن هذه الرحمة التى يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذين مسهم الجوع وأقعدهم العجز، وأصابهم البلاء.. والمجمع عليه لدى المؤرخين أن صلاح الدين لم يستغل هذا العجز لإكراههم على الدخول فى الإسلام، ويقول (أرنولد) فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام): لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سببًا فى التجاء الكثير من الصليبيين إلى الإسلام، والدخول فى الإسلام.

وإذا أردنا أن نوازن بين التعصب الصليبى الحاقد على الإسلام والمسلمين، وبين التسامح الإسلامى الصافى على المسيحية والمسيحيين،

وجدنا الفرق بينهما واضحًا والبون شاسعًا.. وذلك لأن الصليبيين لما هاجموا العالم الإسلامى كانوا مشبعين بروح التعصب المقيت، والحقد الأسود، لا يصدهم عن التنكيل بالمخالفين لهم فى الدين أى رادع من رحمة أو ضمير أو إنسانية.. وكانوا يعتدون على أى شخص تمكنوا منه، كبيرًا أو صغيرًا، رجلاً كان أو امرأة، سواء كانوا مقاتلين أو مسالمين.

وقد بدا تعصب الصليبيين المقيت، وقساوتهم البالغة فى مذبحة المسجد الأقصى التى قتلوا فيها ما زيد عن السبعين ألفًا ممن التجأ إليهم من العجزة والأطفال والنساء من المسلمين المسالمين.. وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين عندما استرجع بيت المقدس، فقد منع الاعتداء على كل صليبى بعد أن استسلمت الحامية الصليبية ومنحها الأمان، وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الإسلامى حتى وصلوا آمنين إلى مدينة صور.

***

النقد الذى وجه إلى صلاح الدين:

يثير بعض المؤرخين المعاصرين النقد الشديد على سياسة صلاح الدين فى معاملته الرحيمة للصليبيين وفى تسامحه المفرط لأعداء الإسلام والمسلمين.

وهذا النقد يتلخص فى الأمور التالية:

1 - كان على صلاح الدين أن يعامل الصليبيين بالمثل، كما قتلوا أسرانا ونكلوا بهم، كان عليه أن يقتل أسراهم ويستأصل شأفتهم من الأرض، تحقيقًا لمبدأ المعاملة بالمثل ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾(الشورى: 40) ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤ ﴾(البقرة: 194).

2 - السماح للأسرى أن يجتمعوا ويتمركزوا فى مدينة (صور) وهذا مما شجعهم أن يشنوا على صلاح الدين حربًا صليبية ثالثة اعتمادًا على تجمعهم وعلى الإمدادات التى ترد إليهم من أوروبا، وكان من نتيجتها تسليم (عكا) للصليبيين.

3 - أوقعت هذه الاضطرابات التى تلت معركة حطين البلاد الإسلامية فى بلية كبيرة، وجرت على صلاح الدين متاعب كثيرة، وأوقعت الدولة الإسلامية فى خسائر فادحة، وحالت دون المد الإسلامى فى الشرق والغرب.

هذه أهم الانتقادات التى وجهها مؤرخو العصر إلى البطل الفاتح صلاح الدين، ولكن الكثير من المؤرخين يدافعون عن صلاح الدين، ويبررون عمله، ويردون على كل نقد وجه إليه، لأن تسامحه الذى اتصف به، ومعاملته الرحيمة التى تميز بها كانت مبنية على أسس إسلامية، وقواعد شرعية.. فما دام الإسلام خير ولاة الأمور بين المن والفداء والقتل والاسترقاق فى معاملة الأسرى، فلصلاح الدين أن يختار ما شاء بما يحقق المصلحة للإسلام والمسلمين تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾(محمد: 4).

علما بأن صلاح الدين (أمر بفريق من الأسرى يبلغ عدده 200 فقتلوا لأنهم كانوا رؤوس الشر، ومثيرى الفتن، وكانوا دائما يعملون على الإيقاع بالمسلمين، بل كانوا لا يوفون بعهد ولا ميثاق، وأنهم هم الذين كانت تنقاد إليهم العامة، وأنهم الفئة التى كانت تعادى المسلمين، وتبالغ فى إيذائهم والتنكيل بهم أشد المبالغة من طريق التعصب الدينى)[1].

وصلاح الدين بعد أن انتصر على الصليبيين فى حطين أحضر الأسير (أرناط) صاحب الكرك وضرب عنقه بيده تنفيذًا لوعده وبرّا بقسمه ولسوء معاملته للمسلمين، وتطاوله على مقام النبوة.

ومن هذه الشواهد التى سقناها يتبين لنا أن هذا البطل كان حازمًا فى موطن الحزم، ومتسامحًا فى موطن التسامح.

(1) عن كتاب (حياة صلاح الدين) لأحمد بيلى ص162، بتصرف.

أما أن صلاح الدين قد سمح للأسرى فى أن يقيموا فى (صور) ويتمركزوا فيها.. فالحقيقة أن صلاح الدين لم يأذن بهذا إلا بعدأن أخذ عليهم العهود والمواثيق فى أن يحافظوا على العهد، وألا يرجعوا إلى الحرب، وألا يحدثوا ما يخل بالسلام، ولكن القوم نقضوا عهودهم، وأخلوا بوعودهم، وأخفروا كل ذمة أعطوها للسلطان صلاح الدين، وربما كان بحسبان هذا البطل المتسامح أن أولئك الصليبيين سيقدرون هذا العرفان، ويحفظون هذا الجميل ويعيشون مع المسلمين بكل استقرار وسلام:

وإن كان من الأفضل والأحوط فى حق صلاح الدين أن يوزع هؤلاء الأسرى على البلاد الإسلامية هنا وهناك حتى يتبدد شملهم، ويتفرق جمعهم، وحتى يكونوا فى الوقت نفسه تحت نظر المسلمين، ورقابتهم المستمرة.

أما أن تسامح صلاح الدين قد أوقع البلاد فى اضطرابات، وجر عليها خسائر ومتاعب.. فللحقيقة نقول: إن صلاح الدين بنى تسامحه - كما ذكرنا- على أسس إسلامية، وكان مصيبًا فيما فعل، وهل عنده علم الغيب فى أن أوروبا ستشن هجومًا كبيرًا بمعاونة أولئك المتمركزين فى (صور) على بيت المقدس فى حرب صليبية ثالثة؟ ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، وأخذ بالأهبة الكاملة:

فنحن لا ندعى العصمة له مادام من البشر، وكما يقول الإمام مالك: (ما منا إلا من رد ورد عليه، إلا صاحب هذا القبر) وأشار إلى قبر النبى ﷺ، والمجتهد إذا أخطأ له أجر واحد، وإذا أصاب له أجران، وصلاح الدين مأجور على كل الأحوال، سواء أخطأ أو أصاب رحمه الله وأجزل مثوبته.

6 - حبه للشعر والأدب:

كان صلاح الدين رحمه الله رجلاً متكامل الشخصية، فكما أنه يحب الجهاد ويكرس أكثر وقته له فإنه كذلك لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر الذى لا يقعده عن واجب القتال لإعلاء كلمة الله، من ذلك ما يذكره ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان (حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيب الفكاهة، حافظًا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفًا بسيرهم وأحوالهم، حافظًا لأنساب خيلهم، عالمًا عجائب الدنيا ونوادرها).

ومن هذه الجوانب التى تنبئ عن شخصيته الفذة، وتكشف عن عقله الكبير، استحسانه للأشعار الجيدة، وترديدها فى مجالسه، فقد ذكر ابن خلكان فى تاريخه، أن صلاح الدين كان يستحسن الأشعار الجيدة، ويتردد إليه الشعراء لينشدوه إنتاجهم، وإنه كثيرًا ما كان يردد قول الشاعر:

وزارنى طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولى به فرحًا ... وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا

ثم انتبهت وآمالى تخيل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

وذكر صاحب وفيات الأعيان أنه كان يعجبه قول ابن المنجم فى خضاب الشيب وهو:

وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ناصله[1]

(1) أى حين يخرج من الخضاب.

ولكنه مات الشباب فسودت   على الرسم من حزن عليه منازله

وذكر العماد الكاتب أن السلطان صلاح الدين فى أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه هذين البيتين:

أيها الغائبون عنا وإن كنـ   ـتم لقلبى بذكركم جيرانا

إننى مذ فقدتكم لا أراكم   بعيون الضمير عندى عيانا

وذكر صاحب الروضتين: أن صلاح الدين كان مغرما بديوان أسامة بن منقذ، وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده فى مناساباته، وكان كتاب الحماسة من حفظه، قالوا: لما مات (توران شاه) أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، حزن عليه حزنًا شديدًا وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثى، وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه.

وكان يضمن رسائله الشعر قال العماد: (وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه، مبشرة بطيب أنبائه، فمنها كتاب ضمنه هذا البيت:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم   ولقد رضيت اليوم بالمسموع

ويذكر العماد الكاتب: (أن صلاح الدين كالن مغرمًا بالأدب ومحبًا لأهله، كما كان يعقد المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء، كهذا المجلس الذى عقده بعد أن فتح بيت المقدس، واستمع فيه إلى ما قاله الشعراء فى هذا الفتح المبين)، ولقد مر بنا بعض القصائد من هذا الشعر حين تكلمنا فى الفصل السابع عن النصر الأكبر الذى أحرزه البطل صلاح الدين فى معركة حطين.

وكان له رحمه الله ذوق أدبى ينقد به ما يعرض عليه من الشعر، كتب نشو الدولة أحمد بن نفاد أبياتًا يدعو بها العماد إلى دمشق، (وقد دخل أوان المشمش المعهود، وهو موسم دمشق المشهود) أولها:

دعا الناس للذات مشمش جلق   فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق

قال العماد: فعرضت أبياته على السلطان، قال السلطان للعماد: فما قلت فى جواب هذه الأبيات: فأنشدته ما قلت:

هلموا نسابق نحو مشمش جلق   وثم كما نهوى على الأكل نلتقى

بدت بين أوراق الغصون كأنها   كرات نضار[1] فى لجين مطرق[2]

قال العماد: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق أخضر، واللجين أبيض، فقلت بعد تعديل:

بدت بين أوراق الغصون كأنها   (كرات نضار بالزمرد محدق)

فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه، لأن نقد السلطان كان فى موضعه.

7 - زهده وكرمه:

كان رحمه الله العزوف عن الدنيا ومباهجها، وزينتها وطيباتها، بنى له أتباعه مرة منزلا أنيقًا فى دمشق فلم يكترث به، ولم ينظر إليه طويلا بل قال: (ما كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الأبد، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب

(1) النضار: الذهب.

(2) اللجين: الفضة.

الموت، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه)[1].

لم تفتنه أموال ملكه الواسع، ولم تغره أبهة الملك، وعظمة السلطة، فمن أقواله: (إن المال والتراب سيان عندى) ومما يدل على زهده فى الدنيا، وعزوفه عن مباهج الحياة: إنه حين توفى لم يجد الناس لديه مالاً، ولم يخلف ضيعة، ولا قصرًا، وسبق أن ذكرنا حين تكلمنا عن تقواه وعبادته فى هذا الفصل أن قاضيه بهاء الدين المعروف بابن شداد لما تكلم عن عقيدته وتعبده ذكر من جملة ما ذكر (... وأما الزكاة: فإنه مات ولم يحفظ ما تجب به الزكاة).

وأما صدقة النفل: فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه ملك ما ملك، ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، وجرمًا واحدًا ذهبًا، ولم يخلف ملكا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة، ولا شيئًا من أنواع الأملاك.. فهل رأيتم فى تاريخ السلاطين، والزعماء عظيمًا زاهدًا كمثل هذا السلطان العظيم؟، إنه الرجل الفذ فى التاريخ إنه القائد الذى باع دنياه بآخرته واستعاض عن العاجلة بالآجلة، وما عند الله خير مما يجمعون.

أما كرمه وجوده رحمه الله: فكان فى الذروة، (فكان لا يرد سائلاً، ولا يصد نائلاً، ولا يُخجل قائلاً، ولا يخيب آملاً)، يقول ابن شداد: (إنه اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق،

(1) عن كتاب (حياة صلاح الدين) لأحمد بيلى ص214.

ولم يكن فى الخزانة ما يسلى الوفود، فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال، وفضضنا منها عليهم، ولم يفضل منه درهم واحد.

ويقول ابن شداد: (كان رحمه الله يعطى في وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئًا من المال خوف أن يفاجئهم مهم من الأمور)، ويستطرد قائلاً: (إنه سمعه قال فى معرض حديث جرى: يمكنم أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله).

وكان رحمه الله يكرم كل من يفد إليه من أرباب العلم وذوى الأقدار، ويوحى إلى رجاله ألا يغفلوا عمن يجتاز بالخيام من رجال العلم والتصوف، وقد مر به رجل مرة يجمع بين العلم والتصوف، وانصرف بعد لقاء الناصر صلاح الدين، ومضى على ذلك ليال، وسأل السلطان عنه فعلم أنه مسافر، فظهر على وجهه أمارات العتاب، وقال: كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا؟ وشدد النكير على ذلك، فكتب إليه كاتبة كتابًا عنه، وكان كاتبه على معرفة به، فطلب منه الرجوع لمقابلة السلطان، فحضر الرجل واجتمع بصلاح الدين الذى رحب به وانبسط معه فى الحديث، وأبقاه فى ضيافته أيامًا، ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه دابة يركبها، وثيابًا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وجيرانه، وبعض المال، فانصرف الرجل عنه وهو فى غاية السرور والانبساط.

وكان عندما يعلم بورود أموال إليه يجود بأضعافها على المحتاجين

والمجاهدين قبل أن تصل إليه، وما عُقر فى سبيل الله فرس أو جرح إلا وعوض صاحبه مثله، وزاده من فضله فضلة، ولم يكن له فرس يركبه إلا وقد وهبه أو وعد أن يهبه إلى أحد رجاله، وكان عدد ما وهب من الأفراس فى عكا فقط يزيد على عشرة آلاف فرس، وكان لا يرتدى إلا ما يجمل فى عينيه من ملابس الكتان والقطن والصوف حتى إذا وجد محتاجًا تبرع بها إليه)[1].

ولعل الدافع إلى هذا البذل والعطاء بدون حساب أنه كان يعتبر نفسه جنديًا من جنود الإسلام، مدعوًا إلى معارك يخوضها مع الأعداء، فهو لا يدرى هل يعود؟ وإذا كان لا يعلم هل يعود، فلماذا تبقى هذه الأموال ولم توزع على أهل الحاجة والاستحقاق؟.

وهناك أمر آخر ذكرنا طرفًا منه فى أول هذا البحث نحن بصدده، وهو أن هذا السلطان البطل لم يكن من هؤلاء الذين تستهويهم زينة الدنيا ومباهجها، ولم يكن يقعد فى قصره ثم ينصب لقواده الرايات، ويرسل البعوث وهو رافل بين خدمه وحشمه، ولم يكن يصدر الأوامر وهو يتيه فى عظمة الملك وأبهة السلطان، وإنما كان فارسًا مقدامًا، وبطلاً شجاعًا: قضى أكثر عمره على متن جواده، وإذا أراد الراحة تمدد فوق الرمال، واستظل تحت الخيام.. لاترقد عينه ولا تستريح نفسه.. حتى يرى المسلمون فى العزة يرفلون وعلى سلم الأمجاد والوحدة والقوة يصعدون.. فهل يلام هذا البطل بما ينفق من أموال، وما يتصف به من بذل وسخاء؟.

(1) عن كتاب (صلاح الدين الأيوبى) للدكتور جمال الدين الرمادى ص 96 من كتاب الشعب مع شىء من التصرف.

8 - حركته واهتمامه بأمر الجهاد:

أما حبه للجهاد وشغفه به واهتمامه له: فكان على جانب كبير من الحب والشغف والاهتمام بالجهاد، فكان لا يرقد له جفن، ولا يستريح له بال، ولا يطيب له طعام.. حتى يرى بلاد الإسلام قد تحررت من ربقة الصليبية الحاقدة، وانتصرت على كل مستبد، وطاغية جبار.. ولكى نعرف جليًا مبلغ اهتمامه، وقدر مسئوليته فى أمر الجهاد والتحرير، فلنستمع إلى ما يقوله مرافقوه، وما كتب عنه الذين شاهدوه.. يقول ابن شداد: (كان رحمه الله عنده من أمر القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال)، وقال: (وهو كالوالدة الثكلى، يجول بنفسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادى: يا للإسلام، وعيناه تذرفان بالدموع، وكلما نظر إلى عكا، وما حل بها من البلاء، وما يجرى على ساكينها من المصاب العظيم، اشتد فى الزحف، والحث على القتال، ولم يطعم فى ذلك اليوم طعامًا البتة، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب).

ومما قاله كذلك: (والسلطان يوالى هذه الأمور بنفسه، ويكافحها بذاته، ولا يتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه).

الله أكبر! هكذا فليكن الاهتمام بشأن الجهاد.. الله أكبر! هكذا فلتكن التضحية فى سبيل الله.. الله أكبر!.. هكذا فلتكن الانطلاقة لأجل التحرير والوقوف لقضية الإسلام لو لم يكن لصلاح الدين سوى هذه المواقف

لكفته فخرًا وشرفًا وخلودًا.. ويستطرد ابن شداد في وصف اهتمامه بأمر الجهاد قائلاً: (ولقد كان رحمه الله حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة، ولقد وقعت عليه في ليلة ريحية على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا).

ومما يدل على جهاده المتواصل، وحركته الدائمة، واندفاعه الكامل لإعلاء كلمة الله أنه قال مرة للقاضي ابن شداد وهو يركب البحر: (أما أحكي لك شيئًا من نفسي؟ أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، وأتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.. ثم قلت -أي ابن شداد-: ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الإسلام ومنعته، فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه، فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتتين؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتتين، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصر دينك، وجاهد رجاء رحمتك، فارحمه)[1].

(1) من كتاب (النوادر السلطانية) للقاضي ابن شداد ص 18.

تلكم أهم الصفات النبيلة، والخصال الكريمة التى تحلى بها البطل الخالد صلاح الدين، وما أحوج قادة اليوم إلى مثل هذه الصفات، وإلى المزيد من هذه الخصال، عسى أن ينهضوا بأمتهم إلى المستوى اللائق من المسئولية فى بناء دولة الإسلام، وعسى أن يصلوا إلى النصر فى معاركنا القادمة مع إسرائيل، وعليهم أن يستعيدوا ما ذوى لهذه الأمة من عز، وما اندثر لها من مجد وما ذلك على الله بعزيز.

ما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى بطل كصلاح الدين فى عبادته وتقواه، وفى عدله ورحمته، وفى شجاعته وصبره، وفى حلمه وعفوه، وفى مروءته وسماحته، وفى زهده وكرمه وفى حركته وجهاده.

ويوم تكتمل هذه الصفات فى حاكم مسئول أو قائد بطل.. فليرتقب المسلمون النصر الأكبر، والعزة المنيعة والدولة الإسلامية العتيدة.

***

(12)
أشهر الإصلاحات التى حققها الناصر صلاح الدين

قد علمنا أن السلطان صلاح الدين قد قضى معظم وقته، وكله حروب طاحنة، ومعارك مستمرة بينه وبين الصليبيين، وهذه الحروب - ولا شك- حالت بينه وبين ما يدور فى خلده من مشاريع كبرى ، وإصلاحات شاملة ، على أنه رغم هذا قام بأعمال عمرانية، وحقق مشاريع إصلاحية، يذكرها له التاريخ بملء الافتخار والإعجاب.

وإذا كنا فى هذا الفصل بصدد تعداد هذه الإصلاحات، وتبيان تلك المشاريع فلنذكر أميزها وأهمها لتكون كتابتنا عن هذا البطل كتابة شاملة، وإحاطتنا بأخباره إحاطة مستوفية، عسى أن نكون قد أصفنا، وأدينا ما علينا له من واجب وحق.

ويمكن أن نحصر أهم هذه الإصلاحات فى الأمور التالية:

1 - الإصلاح العمرانى:

من هذه الإصلاحات أنه اهتم بسور القاهرة، فلما كان قد تهدم أكثره، وصار طريقًا لا يرد داخلاً ولا خارجًا، فقد سورها وانتدب للإشراف على عمارة السور (الطواشى بهاء الدين قراقوش) (وقياس هذا السور من أوله إلى آخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاث مائة وذراعان)، وهذا السور يمتد

حول المدن التى كونت مدينة (القاهرة) فى عهده، هى: مدينة (الفسطاط التى أنشأها عمرو بن العاص، ومدينة (العسكر) التى أنشأها صالح بن على العباسى، ومدينة (القاهرة) التى أنشأها جوهر الصقلى والهدف من إقامة هذا السور حماية البلاد من كيد المعتدين، وبالإضافة إلى بناء السور بنى قلعة الجبل ليرد عن القاهرة غائلة الأعداء الغادرين غير أنه لم يستطع أن يكمل البناء جميعا لانشغاله بالحروب فى شتى الميادين ، وتعد هذه القلعة من الآثار الحصينة فى تاريخ مصر، وقد تناولتها يد التغيير فى فترات عديدة من التاريخ.

ومن القلاع التى بناها صلاح الدين قلعة سيناء التي بناها فى شبه جزيرة سيناء على بعد ٥٧ كيلو مترًا إلى الشمال الشرقى من مدينة السويس، كما بنى فى الجهة الجنوبية من القلعة مسجدين متجاورين، وصهريجًا للمياه ليروى العطاش، وعلى أحد بابى الصهريج كتبت هذه العبارة: (بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين، ملك الإسلام والمسلمين، خليفة أمير المؤمنين، عمر هذا الصهريج الملك على بن الناصر العادل المظفر، وكان فراغه شهر شعبان تسعين وخمسمائة هجرية).

ويقول الأستاذ (عوم شقير) فى كتابه (تاريخ سينا والعرب): أنه مر بهذه القلعة وبالمسجدين ورأى للقلعة بابًا كبيرًا فى الجهة الشمالية الغربية منها، وفوق عتبة الدار حجر تاريخى عربى كبير مربع الشكل، نقش عليه بحروف ظاهرة اسم صلاح الدين: (بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله

على محمد، خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدين، سلطان الإسلام، والمسلمين، يوسف بن العادل الناصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ)، ولم يكن اهتمام صلاح الدين بإقامة التحصينات العسكرية هو كل شىء، فقد اهتم بتعمير جزيرة الروضة والجيزة، وبناء المقاييس وحفر الترع، كما اهتم ببناء المستشفيات، ومن أهم هذه المستشفيات مستشفى يسمى (المارستان) بمدينة القاهرة وهو بناء ضخم متسع، وقد بناه صلاح الدين طلبًا للأجر، وحبًا فى الثواب، وعين لهذا المارستان مشرفًا من أهل المعرفة، ووضع لديه خزائن العقاقير، ومكنه من استعمال الأشربة وتوزيعها على اختلاف أنواعها، ووضعت فى حجرات هذا القصر الكبير أَسِرَّة مكسوة ومجهزة لاستقبال المرضى، كما خصص جناحًا بالمستشفى للنساء، وإلى جانب هذا توجد مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضًا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم، وصلاح الدين يشرف على هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال والاهتمام .

وكانت مدينة الجيزة والروضة فى أيام صلاح الدين من أهم البلاد، ويقول ابن جبير فى رحلته: (إنه كان ينصب فى الجيزة كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة، ويقطع بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسنة، وبيوت وأماكن للهو والنزهة، كما يوجد بينها وبين مصر خليج فى النيل وبه مسجد جامع يخطب فيه، ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعين زيادة النيل ونقصه، كما كان يوجد به أحجار ورخام.. وغيرها من ضروب الجمال والفن.

رأى صلاح الدين أن مصر ينبوع يانع يستقى منه قوته البرية والبحرية،

فبنى السفن، وعمر الأسطول، وجعل للأسطول ديوانًا مخصوصًا كان يسمى (ديوان الأسطول) سلمه لأخيه العادل، وقد كانت الإسكندرية ودمياط أهم الموانئ البحرية فى ديار مصر، وكانت الفسطاط، وقوص، من أعظم الموانئ النيلية، وكان فيها إنشاء السفن الحربية التى ترابط بتلك الثغور، وتذهب للغزو فى البحر لإعلاء كلمة الإسلام، وجعل رايتها خفاقة فى العالمين.

نظر صلاح الدين إلى الإسكندرية فوجدها محط أنظار الإفرنج، فخاف عليها منهم، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها، ثم ابتنى بها مارستانًا بعد أن ابتنى واحدًا بمصر، وفيه يقول صاحب صبح الأعشى: (ولما ملك السلطان الديار المصرية، واستولى على القصر، كان فى القصر قاعة بناها (العزيز بن المعز) سنة ٣٨٤هـ فجعلها السلطان بيمارستانا، وهو البيمارستان العتيق الذى بداخل القصر)، ثم أنشأ السلطان بها دارًا للغرباء كما أنه تعهد بعض الجسور والترع ليصلح حال المزارعين .

2 - الإصلاح التعليمى:

كان صلاح الدين يحب العلم، ويشجع العلماء، ولا يضن بمال أو جهد في سبيل إنعاش الحركة الثقافية فى البلاد، فأنشأ كثيرًا من المدارس وقرب منه الكتاب والشعراء والعلماء وغيرهم من الراسخين في العلم، وفنون الثقافة والعرفان، وكان نظام الكتاتيب موجودًا ، ففى عهد صلاح الدين كان الصبى إذا ما شب عن الطوق التحق بأحد هذه الكتاتيب ليتعلم القرآن، وليحفظ طرفا من الحديث الشريف، كما يتعلم الخط العربى ويحاول أن يتقنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وكان الغلمان يتعلمون إلى جانب هذا بعض أصول الحساب، ويحفظون بعض الشعر أو المأثور من الحكم والأمثال، وكان الصبيان يتعلمون أداء الصلاة جماعة، وطرق الابتهال إلى الله والخشوع فى صلاتهم.

وإذا شب الغلام وترعرع وأراد أن يستزيد من العلم رحل إلى مواطن العلم فى مصر أو الشام أو الموصل أو بغداد أو مكة.. ليتقن العلوم العقلية، والعلوم النقلية، كما يتعلم علم القراءات الذى كان من أهم المواد التى كانت تدرس فى الجوامع والمدارس فى تفصيل وإسهاب، ويتعلم علم التفسير الذى ذهب فيه العلماء كل مذهب وقد قامت المساجد بدور كبير فى إذكاء الحركة الثقافية فى البلاد فى عهد صلاح الدين، فكانت تعج بالمصلين وطلاب العلم، وكان منهم الماهر فى علم القراءات أو التفسير، كما كان منهم النابغ فى النحو والصرف والعروض وأوزان الشعر.

ومن أشهر هذه المساجد: جامع عمرو بن العاص، والجامع الأزهر، والجامع الأقمر، وجامع الحاكم بأمر الله، وجامع سيدنا الحسين.. هذا فى القاهرة، أما فى الإسكندرية فقد قام ميسجد العطارين بدور كبير فى نشر الثقافة الإسلامية، وغيرها من العلوم التى انتشرت فى ذلك الوقت، وانتشرت فى طول مصر وعرضها مساجد تقوم بهذه المهمة الجليلة: مهمة تثقيف الناس وتعليمهم.

كذلك قامت مساجد سورية بنفس الدور الذى قامت بها مساجد مصر، ومن هذه المساجد: جامع دمشق الذى فتن الرحالة (ابن جبير) بروعته عندما زار دمشق، والذى جعل هذه المدينة قبلة العلم والعلماء من كل صوب، كما قامت دار الحكمة بطرابلس الشام باستقبال عدد كبير من

طلاب العلم حتى وقفت جنبًا إلى جنب مع دار الحكمة بمصر.. وقامت المدارس المختلفة بمصر والشام بتعليم المذاهب الفقهية على أوسع نطاق ، وذلك إلى جانب المدارس التى أنشئت فى القدس عقب استردادها عام 583 هـ، وبنى صلاح الدين فى عام 572 هـ أول مدرسة للحنفية، عرفت بالمدرسة السيوفية، وبلغ من عناية صلاح الدين بهذه المدرسة أن وقف عليها اثنين وثلاثين دكانًا، ولم يضن بمال على الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيها، وبقيت هذه المدرسة قائمة يشع منها نور العرفان حتى وضعت الحرب الصليبية أوزارها.

أنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة الصالحية وجعلها للمذهب الشافعي، وكان صلاح الدين نفسه على هذا المذهب ، ولذلك كان يهتم بشؤونها اهتمامًا بالغًا، فأوصى أن تكون عظيمة البناء، فسيحة الأرجاء، وقد وقف صلاح الدين حمامًا بجوارها، وفرنًا تجاهها، وحوانيت شتى، كما وقف عليها الجزيرة التى كان يطلق عليها جزيرة الفيل بالنيل، خارج القاهرة، كما يقول المقريزى فى الخطط.

أما مدرسة القدس فقد بناها صلاح الدين عقب استرداد بيت المقدس عام 583 هـ، وكلف القاضى (بهاء الدين بن شداد) بالتدريس فيها، فكثرت وفود الطالبين للعلم إلى بيت المقدس، وطار صيته فى الآفاق، وأمر صلاح الدين بتنظيم العمل فى شتى المدارس التى أنشأها على اختلاف تخصصها فى أمور العلم أو الدين، فكان القائمون بالتدريس فيها ينقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول: هو فريق المدرسين، وهم الأساتذة المتبحرون فى العلم.

الفريق الثانى: هو فريق المعيدين، وهؤلاء يقومون بإعادة ما يلقيه

المدرسون على الطلاب حتى يرسخ فى أذهانهم، ولا يذهب عن أفهامهم.

وكان المعيد لا يبخل بوقته في سبيل إفهام العاجزين عن الفهم فى سعة صدر، ورحابة أفق.

وكان يجلس فى العادة بجوار المدرس حتى إذا انتهى الدرس وانفض الجميع من الحلقة، كان المدرس أول الخارجين، وترك الطلاب للمعيد ليقوم بعمله.

وليس من شك فى أن هذا النظام لا يختلف كثيرًا عن النظام المتبع الآن فى جامعاتنا ومعاهدنا العليا حيث يكمل عمل المعيد عمل الأستاذ.

ويتضح من مناهج المدارس التى أسسها صلاح الدين أنه كان يقتفى آثار مولاه نورالدين فى التعمير من جهة، وكان يرمى إلى تعليم المذهب السنى، وقطع دابر المعتقدات الفاطمية، والمذاهب الباطنية، وإذكاء شعلة الحماس ضد الفرنج الذين دنسوا البلاد، وأكثروا فيها الفساد.. وكانت سوق الكتب رائجة فى ذلك العهد، وكان بمصر سوق يقع فى الجانب الشرقى من جامع الكتب التى تضمها من أنفس الكتب، وأقيم الذخائر كما سوق عمرو بن العاص، وأسواق أخرى.. كما كان يوجد بدمشق سوق كبير للكتب يضم شتى أنواع الكتب من دانى البلاد وقاصيها.

3 - الإصلاح الاقتصادى:

كانت الدولة فى عهد صلاح الدين تعيش فى سعة من الرزق، وبحبوحة من العيش، ذلك لأن مواردها كثيرة، ومنابع الأرزاق فيها متنوعة، ويمكن أن نحصر هذه الموارد فى الأمور التالية:

(أ) وضع يده على كنوز الفاطميين الكثيرة بعد أن أصبحت مصر تحت سلطانه.

(ب) موارد الجزية التى كانت تأتيه من غير المسلمين.

(ج) موارد الفدية التى كانت تصله من الأسرى.

(د) موارد الغنائم التى كان يحصل عليها أثناء الحروب.

(هـ) موارد الخراج الذى كان يؤخذ من أصحاب الأراضى التى فتحت صلحًا.. إلى غير ذلك من هذه الموارد المشروعة ومنابع الثروة المسنونة، ولم يكن صلاح الدين من السلاطين الذين ينفقون الأموال فى غير وجهها، ويضعونها فى غير موضعها، وإنما كان ينفقها فى سبيل الله، وإقامة الحصون، وتشييد القلاع، والإصلاح العمرانى وفى كل ما يعود على الدولة بالنفع العام، والفائدة العظيمة.

ولأجل أن يجنب صلاح الدين البلاد ويلات المجاعات التى تسببها الحروب اعتنى بالزراعة ووسائل الرى اعتناء بالغًا، لتنبت الأرض أطيب الثمرات، وتنتج من كل زوج بهيج، وقد تعاونت مصر والشام فى تبادل المحاصيل الزراعية، وتعزيز المصالح الاقتصادية، وتموين الجيوش بالثروات اللازمة، ووقف الإقليمان جنبًا إلى جنب أمام اعتداءات الفرنج الغادرة، وتزويد الجيش الإسلامى بكل ما يلزم من مواد غذائية وعتاد.

كما عنى صلاح الدين بالتجارة عناية كبيرة، فكانت مصر فى عهده حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، وقد انتعشت مدن أوربية كثيرة بسبب هذه التجارة مثل مدينة (البندقية وبيزا) الإيطاليتين، وقد سمح للبنادقة فيما

بعدُ بتأسيس سوق تجارية فى الإسكندرية كان يطلق عليه (سوق الأيك).

وأولى صلاح الدين الأسواق التجارية كل اعتنائه واهتمامه حتى يزدهر الاقتصاد، ويزداد الإنتاج في دولته، فكثر عددها فى مصر والشام، واهتم بإصلاحها وتوسيعها، ومر الرحالة (ابن جبير) ببعض هذه الأسواق فى رحلته أيام صلاح الدين سنة 578 هـ فسجل إعجابه بنظامها، فقال فى معرض الحديث عن مدينة حلب: (أما البلد فموضوعه ضخم جدّا، جميل التركيب، بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها متصلة بالانتظام، مستطيلة، تخرج من سماط[1] صنعة إلى سماط صنعة أخرى، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، فسكانها فى ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار وتستوقف المستوفز[2] تعجبا.. وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة).

كما وصف (ناصر خسرو) فى كتابه (سفر نامة) مدينة طرابلس الشام فى عهد صلاح الدين فقال: (إنها بلد جميل، حوله المزارع والبساتين، وكثير من قصب السكر، وأشجار النارنج والموز والليمون، وبها منازل ذات أربع طبقات أو خمس أو ست، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين، وفى وسط المدينة جامع عظيم، نظيف جميل النقش حصين، وفى ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام وسطه فوارة من النحاس الأصفر، وفى السوق مشرعة[3]، ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم.. ويصنعون بها

(1) السماط: الجانب.

(2) المستوفز: المستعجل.

(3) المشرعة: مورد الشاربة للماء.

الورق الجميل، فلما فتحت تلك المدينة نهبت، وأعمل السيف فى رقاب سكانها، وصارت مكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها رمادًا).

من هذه الفقرات القليلة يتضح لنا مدى اهتمام صلاح الدين بعمران المدن، وبالأسواق التجارية فيها، وهكذا نستطيع أن نستخلص من كلام (ناصر خسرو) وجود مصنع للورق فى مدينة طرابلس الشام، وهذا من مفاخر صلاح الدين بالإضافة إلى مفاخره العظيمة، وأمجاده الخالدة.

وساعدت الحروب الصليبية على نقل صناعة الورق إلى أوربا، فقد أنشئ أول مصنع للورق فى جنوب بلجيكا عام 1189م، حتى أن إنجلترا لم تعرف صناعة الورق إلا فى القرن السادس عشر الميلادى.

ومن الصناعات التى اهتم بها صلاح الدين: صناعة السلاح والمنسوجات والأقمشة، والملابس الحريرية المزركشة، وسروج الخيل المطهمة، وصناعة الزجاج، كما انتشرت فى عهده صناعة الخزف والسفن والأساطيل.. إلى غير ذلك مما يزهر الاقتصاد، ويضاعف الإنتاج، ويمكن للدولة أسباب القوة.

4 - الإصلاح الاجتماعى:

كانت الحياة الاجتماعية فى عهد صلاح الدين تتسم بطابع الجدية والجهاد ومناهضة الفرنج، ومكافحة العدو.. وكانت بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارغة الكاذبة، والعظمة الكاذبة.

وكان رحمه الله يعطى لجنوده ورعيته القدوة الحسنة فى اللباس العادى، والطعام الخشن، والحياة المتواضعة، يقول العماد الأصفهانى فى

وصف ملبسه ومخالطته: (كان لا يلبس إلا ما يحل لبسه شرعا كالقطن والصوف، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطانًا لتواضعه).

وكان صلاح الدين رياضياً يحب الفروسية ولعب الكرة، ويشجع عليها، وكان يركب لمشاهدة مباريات (الكرة والصولجان) بعد صلاة الظهر ومعه رجاله، حتى إذا ما وصل إلى الميدان نزل ليشاهد اللعب، ويستمر المتبارون فى لعبهم حتى أذان العصر، وكان يشترك فى هذه المباريات مع خاصته، وينطلق للعب مع بعض رفاقه، وكان الصيد من أحب الهوايات عند الناس، فكانوا ينطلقون زرافات ووحدانًا لصيد الطيور والأسماك والأوز والأرانب، وكانوا يستخدمون الكلاب والصقور فى صيدهم.

وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على التأهب الكامل، والاستعداد التام لخوض المعارك فى شجاعة فائقة، وبسالة منقطعة النظير.

ومن الإصلاحات الكبيرة التى حققها صلاح الدين فى المجتمع المسلم إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون التى كانت شائعة فى عهد الفاطميين ولا سيما فى المواسم والأعياد كعيد النيروز، وإذا أردنا أن نعرف مبلغ هذه الخلاعة التى كانت متفشية فى المجتمع المصرى قبل عهد صلاح الدين فلنسمع إلى ما يقوله المقريزى فى خططه: (كانت المنكرات ظاهرة فى عيد النيروز، والفواحش صريحة فى يومه، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النيروز ومعه جمع كثير، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على بيوت الأكابر، ويقنع بالميسور من الهبات، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهى، وترتفع

الأصوات، وتشرب الخمور في الطرقات، ويتراش الناس بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجًا بالقاذورات، فإن غلط مستور، وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فإما فدى نفسه، وإما فضح).

أبطل صلاح الدين هذه المظاهر الفاسدة، والمنكرات السافرة.. ومكن الناس من الحياة البريئة النظيفة، وأعاد لهم أخلاق الإسلام، وآدابه السامية.

ومن المظاهر الفاسدة التى أبطلها: بدع المناسبات والمواسم، مثال ذلك: بدع يوم عاشوراء الذى كان يوم حزن وأسى عند الفاطميين، ففى هذا اليوم كان يكثر النحيب، ويرتفع البكاء، وتتعطل الأعمال، وتتوقف الأسواق، وترى الناس فى هرج ومرج كأنما فقد كل واحد منهم أعز الناس لديه، وأحبهم إليه.. فاستطاع أن يقضى على هذه العادات الذميمة، والبدع السيئة، وأن يقلب هذا اليوم إلى يوم ابتهاج وفرح وتوسعة على العيال، فأصبح الناس يصنعون فيه الحلوى، ويلبسون الجديد، ويأكلون ما لذ وطاب من الطعام والشراب، ولاشك أن هذا الذى فعله صلاح الدين يتفق مع مبادئ الشريعة، وآداب الإسلام، بل التوسعة على العيال فى يوم عاشوراء من هدى النبى ﷺ.

أما إنعامه على الرعية، وتوزيعه العطاء على الناس فحدث عنه ولا حرج، فكان يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة، لأن نظرته إلى المال كمن ينظر إلى التراب، وسبق أن ذكرنا أنه حين مات لم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، وجرامًا واحدًا ذهبًا، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا، ولا قرية ولا مزرعة، ولا شيئًا من أنواع الأملاك.

لم يأخذ من أموال الدولة شيئًا لنفسه، ولم يخص بها أحدًا من أهله وأقربائه فهى إذا لاشك أنها للمشاريع الإصلاحية، وإعداد الوسائل الحربية، وللمستحقين من أبناء الرعية.. حتى يتحقق للمجتمع تكافله الكامل، وللدولة قوتها المنيعة، وللأفراد معيشتهم المثلى.. وهذا ما مكن له هذا السلطان العادل، والقائد البطل.

ومن الأعمال العظيمة التى خلدت لصلاح الدين ذكره ، إبطاله الكثير من الضرائب التى كانت تثقل كاهل الشعب، وتقض مضاجع الناس كالضرائب التى كان يفرضها أمير مكة على الحجاج يقول: (وكان صاحب مكة قد أمر بأن يؤدى الحجاج مكوس مكة مقدمًا فى جدة، فوقع على الحجاج الظلم فيها، فألغى صلاح الدين كل هذا النظام، وعوض صاحب مكة عنها جملة، فحمل إليه فى كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحًا، واشترط أن تفرق فى أهل الحرمين، فرفع صلاح الدين بذلك متفرقاتها عن الناس، وأفاد بجملتها التى أداها من بيت المال أهل الحرمين).

ومما يدل على حسن طويته، وحرصه على سلامة المجتمع، ووحدة الأمة، والتحذير من الظلم :وصيته لابنه الملك الظاهر الذى أسند له ولاية حلب، يقول فى هذه الوصية كما رواها عنه قاضيه ابن شداد: (أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقليد بها فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر فى شؤونهم فأنت أمينى وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، ولا تحقد على أحد فإن

الموت لا يبقى على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، أما ما بينك وبين الله فإنه تعالى يغفره بتوبتك إليه فإنه كريم.

إن ما قام به صلاح الدين من إصلاح اجتماعى، وتقويم أخلاقى، ليزهو المجتمع الإسلامى فى عهده بأكرم الخصال، وأحسن العادات، وأفضل الآداب.

5 - الإصلاح العقائدى:

سبق أن ذكرنا فى صفة صلاح الدين الاعتقادية والتعبدية أن صلاح الدين اتسم بالإيمان والعبادة والتقوى والخشية من الله والثقة به ، والالتجاء إليه.. (وأنه كان - كما يقول القاضى بهاء الدين- حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وقد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث من مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء).

ومن كان على هذه التربية الإيمانية، والسلوك الاعتقادى القويم فلابد أن يقوم بواجبه الأكمل فى إصلاح العقيدة، وتقويم الاعوجاج، وتبديد ظلمات الضلال.

ومن هذا المفهوم الواعى، والاعتقاد الراسخ انطلق صلاح الدين ليحطم أغلال الإلحاد، وينسف قواعد الزندقة فى كل بلد يذكر فيه اسم الله، وترفرف على أرجائه راية لا إله إلا الله ، فكان إذا سمع عن رجل يدعو إلى مبادئ لا تتفق مع عقيدة أهل السنة ولا تلتقى مع قواعد الشريعة الإسلامية يأمر بقتله فورًا بعد أن يستشير جماعة الفقهاء والعلماء، وفى هذا يقول القاضى بهاء الدين: (وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضًا للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة، وإذا سمع عن معاند

ملحد فى مملكته كان يأمر بقتله).

ولما أصبح صلاح الدين وزيرًا للعاضد الفاطمى فى مصر إبان شبابه وجد ما عليه حال البلاد من المعتقدات الباطنية والمذاهب المنحرفة، وهى معتقدات باطلة، ومذاهب منحرفة، لا تمت إلى عقيدة أهل السنة والجماعة بصلة أو نسب، ويتلخص مذهبهم الفاسد بما يلى: (إن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تعود إلى اختيار الأمة، بل هى ركن من أركان الدين لا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى العامة، بل يجب على الرسول قبل موته أن يعين الإمام للمسلمين، وأن يكون هذا الإمام معصومًا من الكبائر والصغائر، وأن عينه النبى ﷺ للخلافة من بعده وأن أبا بكر وعمر قد اغتصبا الخلافة منه، ومنهم الغلاة الذين قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل فى ذواتهم البشرية ، ومن هؤلاء من يقف عند واحد من الأئمة، ويقول إنه حى لم يمت إلا أنه غائب عن الأعين وأنه يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا) وفى العصر الفاطمى قامت طائفة من غلاة الشيعة ودعاة الإسماعيلية بتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى وذلك سنة 408 هـ حين جهر (حمزة بن على) بألوهية الحاكم، الذى أصبح فى نظرهم إلهًا عن طريق الحلول، ويعتبر (حمزة بن على) المؤسس الحقيقى للمذاهب الباطنية.

ومن البديهى أن يهب صلاح الدين بعد أن أصبح وزيرًا على مصر، وبعد أن أصبحت مصر تحت حكمه وسلطته.. أن يهب لمحاربة هذا المذهب الباطل، وأن يقضى عليه، وأن يمحو معالمه، ويمسح آثاره، وأن يحل محله عقيدة أهل

السنة والجماعة باعتبار أنها عقيدة الإسلام الحق ، والقرآن المنزل.

وكان لصلاح الدين ما أراد إذ لم يمض شهور قليلة على وزارته حتى فتح المدارس فى طول البلاد وعرضها، ومن أشهرها المدرسة الناصرية، والمدرسة الكاملية.. وأمر جميع طبقات الشعب أن يلتحقوا فى سلك هذه المدارس، ليدرسوا الدين الحق، والإسلام الصحيح، ويتلقنوا عقيدة أهل السنة والجماعة خالصة من كل دس، منزهة من كل انحراف.

ومن العوامل التى ساعدت على تمكين العقيدة الإسلامية الخالصة فى نفوس المصريين محبتهم له وذلك عقب انتصاره على الفرنج بعد غزوهم (دمياط) و (غزة)، فكان هذا النصر العظيم، والفتح المبين، وتأمين طريق الحجاج المسلمين من أكبر العوامل فى تبادل الثقة والمحبة والإخلاص بينه وبين المصريين، وهذاما دفع المصريين لأن يتركوا مذهبهم الشيعى، وينضموا إلى إخوانهم أهل السُنة راية صلاح الدين حتى يقاتلوا عدو الله وعدوهم لإعلاء كلمة الله.

وإذا كانت أرض الكنانة مصر تعتنق اليوم عقيدة أهل السنة والجماعة فإن الفضل الأكبر لهذا البطل الخالد، والسلطان المصلح صلاح الدين رحمه الله تعالي.

***

(13)

قالوا عن الناصر صلاح الدين

(532 - 589هـ/ 1137 - 1193م)

أخذت هذه الصفحات من كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، أو (سيرة صلاح الدين) لبهاء الدين بن شداد[1] الذى لازم صلاح الدين طوال الحقبة الأخيرة من حياته التى قضاها فى الشام، يخالطه مخالطة تامة، ولم يؤلف كتابه فى حياة صلاح الدين ليكتسب مالاً أو جاهًا، بل بعد وفاة صلاح الدين، لذلك يتكرر فى الكتاب: (رحمه الله)، ولذلك يروى ابن شداد معظم هذه السيرة وأحداثها من مشاهده، وهو ينص فى معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التى يؤرخ لها، أو سمع الأقوال التى يرويها، أما إذا لم يكن قد شاهد حادثة ما بنفسه، فإن الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن ينص على أنه كان متغيبًا.

---

(1) بهاء الدين أبوالمحاسن يوسف بن رافع بن تميم، شهر بابن شداد، لأن شداد جده لأمه، وقد توفى أبوه وهو طفل صغير، فربى فى كنف أخواله بنى شداد، ولهذا نسب إليهم، ولد فى الموصل سنة 539هـ/ 1145م، وتوفى بحلب سنة 632هـ/ 1239م، فهو قد عمر وعاش 93 سنه، (الأعلام 8/ 230، ومقدمة تحقيق (النوادر السلطانية) 3 - 13).

لهذا عدت هذه السيرة أوثق المصادر للتأريخ لحياة صلاح الدين، وعليها اعتمد جل المؤرخين اللاحقين من عرب وأوروبيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدين، وخاصة الفترة الأخيرة من هذه الحياة (584 – 589هـ) وهى فترة حافلة بالجهاد ضد الصليبيين، فإن انتصار صلاح الدين فى حطين، واستعادته لبيت المقدس فى سنة 583هـ/ 1187م أحدثتا ضجة كبرى فى أوروبا، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوروبا، وهم: ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا، وفردريك بارباروسا ملك ألمانيا.

وهذه السيرة التى كتبها ابن شداد تقدم وصفًا تفصيليًا دقيقًا للأحداث التاريخية، وللمعارك الحربية، ولأدوات القتال والحرب المستعملة فى الجيشين مما لا نجده فى مرجع آخر.

وينفرد الكتاب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية فى المجتمعين الإسلامى والصليبى، منها كيف كان يجلس صلاح الدين للنظر فى المظالم.

وأن بعض أمراء الصليبيين فى بلاد الشام (كان يعرف العربية، وعنده اطلاع على شىء من التواريخ والأحاديث).

ناهيك عن عدد من الوثائق ضمها الكتاب تلقى الأضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة، ومن بينها الخطابات المرسلة من إمبراطور بيزنطة إلى صلاح الدين، وسفارة صلاح الدين إلى القسطنطينية، ولكيفية إقامة الخطبة فى المسجد المقام فى عاصمة الدولة البيزنطية.

يقول ابن شداد: (وبعد فإنى لما رأيت أيام مولانا السلطان، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدى المشركين، خادم الحرمين الشريفين، أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى.. قد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستعباد، وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الأجواد، وحققت وقعات شجعان مالكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان، وأرت العيان من الصبر على المكاره فى ذات الله ما قوى بها الإيمان، وعظمت عجائبها عن أن يحويها خاطر، أو يجنها جنان، وجلت نوادرها عن أن تحد ببيان لسان، أو أن تسطر فى طرس ببنان.

وكانت -مع ذلك- من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤها ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروى عنه أخبارها وأنباؤها، ومسنى من رق نعمتها، وحق صحبتها، وواجب خدمتها، ما تعين على به إبداء ماتحققته من حسناتها، ورواية ما علمته من محاسن صفاتها:

رأيت أن أختصر من ذلك على ما أملاه على العيان، أو الخبر الذى يقارب مظنونه درجة الإيقان، وذلك جزء من كل، وقل من جل ليتسدل بالقليل على الكثير، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير، وأسميت هذا المختصر من تاريخها: (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

وجعلته قسمين: (أحدهما: فى مولده، ومنشئه، وخصائصه، وأوصافه وأخلاقه المرضية، وشمائله الراجحة فى نظر الشرع الوفية، والقسم الثانى:

فى تقلبات الأحوال به، ووقائعه وفتوحه، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته.. والله المستعان فى الصيانة عن هفوات اللسان والقل، وجريان الخاطر بما فيه مزلة القلم، وهو حسبى ونعم الوكيل)[1].

مولده

ولد صلاح الدين بقلعة تكريت[2] سنة 532هـ/ 1137م.

كان والده أيوب بن شاذى واليًا بها، وكان كريمًا أريحيًا حليمًا حسن الأخلاق، مولده بدوين، وهى بلدة من نواحى أران شمالى أذربيجان، بقرب من تفليس، وهى من بلاد الكرج جورجية حاليًا، انتقل إلى تكريت، حيث ترعرع، وكان محترمًا مقدمًا هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند الأتابك زنكى.

واتفق لوالد صلاح الدين الانتقال إلى الشام، ونزل بعلبك[3]، وفيها أقام صلاح الدين فى خدمة والده ينهل من محاسن أخلاقه، حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، فقدمه الملك نورالدين محمود بن زنكى، وعول عليه، ونظر إليه، وقربه وخصه، ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب يقتضى تقديمه إلى ما هو أعلى، حتى اتفق لعمه أسد الدين الحركة إلى مصر والنهوض إليها.

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية 3 - 4.

(2) تكريت: مدينة فى العراق، على شاطئ نهر دجلة الغربى، شمال سامراء.

(3) بعلبك: مدينة فى سهل البقاع (لبنان) عرفت باسم مدينة الشمس (هليوبوليس) تشتهر بآثارها.

مواظبته على القواعد الدينية، وملاحظته للأمور الشرعية

كان صلاح الدين حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسنًا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح، مرضية عند أكابر العلماء.

وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها، يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم فى الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه.

وكان شديد المواظبة على الصلاة جماعة، حتى إنه ذكر يومًا أن له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إن مرض يستدعى الإمام وحده ويكلف نفسه القيام، ويصلى جماعة، مع مواظبة على السنن أيضًا.

وكان له ركعات يصليها فى الليل قبل الصبح، وما ترك الصلاة قط حتى فى مرضه.

أما الزكاة: فإنه مات ولم يملك نصابًا وجبت عليه به الزكاء، أما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، لقد مات ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، وجرمًا واحدًا

ذهبًا صوريا[1]، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئًا من أنواع الأملاك.

وكان محافظًا على صيامه، وإن أفطر فى مرض أو جهاد، قضاه، وكان حريصًا على براءة ذمته، (ولم يزل حتى قضى ما كان عليه).

وعزم على الحج ونوى، وصمم العزم عليه، وأمر بالتأهب، عملت الزوادة، ولم يبق إلا المسير، فأخره إلى العام المستقبل لضيق ذات اليد، فقضى الله ما قضى.

وكان يحب سماع القرآن الكريم، يستقرئ من يحضره فى الليل الجزأين والثلاثة والأربعة، وهو يسمع، ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقربه، وجعل له حظًا من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءًا من مزرعة.

وكان رقيق القلب، خاشع الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبه، وتدمع عينه فى معظم أوقاته، وكان شديد الرغبة فى سماع الحديث الشريف، تردد إلى الحافظ السلفى: أبو طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن إبراهيم، المحدث المشهور بالإسكندرية، وروى عنه أحاديث كثيرة.

وكان كثير التعظيم لشعائر الدين، حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، يقول ابن شداد: (صلى ركعتين بين الأذان والإقامة، ورأيته ساجدًا ودموعه تتقاطر على شيبته، ثم على سجادته)، لقد علم أنه

(1) دينار واحد، جاء فى العماد الكاتب: لم يخلف فى خزانته سوى ستة وثلاثين درهمًا ودينارًا واحدًا ذهبيًا، وصوريًا ضرب فى مدينة صور.

يقول: (إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل)[1].

وكان هذا حينما قالت له عيونه: إن الصليبيين تجمعوا (ببيت نوبة) قرب بيت المقدس لحصاره بقوة كبيرة جدًا، فمع الاستعدادات واتخاذ الأسباب، التجأ إلى الله، فتفرقت كلمة القوم، الإنجليز والفرنسيين، فرحلوا عائدين إلى جهة الرملة.

عدله

لقد كان صلاح الدين عادلاً رؤوفًا رحيمًا، ناصرًا للضعيف على القوى.

كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا.

على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص (العرائض، أوراق التظلم) كاشفًا لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يرد قاصدًا للحودات والحكومات، وكان يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلب الله على قلبه، ولم يرد قاصدًا أبدًا ولا منتحلاً ولا طالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة.

(1) النوادر السلطانية 12.

ولقد كان رؤوفًا بالرعية، ناصرًا للدين، مواظبًا على تلاوة القرآن العزيز، عالمًا بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبدًا.

وأورد ابن شداد (صفحة 14) قصة عن محاكمته لابن أخيه تقى الدين، وكان من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يحابه فى الحق، وكيف أن رجلاً تاجرًا اسمه عمر الخلاطى حاكم صلاح الدين بالقدس، ولما توضح للقاضى كذبه وصدق صلاح الدين بوجود الشهود، قال ابن شداد: يا مولاى، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولى، ولا يحسن أن يرجع خائبًا للقصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة، يقول ابن شداد: فانظر إلى ما فى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد إلى الحق، وإرغام النفس، والكرم فى موضع المؤاخذة، مع القدرة التامة.

كرمه

يكفيه أنه فتح ما فتح، وحرر ما حرر، ثم مات ولم يملك إلا سبعة وأربعين درهمًا وديناًرا ذهبيًا واحدًا، وكان يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئًا من المال، حذرًا من أن يفاجئهم مهم، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه.

يقول ابن شداد فى معرض حديث جرى، يقول صلاح الدين: (يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب)[1]، فكأنه أراد بذلك نفسه.

(1) النوادر السلطانية 18.

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب.

وعرف الناس كرمه، فكانوا يستزيدونه في كل وقت، وما سمع قط يقول: قد زدت مرارًا، فكم أزيد؟

وما خدمه قط أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره.

وسمع ابن شداد من صاحب ديوانه يقول له: (وقد تجارينا عطاياه، فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف فرس، ومن شاهد عطاياه، يستقل هذا القدر) (تعليق ابن شداد).

شجاعته

كان من عظماء الشجعان قوي النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، ولا يهوله أمر، ولقد رأيته - يقول ابن شداد- مرابطًا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزاد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبًا إلى عكا وأنا أعدها، من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزاد إلا قوة نفس، وكان يعطي دستورًا (إجازات) في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة.

وكان لابد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم.

وإذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، وينظم الأجناد، ويشارف العدو ويجاوره[1].

(1) النوادر السلطانية20.

وما رأيته أستكثر العدو أصلاً، ولا أستعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير، تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه، وإذا حدث خلل فى جيشه وتراجع، يقف ثابت القدم فى نفر يسير، يجمع الناس ويردهم حتى يكتب له النصر.

ولقد اهتم بالجهاد وشغف به، فلا حديث له إلا فيه، ولا يهتم إلا برجاله، ولقد هجر فى محبته أهله وأولاده، ووطنه وسكنه وسائر الملاذ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد سقطت خيمته فى ليلة ريح شديد على مرج عكا، فلو لم يكن فى البرج وإلا قتلته، ولا يزيد ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا.

وابن شداد من الذين ألف له كتابًا جمع فيه آداب الجهاد[1]، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روى فيه فضله، وشرح غريبه، وكان كثيرًا ما يطالعه، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل.

وذكر ابن شداد أن صلا الدين أخذ كوكب[2] فى ذى القعدة سنة 584هـ فأعطى الجند إجازات، وعاد عسكر مصر إلى بلادهم، وسار إلى عسقلن يودعهم بعد صلاة العيد فى القدس، ثم عاد إلى طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشير عليه ألا يفعل، فإن العساكر فى

---

(1) فضائل الجهاد، ألفها ابن شداد خصيصًا لصلاح الدين، منه مخطوطة بمكتبة كوبريللى رقم 764.

(2) كوكب: بلدة بين بيسان جنوبًا وطبرية شمالًا، شرق العفولة، على بعد كيلومترات عن نهر الأردن.

إجازة، ويبقى في عدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت لقولهم، وودع العسكر بعسقلان، وسار على الساحل باتجاه عكا في زمان كان الشتاء عظيمًا، والبحر هائجًا هيجانًا شديدًا، فعظم أمر البحر عندي، حتى خيل إلى أني لو قال لي قائل إن جزت في البحر ميلا واحدًا ملكتك الدنيا، لما كنت أرى لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك، إذ التفت إلي وقال: أما أحكي لك شيئًا؟ قلت: بلى، قال: في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، وأتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

ثم ذكر ابن شداد: ما دار في نفسه من هول البحر ومخاطره، فقال صلاح الدين: أنا أستفتيك ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

ومن طرف صبره أن

رآه ابن شداد بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دمامل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئًا على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر بأن يفرق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبًا من العدو، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبًا تعبية القتال، وكان مع ذلك يظهر من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الكتائب ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو

صابر على شدة الألم، وكثرة الدمامل.

وكان يقدم أولاده بين يديه احتسابًا: الملك الظاهر، والملك الأفضل، والملك الظافر.

وحينما حاصر صفد قال: لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل شيء، فكان ما أراد[1].

وكان شديد الشغف بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم، راض ببعدهم عنه، صابرًا على مر العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك.

***

(1) ألف مرضى بن على بن مرضى كتابًا لصلاح الدين سماه: (أرباب الأرباء فى كيفية النجاة، فى الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة عن لقاء الأعداء)، وصف فيه أنواع المنجنيقات جميعًا، وصفًا دقيقًا بالرسوم، (الأعلام 203/ 7).

(14)

أين أنت يا صلاح الدين؟!

بعد صلاح الدين الأيوبي

فلسطين بين الأمس واليوم

ولا يفوتنا في هذه المناسبة - ونحن نستعرض سر الانتصار على الصليبيين وأسبابه- أن نعرج على أسباب الفشل والعار والخزى والهوان فى حروبنا اليوم مع اليهود فى فلسطين، وإن شئت قل عن هزيمتها المنكرة التى منيت بها أمتنا فى القرن العشرين، أمام من؟ أمام أذل أمة على مر التاريخ، أمام من جعل الله منهم القردة والخنازير، أمام من حل عليهم غضب الله ولعنته إلى يوم الدين، أمام من عرفوا بالغدر والجبن والخيانة، أمام من اشتهروا بالخسة والدناءة، أمام اليهود أصحاب المكر والغدر عبر العصور والتاريخ.

وإذا كنا فى الفصل التاسع نقبنا عن سر الانتصار الذى أحرزه السلطان صلاح الدين فى حروبه مع الصليبيين، فلنبحث فى هذا الفصل عن أسباب الفشل والهزيمة التى منيت بها الأمة الإسلامية فى معاركها مع اليهود منذ عام 1948م.

وأسباب الفشل تنحصر فى الأمور التالية:

1 - فإذا كان من أسباب النصر فى حطين (تقوى الله والاحتراس من المعاصى) فإن من أسباب الفشل والهزيمة فى معاركنا مع اليهود

هو (انهيار الجانب المعنوى والروحى) الذى حل فى صفوف الأمة، والذى طغى على الجيوش التى باشرت الحرب، وكافحت العدو فى معارك الجهاد، كما سمعنا عن محاربين فى الصفوف الأمامية كانوا يحتسون الخمر، ويرفه بالمومسات والمغنيات، والعدو أمامهم يرقب أوضاعهم، ويتعرف على انهيارهم الروحى، وميوعتهم الخلقية؟.

وكم سمعنا من بعض الإذاعـات العربية فى اللحظات التى كانت فيها الحرب مستعرة، والقتال على أشده كانت الصيحات تلهب حماس المحاربين بمثل هذه الكلمات: قاتلوا واضربوا واسحقوا العدو، إن الفنانين والفنانات من ورائكم، إن فلانة المطربة معكم، والأخرى الممثلة بجانبكم، أما الله: أما التقوى: أما استمطار الغوث الإلهى؟ فلم يكن فى الحسبان.

وكم سمعنا عن قيادات عربية وزعت -قبل المعركة بأيام- عشرات الآلاف من صور المطربات والممثلات على الجنود المرابطين فى خط النار تشجيعًا لهم على الميوعة، وتقوية لروحهم المنهارة؟

وكم سمعنا عن مجلات رسمية كانت تروج للإلحاد، وتشيع الكفر والضلال قبل حرب (1967م) بشهر دون حياء ولا خجل، حتى بلغت الوقاحة فى كاتب ملحد أن يكتب مقالا فى مجلة مسئولة عنوانه (الطريق لخلق إنساننا العربى الجديد)، فمما جاء فى المقال:

(استنجدت أمة العرب بالإله.. فتشت عن القيم القديمة فى الإسلام والمسيحية.. استعانت بالنظام الإقطاعى والرأسمالى وبعض النظم المعروفة فى العصور الوسطى، كل ذلك لم يجد فتيلا ويتمم الكاتب

حديثه، فيقول: (والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب، وبناء المجتمع العربى، هو خلق الإنسان الاشتراكى العربى الجديد).

والإنسان الذى يريد أن يخلقه هذا المجرم الملحد هو الإنسان (الذى يؤمن أن الله والأديان والإقطاع، والرأسمال والاستعمار، والمتخمين، وكل القيم التى سادت المجتمع السابق، ليست إلا دمى محنطة فى متاحف التاريخ).

أليس حال أولئك المتحللين أشبه ما تكون بحال أبى جهل لعنه الله حيث أرسل إليه أبوسفيان أن أرجع بالجيش فإن عيرنا قد نجت، فما كان جواب أبى جهل إلا أن قال: (والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم عليه ثلاثا، فنطعم الطعام، وننحر الجزور، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان.. وتتحدث العرب بمسيرنا).

ألم يضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه المنهج الواضح، والتخطيط الكامل، لكسب المعركة، والانتصار على العدو؟ ألم يقل لقائده سعد بن أبى وقاص حين وجهه لفتح فارس: (أما بعد فإنى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإنى تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب.. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم تغلبهم قوتنا).

إلى آخر ما جاء بهذا العهد الذى أخذه عليهم، وبالنصح الذى وجهه لهم.

فهذا بالنسبة للمعاصي، فكيف بمن ينكر وجود الخالق، ويجهر بالدعاء إلى الإلحاد ويجحد مبادئ الدين والأخلاق؟

فهذه حقيقة هامة ينبغي أن تعيها الأمة الإسلامية بشكل عام، والدول العربية بشكل خاص إن أرادوا أن يصلوا إلى قمة الكرامة والنصر المبين، وصدق الله العظيم القائل:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(الحج: 40).

والقائل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾(محمد: 7).

2 - التفرق والتنابذ والخصام:

وإذا كان من أسباب النصر في حطين: (وحدة البلاد السياسية تحت إمرة واحدة) فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود اليوم هو (التفرق والتنابذ والخصام).

وكم سمعنا عن مهاترات واتهامات وشتائم بين الملوك ورؤساء الحكومات كانت تنقلها أمواج الأثير إلى أسماع الدنيا هنا وهناك، وكل يتهم الآخر بالعمالة والخيانة، وكل يصب جام غضبه على الآخر ليغض من شأنه، ويظهره بمظهر الخائن العميل، والعدو يرقب بعين ساهرة هذه الاتهامات والشتائم، ولاشك أنه ينتشي فرحًا، ويرقص طربًا على ما وصلت إليه حال الأمة الإسلامية من تنابذ وعداوة وبغضاء، بينما العدو يتقوى ماديًا ومعنويًا ويشجع كل يهودي في العالم على الهجرة إلى

فلسطين، ويعمل ليل نهار ليصل إلى تنفيذ مخططه من الفرات إلى النيل.

وما هذا التفرق والشتات الذى منيت به الحكومات العربية فى عصرنا اليوم إلا من نتائج التخلى عن الإسلام، فلقد أثار هؤلاء الحكام بمبادئهم المستوردة سواء أكانت شرقية أو غربية فئات الشعب بعضها على بعض، وأثاروا حفيظة الحكومات التى لا تقبل مبادئهم، ولا تلتقى مع أفكارهم ومعتقداتهم، وكان من نتيجة ذلك التباين فى المناهج، والاختلاف فى السبل، والتناقض فى المذاهب والأفكار.

فهذا ينتمى إلى واشنطن، والآخر ينتمى إلى لندن، وهذا ينتمى إلى موسكو، والآخر ينتمى إلى بكين، وهذا يسمى باليمين، وهذا يسمى باليسار، وهكذا تفرقت الأمة العربية المسلمة إلى شيع وأحزاب، ودول أو دويلات، صنفها المصنفون إلى ثوريين ومحافظين، إلى تقدميين ورجعيين.

ولم يكن فى الإمكان أن يجتمعوا على فكرة واحدة، أو أن ينضووا تحت راية واحدة، لأنهم تخلوا عن شريعة الإسلام، وتنكبوا عن الحكام بما أنزل الله، وهذا ما حذر منه القرآن الكريم حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال: 45).

هل يعقل – والمسلمون على هذه الحال– أن ينالوا من عدوهم نيلاً أو ينصرهم الله فى معركة المصير؟

3 - الاهتمام للقضية بالقول لا بالفعل:

وإذا كان من أسباب النصر فى حطين: (الإعداد الكامل والاهتمام البالغ لقضية التحرير)، فإن من أسباب الفشل والهزيمة فى معاركنا مع

اليهود اليوم هو (الاهتمام للقضية بالقول والتبجح والتدجيل).

ومنذ أن ظهرت على الوجود قضية فلسطين كم سمعنا عن خطب رنانة، وكلمات حماسية ملتهبة تلقى أمام الجمهور المحتشد لإلهاب عواطفه، واستثارة مشاعره، والجمهور الساذج يقابل هذه الكلمات بالتصفيق الحاد، والهتاف المدوي حماسًا وتأثرًا ولكن دون أن يعقب ذلك أعمال إيجابية، وإعدادات عسكرية.. قال الله تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ (الصف: 1 - 2).

بل كانت القضية الفلسطينية تسير إلى أسوأ، وكلما انتهينا من نكبة وقعنا في نكبة أشد وأعظم، وكل يوم يشرق على الدنيا شمسه هو من صالح إسرائيل قوة وتوسعًا، وإعدادًا وإحكامًا، لأن الأمة المسلمة ليست على مستوى القضية والمسئولية، والشعوب قد أصابها اليأس والقنوط، وها هي ذي أخبار الصلح ومشروع (روجرز) ومشروعات أخرى تصل إلى مسامعنا بين الحين والحين، وها هي بعض الدول العربية تتبنى ما تعلنه الدول الكبرى من مشروعات جملة وتفصيلا.. وهناك مخطط رهيب لتصفية العمل الفدائي، وطعن القضية الفلسطينية في الصميم.. ولاشك أن كل هذا لصالح إسرائيل، ومرحلة أولى لتحقيق مطامعها التوسعية، وأهدافها الاستعمارية الكبيرة.

ومن حين أن ولدت إسرائيل حتى اليوم لم يكن أكثر الحكام على المستوى اللائق من الاهتمام للقضية الفلسطينية والجهاد في سبيلها..

ولو كانوا كذلك لأغلقوا دور الفجور، وصالات الرقص، وحانات الخمر كما فعل (ديجول) في أعقاب تسلمه السلطة أيام الحرب العالمية الثانية، ولمنعوا من إذاعاتهم وتلفازهم الأغاني الخليعة، والمسرحيات الماجنة، والرقص الصفيق، ولأعدوا الشباب إعدادًا كاملا من ناحية الخلق والدين، ولمنعوا من المجتمع كل مظهر من مظاهر التخنث والميوعة والانحلال!!.

فهل يعقل والمسلمون على هذه الحال – من عدم الاهتمام والإعداد والانخراط في بوتقة الميوعة والانحلال – أن ينالوا من عدوهم نيلاً، أو ينصرهم الله في معركة المصير؟

4 - القتال لم تكن غايته إعلاء كلمة الله:

وإذا كان من أسباب النصر في حطين (القتال لإعلاء كلمة الله)، فإن من أسباب الفشل والهزيمة في معاركنا مع اليهود اليوم هو القتال لأجل العصبيات والأهواء والأفكار المستوردة، والمبادئ المستحدثة التي لا تمت إلى الإسلام بصلة ولا نسب، وكم سمعنا عن مسئولين ورؤساء حين كانوا يخطبون ويحضون الأمة على القتال، ويستنهضون همتها للحرب، كانوا لا يذكرون اسم الله في كلماتهم، ولا تسمع حسًا ولا ذكرًا للإسلام في أقوالهم وتصريحاتهم وإنما كانوا يعلنونها جاهلية سافرة، وعصبية جائرة في حض الناس على القتال، واستنهاض هممهم للحرب.

ففي سنة 1948م كانت الدعوة إلى القتال باسم القومية.

وفي سنة 1956م كانت الدعوة إلى القتال باسم القومية.

وفي سنة 1967م كانت الدعوة إلى القتال باسم المبادئ الثورية.

وفى سنة 1973م كانت الدعوة إلى القتال باسم العزة العربية والتحدى والصمود.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾(النجم: 23).

ولسنا ندرى ما تطالعنا به الأيام من شعارات كافرة، ومسميات ضالة، لا يقصد منها إلا إبعاد الإسلام عن كل مقاومة للعدو، وعن كل تحرير للأرض المغصوبة، وأظلم من ذلك انبعاث الأقلام المأجورة -فى حربنا مع إسرائيل- تناوش الدين، وتتطاول على ذات الله، والإسلام، والرسل، فمن جملة ما قرأنا لأحد العملاء[1] التقدميين فى كتاب أسماه (من النكسة إلى الثورة) قوله: (إن العلم سيجد نجاته عن طريق المتمردين، فبدونهم ستلقى حضارتنا وثقافتنا وكل ما نحب نهايته.. فهؤلاء المتمردون هم ملح الأرض، ومسئولون عن الله، لأننى مقتنع بأنه لم يوجد بعد، وإن كان علينا أن نخلقه).

فهل ننتصر بهؤلاء الثوريين المتمردين على الله وعلى شرائعه وعلى رسالاته وأنبيائه، أم نسير من نكبة إلى نكبات، ومن كارثة إلى كوارث؟.

فهل يرجى من هؤلاء خير؟ وهل يتحقق على أيديهم نصر، وهم بهذا التمرد السافر، (على الله) و(القيم العليا) و(الإسلام)، وهل يمكن أن يكون هؤلاء يوما جنود فداء، وأبطال معركة؟

لن تتحرر فلسطين بهؤلاء الملحدين الأقزام.

لن تتحرر فلسطين وتزول إسرائيل بجاحدى الأديان، ومنكرى الخالق.

(1) اسمه نديم البيطار.

لن تتحرر فلسطين بالعابثين المجرمين من عشاق الفجور ومدمنى الخمور.

إنى على يقين أن إسرائيل لن تزول، وفلسطين لن تتحرر إلا على أيدى المؤمنين الصادقين الراكعين الساجدين، الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، والحافظين لحدود الله، الذى يخوضون المعارك أطهارًا متوضئين، قد تطهرت قلوبهم، قبل أن تتوضأ أعضاؤهم.. أولئك الذين لا يقف لهم أحد، ولا تصمد أمامهم قوة إذا نادى فيهم المنادى، هبى يا ريح الجنة يا نصر الله اقترب، يا رجال القرآن زينوا ا لقرآن بالفعال.

أولئك الذين يثورون على التفكير المادى، ويسخرون من لغة الأرقام، ولا يعبأون بما لدى العدو من (كم) واثقين بما معهم من (كيف) قد اتسع أفقهم فتجاوزوا الأرض إلى السماء، وتخطوا عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وآمنوا بأنهم إن فقدوا ولاية الناس ونصرة العالم، فإن معهم الله جل شأنه (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) ومعهم جنود الله (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أولئك الذين ستحرر بهم فلسطين، وتقتلع بهم جرثومة اليهودية من أرض الإسلام، ليس لهؤلاء هدف إلا إعلاء كلمة الله ولا عنوان إلا الإسلام، ولا شعار إلا العبودية لله، ولا هتاف إلا (الله أكبر).

وإلى هؤلاء المحاربين المؤمنين أشار النبى ﷺ فى حديث له حيث قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبدالله،هذا يهودى خلفى تعال فاقتله)[1].

---

(1) رواه مسلم.

هؤلاء هم قتلة اليهود، ومحررو فلسطين، إنهم (المسلمون) لا الأردنيون، ولا السوريون، ولا الفلسطينيون، ولا العرب.. فقد تخلوا عن هذه العناوين ولم يبق لهم عنوان إلا (المسلمون).

هؤلاء هم الذين يناديهم الحجر والشجر: يا مسلم يا عبدالله، فليس لهم راية إلا الإسلام، وليس لهم شطر إلا العبودية لله وحده، هذا هو المقاتل الذى ترتجيه الأمة، وهو الذى سيزيل ملك إسرائيل والذى سيقتل اليهود نبأنا الذى لا ينطق عن الهوى أنه (المسلم) المسلم الذى خالطت قلبه بشاشة الإيمان، واتقدت بين جوانحه شعلة اليقين، وباع الحياة الدنيا بالآخرة، وليس المسلم (الجغرافى) الذى ورث الإسلام من أبويه كما ورث اسمه ولقبه، فليس له من الاسم إلا العنوان والتسجيل فى شهادة الميلاد، إنه (عبدالله) أما عبد الشهوات، عبد المرأة، عبد الكأس، عبد الدنيا، والدرهم، عبد المبادئ المستوردة من صناعة اليهود.. أما هذا فلن يتحقق به نصر، ولن تتحرر به أرض، ولن ترتفع به لأمتنا راية، وليس من ورائه إلا النكسات والوكسات).

ولقد ذاق اليهود الويلات فى حرب 1948م لما صمدت لهم فرقة، وقد صنعت العجائب، وحققت ما يشبه المعجزات على الرغم من ضعف الإمكانيات، وقلة الاستعدادات، وظهور الخيانات.

وكيف لا، وقد خرجت هذه الفرقة المؤمنة تطلب الشهادة فى سبيل الله، وتسعى إلى الموت ركضًا بغير زاد، حتى قال أحد اليهود للضابط المجاهد (معروف الخضرى) وكان أسيرًا لديهم: (نحن لا نخاف أى قوة كما نخاف من هؤلاء المتطوعين، فسأله الضابط: وما الذى يخيفكم منهم؟ قال اليهودى: لقد

هاجرنا وجئنا من بلاد شتى إلى هذه الأرض لنعيش وهؤلاء جاءوا ليموتوا).

وكم سمعنا فى حرب رمضان الأخيرة عن ضباط مؤمنين، وجنود مسلمين ممن كانوا يؤدون الخدمة الإلزامية فى الجيش السورى قد أبلوا البلاء الحسن، وثبتوا ثبات الأطال، وكبدوا العدو اليهودى الخسائر الفادحة، وحققوا لأمتهم بعض الانتصارات الخالدة.. وما ذاك إلا لقتالهم لإعلاء كلمة الله، وتحليهم بالأخلاق الفاضلة، والرجولة الكاملة، والأدب الإسلامى الرفيع.

إذن فالإيمان بالله وإعلاء كلمة الله، (ونيل الشهادة فى سبيل الله) ودخول المعركة باسم الإسلام هو أول مقدمات النصر.

ولا يعقل والمسلمون على هذه الحال - من القتال لأجل العصبيات والأهواء والشعارات المستوردة - أن ينالوا من عدوهم نيلاً، أو ينصرهم الله فى معركة المصير!.

5 - جعل قضية فلسطين قضية عربية محضة:

وإذا كان من أسباب النصر فى حطين: (جعل قضية التحرير قضية إسلامية) فإن من أسباب الفشل والهزيمة فى معاركنا مع اليهود اليوم هو جعل قضية فلسطين قضية العروبة والقومية.

وكم سمعنا من إذاعات، وقرأنا فى صحف، يروج مذيعوها وكتابها الدعوة إلى القومية العربية، وأن العرب وحدهم هم المسئولون عن تحرير فلسطين ومجابهة اليهود؟.

أليس فى هذه التصريحات والكلمات إغفال وتجاهل لشماتة الملايين

من المسلمين يؤمنون بثالث الحرمين وأولى القبلتين، ومسرى سيدنا محمد ﷺ، بل يعتبرون أن القتال فى سبيل أرض الإسلام أعظم الجهاد وأسمى الغايات؟.

إن معاركنا مع اليهود باسم القومية أو باسم العروبة، خيانة للإسلام، وخيانة للمسلمين، وخيانة للقضية الفلسطينية.

أما إنها خيانة للإسلام: فلأن المنادين للجهاد باسم القومية أو العروبة أبعدوا الإسلام عن القتال باسمه والجهاد فى سبيله.

أما إنها خيانة للمسلمين: فلأن المنادين بالجهاد باسم القومية أو العروبة قد اعتبروا رابطة الإخاء هى رابطة العروبة، وآصرة الإيمان هى آصرة القومية، والله سبحانه وتعالى يقول فى محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾(الحجرات: 10) ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾(الأنبياء: 92).

وهل يفهم من هاتين الآيتين الكريمتين إلا أن الرابطة الحقيقية التى تجمع المسلمين، وتوحد بينهم هى رابطة العقيدة الإسلامية، هذه الرابطة اعتبرها الإسلام فوق رابطة الدم والجنس واللون واللغة والتاريخ؟

فهل رأيتم فى تاريخ الأمة الإسلامية خيانة أعظم من هذه الخيانة؟

وهل سمعتم فى كل المعارك التى خاضتها المسلمون مع أعدائهم فى القديم والحديث جحودًا ونكرانًا لأخوة الإسلام مثل هذا الجحود والنكران؟

أما إنها خيانة للقضية الفلسطينية: فلأن المنادين للجهاد باسم القومية أو العروبة قد وقفوا من المسلمين غير العرب موقف المجافاة والبغضاء لإشعارهم

زورًا وبهتانًا أن قضية فلسطين هى قضية العرب وليست قضية المسلمين.

فهل يعقل - بعد ردود الفعل هذه- أن يتحفز المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لنصرة فلسطين والجهاد لأجل الأرض المقدسة بعد أن قطع مروجو الدعوة إلى القومية العربية كل آصرة تربطهم بالدول الإسلامية، وفصموا كل وشيجة تنسبهم إلى عقيدة الإسلام؟

وهل عرف المسلمون فى تاريخهم المجيد، وفى سيرة آبائهم الأولين نسبًا غير نسب الإسلام، ورابطة غير رابطة الإيمان والقرآن؟

يقول الشيخ محمد نمر الخطيب فى كتابه (الإيمان طريقنا إلى النصر) ص82، (لقد دأب زعماء العرب من سنوات طويلة ليجعلوا قضية فلسطين قضية عربية خالصة، ولست أدرى ما الذى دعاهم إلى ذلك؟، لست أدرى ما الذى دعاهم ليتنكروا لمسلمى العالم، وعددهم أكثر من ألف مليون يحتلون أعظم بقاع الدنيا، وأغنى مناطق الأرض، ويملكون الذهب الأسود والأبيض؟

لست أدرى لم يفعلون ذلك، وقد رأينا الأمم تسعى لاكتساب الأصدقاء، وتستجدى تأييد الشعوب لها؟

غاية ما أستطيع أن أفهمه من صنيع زعماء العرب هذا، أنهم يريدون أن يسترضوا مواطنيهم من النصارى، وهم قلة موزعة على بلاد العرب من الخليج إلى المحيط، ولكن هل ينزعج مواطنونا النصارى من نجدة إخواننا المسلمين لإنقاذ فلسطين، وإنقاذ مهد عيسى، وكنيسة القيامة؟

هل ينزعج مواطنونا النصارى، إذا رأوا المسلمين من غير العرب يسابقون العرب جميعا إلى بذل دمائهم رخيصة فى سبيل إنقاذ الأرض

المقدسة؟ وحجة أولئك الذين يفصلون بين الإسلام والعروبة فى حربنا مع اليهود أن العالم اليوم لم يعد يسمع لنغمة الدين والدعوة إليه فى قتال أو معركة، وسيرمينا بالرجعية والتخلف إن نحن جعلنا القضية الفلسطينية قضية إسلامية، ولكن أليس يدرى هؤلاء أن إسرائيل حين قامت، قامت على أسس دينية، وأن الدعاية التى تقيمها لنفسها فى الخارج هى باسم اليهودية.

يقول اليهودى: (وايزمان) فى مذكراته: (لقد قابلت اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا، الذى بادر بسؤالى على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا؟ وقلت لبلفور: إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح.. ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى، فإننا لا نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى).

ويقول اليهودى: (هرتزل) فى مؤتمر (بال) الذى عقد سنة 1897م: (إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية).

وكتب (بن جوريون) إلى الرئيس (ديجول) رسالة يقول فيها: (إن سر بقائنا بعد التدميرين البابلى والرومانى، وفى حقد المسيحيين الذى أحاطوا بها ألف عام، يكمن فى صلاتنا الروحية بالكتاب المقدس).

لقد وضع زعماء اليهود قسمًا يقوله كل يهودى يبلغ سن الرشد: (هذا يميننا يا إسرائيل.. أقسم أن أكرس ولائى لله، وللتوراة، وللشعب اليهودى، وللدولة اليهودية).

وتحدث (بن جوريون) فى المؤتمر الخامس والعشرين للصهيونية العالمية فى 1960/ 12/ 25م وقال: (إن كل يهودى يجب أن يهاجر إلى

إسرائيل، وإن كل يهودى أقام خارج إسرائيل، منذ نشأتها يعتبر مخالفًا لتعاليم التوراة، وإن هذا اليهودى يكفر يوميًا باليهودية).

ولقد كان من تأثير القيم الروحية فى الشعب اليهودى أن توصلوا إلى الأمور التالية:

- فالدولة اسمها إسرائيل.
- والذى يعمل يوم السبت يرمى بالحجارة.
- والذى يتزوج زواجًا مدنيًا لا تعترف به الدولة.
- والمطاعم التى لاتطبخ على الطريقةاليهودية تقفل أبوابها.
- وعلى كل يهودى أن يختار له اسمًا يهوديًا من التوراة.
- ومنذ مدة قصيرة طالب (نسيم) أكبر حاخامية إسرائيل بجعل (التلمود) شريعة إسرائيل وكان قبله وزير الشؤون الاجتماعية فى الدولة العنصرية، قد حاول الاعتراف (بالتوراة) ككتاب تسير إسرائيل على مبادئه.

وآخر ما سمعناه من الأخبار أن حزبًا كبيرًا من أحزابهم، لم يصوت بجانب (جولدا مائير) رئيسة وزراء إسرائيل بحجة أن الديانة اليهودية لا تبيح أن تترأس الدولة امرأة من النساء)[1].

هل من الحق والمنطق والعدل أن نترك عدونا المغتصب ينطلق باسم الدين، ويتوحد باسم الدين، ويقيم دولته على أسس دينية، ونحن دعاة الحق، وأصحاب القضية نخجل ونستحى أن ندخل الإسلام الذى هو شريعة الله في حساب المعركة، أو أن يكون قتالنا مع العدو باسم الإسلام

(1) من مجلة الحوادث 9 شباط العدد 1968 /587.

الذي به نحيا وعليه نموت؟ بل وصلت الوقاحة عند كثير ممن يهتمون بالقضية الفلسطينية أن يتنكر لستمائة مليون مسلم حين حصروا القضية فى العرب وحدهم وفى الدول العربية وحدها.

فهل يعقل - والقتال باسم القومية أو العروبة- أن ينال العرب من عدوهم نيلا، أو ينصرهم الله فى معركة المصير؟

هذه مقارنة وموازنة للحروب الفلسطينية بين الأمس واليوم ألا فليعتبر أصحاب العقول الراجحة وليأخذوا من ذلك الدروس والعبر، وليسلكوا الطريق الأقوم فى سبيل تحرير الأرض المقدسة من براثن اليهود، والوصول إلى النصر المؤزر إن أراودا أن يحققوا لأمتهم عزًّا على مدى الأيام، ولأجيالهم ذكرًا عظيمًا يتناقله الأبناء إلى الأحفاد.

والطريق الوحيد للنجاة والإنقاذ ودفع العار، هو الإسلام، فهو السبيل إلى النصر.

المراجع

- الكامل فى التاريخ - ابن الأثير
- النوادر السلطانية - ابن شداد
- صلاح الدين الأيوبى بطل حطين - على محمد الصلابى
- صلاح الدين الفارس المجاهد - شاكر مصطفى
- الفتح القسى فى الفتح القدسى - العماد الأصفهانى
- الأعلام - خيرالدين الزركلى
- البداية والنهاية - ابن كثير
- الروضتين فى أخبار الدولتين - محمد حلمى محمد
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ابن واصل الحموى
- وفيات الأعيان - ابن خلكان

فهرس المحتويات



تمهيد: (1) حال العرب قبل ظهور صلاح الدين الأيوبى 7

السلاجقة: 8

معركة ملاذكرت Malazgirt وانتصار السلاجقة 9

قصة الحروب الصليبية على المشرق العربى

1 - ماهية الحروب الصليبية: 2 - أسبابها ودواعيها: 14

3 - الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس: 15

4 - من أسباب انتصار الصليبيين: 17

5 - الحملة الصليبية الثانية مقدمة للانتصار فى حطين: 18

(2) الحملات الصليبية واحتلال بيت المقدس - الحملة الصليبية الأولى 20

احتلال بيت المقدس 25

إمارة طرابلس 26

(3) ظهور نورالدين زنكى وجهاده ضد الصليبيين 28

الحملة الصليبية الثانية 32

ظهور صلاح الدين الأيوبى على مسرح الأحداث 37

(4) الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى 43

بداية حكم الناصر صلاح الدين 52

الناصر صلاح الدين فى مصر 57

(6) فى سَبِيل الوحْدَة 67

إصْلاحَات دَاخليَّة 79

إلى الشَّام مِنْ جَديد 91

شبهات تحاكُ دُونَ إِمْهَال 102

(7) الناصر صلاح الدين فى بلاد الشام 104

الناصر صلاح الدين وتوحيد العالم الإسلامى 114

(8) معركة حطين 119

على أية حال انتهت الحرب؟ 136

ماذا فعل صلاح الدين الأيوبى بعد معركة حطين؟ 138

(9) صلح الرملة 143

ووفاة صلاح الدين الأيوبى 143

(10) البطل الناصر صلاح الدين وأسرار الانتصار على الصليبيين 152

1 - تقوى الله والاحتراس من المعاصى: 153

2 - الإعداد الكامل والاهتمام البالغ لقضية التحرير: 158

3 - وحدة البلاد السياسية تحت إمرة واحدة: 159

4 - الهدف من القتال إعلاء كلمة الله: 160

5 - قضية التحرير كانت قضية الإسلام والمسلمين: 163

(11) أشهر سمات القائد الناصر صلاح الدين 165

النقد الذى وجه إلى صلاح الدين: 178

(12) أشهر الإصلاحات التى حققها الناصر صلاح الدين 190

(13) قالوا عن الناصر صلاح الدين 206

(14) أين أنت يا صلاح الدين؟! 218

المراجع 235